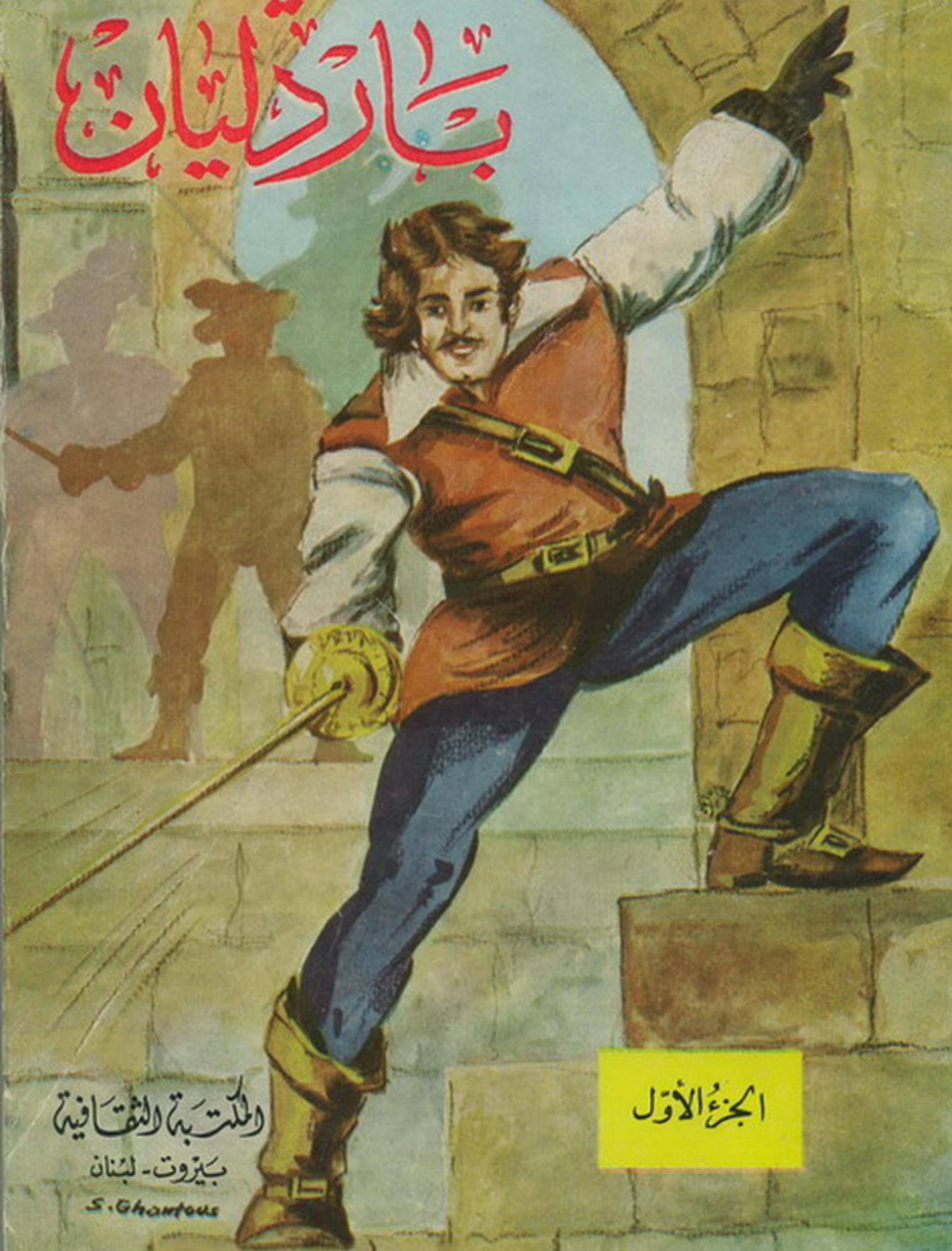


ميشال زيفاكو

رواية
بشارك الليان



المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

S. Ghantous

الجزء الأول

میشال زیناکو

رَوَايَةٌ
بِحَارِ دَلِيَّاتِ

ترجمة : طانيوس عبده

الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الاخوان

المنزل كبير منخفض لا تعلو نوافذه أكثر من مترين عن سطح الأرض .
والنوافذ تطل على بستان كبير ، بل جنة فيحاء ، تناجت أطيارها بارق
من نغمات العيدان ، وتهدج صوت النسيم فيها ، فحننت أغصانها إلى
معانقة الأغصان .

وفي إحدى الغرف المشرفة على البستان شيخ جليل جالس على كرسي ضخم
وقد بيضت شعره السنون ، وبدت عليه دلائل الهرم وهو لم يتجاوز في حلبة
العمر مبلغ الكهول .

كان هذا الشيخ ساهي الطرف ، مشئت البال ، ينظر الى البستان بعين
تضطرب فتدمع ثم ينظر إلى حصن منيع يجواره فتتقد عيناه وتلمع . ثم
يعود فيرسل طرفه الى البستان وتخرج من صدره أنة لولا تقادم العهد بشبابه
لقلنا انها أنة ولهان . ويقول بعد هذا الأنين : إبنتي .. أين إبنتي ... وإنما
بذكر إبنته بصوت يتهدج من الرفق والحنان .

وكان في هذه الغرفة خادمة تشتغل بترتيبها فسمعت قول الشيخ وقالت له :

إن الآنسة يا سيدي تجني الأزهار .

فابتسم الشيخ وقال : نعم ، إننا في زمن الربيع البامم ، وكل ما في الوجود يبسم وينشد ، ولكن ابنتي أجمل أزهار الربيع ، فهي في ربيع دائم .

ثم أطلق نظره الى ذلك الحصن ، حصن أمرة مونت مورانسي ، وبرقت عيناه ببارق من الحقد وقال : أي مونت مورانسي ، صاحب هذا الحصن وأمير الجيوش ، إنك أخذتني أخذ العزيز القادر ، وثبتت عني عطف الرحمة ، فأثرت كمين ضغفك وسلبتني ضياعي العامرة ، فما أبقيت لي غير هذا المنزل الذي آوي اليه ، على انك قد يستفزك الحقد الى اختلاسه فيما اختلست ، فأبيت دون مبيت ... إبتناه ، إنك تجنين أزهار هذا البستان وقد يكون ذلك آخر ما تجنين .

ثم سالت دمعتان على وجنتي هذا الشيخ القانط فمسحها بمنديله وعاد الى النظر فاصفر وجهه فجأة . ذلك انه رأى فارساً بالملابس السوداء نرجل عند باب منزله ودخل اليه .

فقال في نفسه : وبلاه انه رسول امير الجيوش .

أما الرسول فانه دعا من الشيخ ووقف أمامه وقفة المتهيب وبيده ورقة مطوية . ثم المنحى بملء الاحترام وقال : يا سيدي دي بيانس اني رسول مولاي أمير الجيوش أتيت اليك بهذا البلاغ .

فارتعدت فرائص الشيخ وقال : بلاغ !

يعز علي يا سيدي ان أكون من نذراء السوء ، فقد صدر إلي الأمر بابلاغك نسخة من أمر البرلمان الصادر في باريس أمس ، أي في الخامس وعشرين ابريل سنة ١٥٥٣ .

فوقف دي بيانس ووضع يديه على صدره وقال : قل أيها الرجل ، أبقني في كنانة أمير الجيوش سهم لم يرمني به ؟ قل ما هي هذه النكبة الجديدة التي

قذفها بركان حقهده .

فأجابه الرسول بصوت ضعيف كأنه يخجل مما يقول : مولاي ان أمر البرلمان يقضي بتجريدك من هذا المنزل الذي تقيم به ومما يحيط به من الأراضي التي منحك إياها الملك لويس الثاني عشر ، ويقضي بردها الى أسرة مونت مورانسي في مدة شهر .

فحاول الشيخ ان يتجلد فخانه الجسد واصفر وجهه ، فنظر الى ذلك البستان العظيم المهدق بمنزله نظرة قنوط وقال : يا مولاي لويس الثاني عشر وبأياها الملك الشهير فرنسوا الأول ، ألا تسمعان من قبريكما ما يقول هذا الرسول . .

ألا تريان من العلى ما يصنع أمير الجيوش بمن سفك دمه في أربعين معركة في سبيل مجدكنا ومجد الوطن . .

إنهضنا من رقادكنا وانظرا الى هذا الشيخ وهو غرس نعمتكما كيف يطرد من أرضه فلا يبقى له ما يسد به الرمق . . وانظرا إلى هذا البطل المنكود كيف يحازى بعد ان مات من كان يعرف قدر الأبطال .

فلما سمعه الرسول يكلم نفسه بهذه الأقوال ، ورأى دلائل اليأس بادية بين عينيه ، وضع البلاغ على كرسي وانسل هارباً دون استئذان .

ولكن الشيخ لم يفطن له فقد كان في شاغل عنه بما دامه من اليأس ، فجعل يندب حظه العائر ويتوجع لنكبة ابنته وهي في مقتبل العمر ، ثم ينظر إلى حصن مونت مورانسي فيهبج فائز حقهده ويقول : إن يد الله فوق يدك أيها الظالم ، فلتلق بعدي سبة الأبد ، ولتشق ببنيك ، ويشقى بنوك بأولادهم بعدك .

ثم مد قبضته الى ذلك الحصن مهدداً وسقط على الأرض مغمياً عليه .

ولقد كانت نكبة هذا الشيخ المنكود هائلة ، لانه كان سيد جميع بيكارديا ، فما زال مونت مورانسي أمير الجيوش ينزع منه الأرض بعد الأرض ،

والضيعة في أثر الضيعة بما له من النفوذ في البرلمان ، حتى لم يبق له غير أرض
مارجيني ، وهي الأرض التي يقيم فيها مع ابنته في أشد حالات الشقاء ،
لا ثروة له يعيش من ريعها ، ولا قوة له يدفع بها عن ابنته شقاء الفقر ،
وباله من شقاء .

كانت حنة ابنة الشيخ دي بيانس في السادسة عشرة من عمرها وهي غراء
الطلعة هيفاء القد حوراء العينين كأنها خلقتنا للسحر بل كأنما هي الحسن مجسماً
والجمال ممثلاً فلا تفتح العين على أتم منها حسناً .

وكانت قد ذهبت في ذلك اليوم الذي تبدأ فيه هذه الحكاية الى بستان
المزول في الساعة التي تعودت الذهاب فيها كل يوم ، فتوغلت في غابة الكستنا
وهي آخر غابات البستان تستنشق هواء المساء البليل ، وقد سارت بين تلك
الاشجار وهي تتمتع قائلة : ترى أأجسر على ان أعترف له الليلة بهذا السر
الهائل الدقيق .

وفيا هي تحدث نفسها وقد وضعت يدها فوق قلبها ، شعرت فجأة بيد
جذبتها بلطف وبغم لثم يدها ، فارتعشت لهذه القبلة ثم ابتسمت الطف ابتسام
وقالت : فرنسوا !

- ولكن ماذا لم بك أيتها الحبيبة وما هذا الاضطراب ؟

- إصغ أيها الحبيب .. واعلم ..

ولكنها تلعثمت وقالت : أواه اني لا أجسر على التصريح ..

ثم ~~كانت على ما كان في حالها من الحب والحنان~~

كان هذا المباغت فق في مستقبل العمر لطيف الخلق متناسب الأعضاء صبيح
الوجه يتألق في جبينه ضوء البشر والطلاقة
وهذا الفقى يدعى فرنسوا دي مونتمورانسي ، وهو أكبر أبناء أمير
الجيوش الناظم على والد حنة والذي انتزع منه منذ ساعة آخر ما بقي له من
آلات العيش .

وقد مشى مع الصبية يتشاكبان ويتناجيان ، وهي كلما مشت
خطوة تقف ، فتصفي وتقول : إنهم يقتفون أثرنا ... إنهم يراقبوننا ...
ألا تسمع ؟

فبصفي فرنسوا إصفاؤها فلا يسمع حساً ويقول : ربما كان ما سمعته صوت
عدو أرنب سارح في البستان .

فتمشي هنيهة ، ثم تعود إلى الوقوف وتقول : فرنسوا ... فرنسوا ...
إني خائفة .

فينذهل الفتى ويقول : مما تخافين أيتها الحبيبة وأنا معك ومن يحسر ان ينظر
إليك ما زالت يدي في يدك ؟

- إني مضطربة الحواس يكاد ينشق صدري من الخوف وذلك منذ ثلاثة
أشهر على الأخص .. فرنسوا إني خائفة .

- أيتها الحبيبة إنك امرأتى أمام الله منذ هذا الزمن الذي بدأ فيه
رعبك ، فكيف تخافين وأنا أتولى حمايتك ... إنك ستكونين قريباً امرأتى أمام
الناس ولا أكثرث لهذا العداء القديم بين أبويننا ، فاذا كان هذا الذي
يخيفك فاطمئني .

- لا ريب عندي فيما تقول أيها الحبيب ، لأن بين جنبيك قلباً طاهراً لا
يعرف الدنس . وهب ان الله قدر ان لا نتمتع بهذه الأمنية السميدة لكفاني
من أماني الحياة انى لك يحملتي ... حبنى يا فرنسوا ، فإن حبك سلوتي
وان قلبي يحدثني بان الدهر سيفاجئني بنكبة هائلة ، كأنما الصاعقة تنقض
على رأسي .

- إني أحبك حباً ليس بعده غاية لمستزيد ، ولولا حذر الشرك بالله لقلت
انى أعبدك كما أعبد الله . فما أرحى الى قلبك هذا الخاطر المحزن أيتها
الحبيبة ؟ إنك ستكونين إمرأتى فى أقرب حين ، وليس فى الوجود قوة تحول
دون بلوغى هذه الغاية .

وهنا حمل الهواء صوت قهقهة لم يسمعه العاشقان لاضطرابها .
وامتأنف فرنسوا الحديث ، وقال بلمهجة العاتب : على اني أستشف
من كلامك إنك تكتمين سرأ يؤلمك ، ويهيج من قلبك مكان الخوف ،
فإذا كان ذلك ، فكيف تكتمين أسرارك عن عشيقك ... بل عن
زوجك .

- نعم ، لقد أصبت ، فلا يحق لي ان أكتم سرأ عنك . إذا ، أعلم
إني أنتظرك حين يذتصف الليل عند مرضعتي في منزلها .. نعم يجب ان تعلم
كل شيء ، ولكني لا أجسر على الإباحة بسري إلا في الليل .

- ليكن ما تريدن ايتها الحبيبة ، فسأوافيك عند انصاف الليل .
- والآن سر بامن الله ، لأنني عائدة الى المنزل ، فقد طال غيابي
عن أبي .

فعمانقها فرنسوا مردعاً وعاد من حيث أتى فوقفت حنة تشيعه الى ان توارى
عن النظر فتنهدت ومشت عائدة الى المنزل .

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى سمعت من ورائها وقع أقدام فالنفتت
وامتقع وجهها للفور إذ رأت فتى يبلغ العشرين من العمر يتعقبها وهو براق
العينين تدل ملامحه على الحدة والكبرياء .

فوقفت الصبية وقالت بلمهجة المنذع : أهو أنت يا هنري !

فأجابها بصوت المستهزيء : نعم أنا هو ذلك الشقي بفرامك . ولما هذا
الخوف مني ؟ اليس لي الحق ان أكلمك مثله ، اي مثل أخي .
فلبثت حنة مضطربة دون ان تجيب .

أما هنري شقيق فرنسوا فإنه ضحك ضحك الساخر وقال لها : اذا كنت
لا تمنحيني هذا الحق فإني استمنعه لنفسي . نعم ، إنني إذا كنت لم أسمع كل
ما قلتاه فقد رأيت كل ما كان بينكما ~~من التقييل والعضاقم~~ ، وبعد ، فما
هذه الجفوة والاعراض ، وما بالك تقسين علي هذه القسوة وأنا اول من جاهر

لك بفراجه . وبماذا يفضلني أخي فترغبين به عني ؟
فبدت دلائل الانفة على وجه الفتاة وقالت له : إني أحبك يا هنري ،
وسأحبك ما حييت حب إخساء ، لأنك أخو الذي وهبته حياتي .
ودليل صدقي ، في حبي إياك ، وعطفي عليك ، إني لم أقل كلمة بعد
عنك لفرنسوا .

- إنك تكتمين غرامي لك عنه حذراً عليه فإذا شئت قولي له اني أحبك ،
ولبائني بحسامه فلدي أيضاً مثل ذلك الحسام .

- لقد جريت شوطاً بعيداً في تحقيري حتى بت أخشى ان أنسى من أنت
وانك أخوه .

- لا تقولي أخاه بل خصمه ومزاحمه .

فضمت حنة يدها إلى صدرها وقالت : أواه يا فرنسوا إني أسألك العفو
لسماعي هذه الأقوال الشائنة وسكوتي عنها .

فانقذت عينا هنري ببارق من الحقد وقال : إذا أنت لا تزالين مصرة على
جفائي .. ما بالك صامته .. ألا تريدان ان تحبينى .. ليكون ما تريدان
ولكن إحدري .

فاضطربت الفتاة وقالت : أسأل الله أن تكون مغبة هذا الوعيد الذي
أقرأه بين عينيك علي وحدي دونه .

فارتعش هنري وقد يشس منها وقال لها : إذا إلى اللقاه أيتها الحسناء .
أسمعيني ! إني لا أودعك لاننا سفلتقي .

ثم أطرق برأسه الى الأرض وابتعد عنها بين الغابات يمشي مشية الخنزير
الجريح وفي قلبه تتأجج نار الانتقام .

ومشت حنة وهي تقول : رباه ! اذا أردت ان يفوز هذا الرجل بانتقامه
فليكن فوزه علي .

وفيا هي عائدة الي منزلها تدعو الله لزوجها وحبيبها بالسلامة من شر

أخيه شعرت بحركة الجنين في أحشائها .
وذعرت ذعراً هائلاً ، وركعت على الأرض ، وهي تقول : رباه !
اني لم أعد وحيدة في هذا الوجود ، فإن في أحشائي جنيناً يريد أن
يعيش ، ولا أدعه يموت .

- ٢ -

نصف الليل

كانت السكينة سائدة ، والظلمات مدلّمة ، وقد احتجب القمر عن
وادي موافرانسي .

وقد دقت الساعة الحادية عشرة فوقفتم حذو تعدد دقائقها حتى اذا انتهت من
عدها عادت الى مناجاة ذلك الجنين باعذب الألفاظ .

ثم صمتم هنيهة وعادت الى محادثة نفسها فقالت : ما هذا الاضطراب
الذي رأيته من أبي حين عودتي في هذا المساء . ولماذا ضمنى الى صدره والدمع
يترقق في عينيه . العله أصيب بنكبة جديدة يكتمها عني ... اني لم أراه
مرة على مثل ما رأيته الليلة .. رباه ! أكتب لنا في لوح المقدور ان لا نهنا
طرفه عين ؟

ثم ركعت أمام صورة العذراء وجعلت تصلي ، حتى دنت ساعة انتصاف
الليل فأطفأت المصباح واتشحت برداء ثم خرجت متجهة الى منزل قروي
يبعد خمسين خطوة عن منزلها .

وبينا هي سائرة رأت شبحاً يسير مثلها فنادت قائلة : فرنسوا !
غير ان الشبح لم يرد فأطرقت برأسها واستمرت في مسيرها .

أما الشبح فانه سار الى منزل والد الفتاة وذهب توأ الى نافذة كان ينبعث
منها النور فطرقها .

وكان الشيخ والد حنة لم ينم بعد ، وهو يسير في أرض الغرفة ،
جينة وذهاباً ، لا يفكر إلا بأمر واحد ، ولا يسأل نفسه غير سؤال واحد
وهو : ما عسى ان يكون مصير ابنته بعد ان يطرد من المنزل ، والى من
يلجأ بها ؟

فلما سمع الطرق على النافذة وقف فجأة وقال في نفسه : هوذا نكبة جديدة
دون شك .

ثم ذهب إلى النافذة ففتحها ونظر الى الطارق فخرجت من صدره أنه تشبه
الزئير لأنه رأى هنري دي مونرانسي ابن ألد أعدائه .

فعاد لفوره إلى غرفة مجاورة كان يضع فيها أسلحته فانزع سيفين من
الحائط وعاد بهما فألقاهما على المائدة .

وكان هنري قد وثب الى الغرفة فجعل كل من الرجلين ينظر إلى الآخر
نظرات تارية وهو لا يستطيع ان يفوه بحرف .

غير ان الشيخ أشار ، بملء العظمة ، الى السيفين الموضوعين على
المائدة .

فهر هنري كتفيه ، وأمسك بيد الشيخ وقال له : إني لم أجيء الى هنا
بغية مبارزتك ، وأية فائدة من ذلك ؟ لأنني أقتلك لا محالة ، وفوق ذلك
فليس لدي ما يدعوني الى قتلك لأنني لا أكرهك ، ولا أحقد عليك .
وأي ذنب جنيته إذا كان أبي قد جردك من ثروتك ، وأصبحت فقيراً
معدماً بعد ان كنت من كبار الأغنياء ، وغدوت من عامة الناس بعد أن
كنت من الحكام .

فضرب الشيخ المائدة بقبضته وقال : إذا ، ما جئت تعمل في منزلي ؟
قل فإنني أعد وجودك عندي أعظم إهانة تصمني بها . العمل أباك أرسلك
إذ لم يحسر ان يأتي بنفسه ، أم أنت قادم لتري إذا كنت لا أزال حياً
بعد تلك النكبة التي رماني بها ؟ ... قل ، أو أندفع مع تيار غضبي فأقتلك
في الحال .

فسح هنري العرق الذي كان يتصبب من جبينه وقال ، أتريد أن تعلم
السبب الذي حملني على القدوم اليك ؟ إذا ، أعلم اني عارف بكل ما أصابتك
به اسرة مونترانسي من الكوارث ، وقد جئتك أيها الشيخ الجاهل لأقول لك ،
ليس من العار الذي لا يحى ان تكون ابنتك بعد هذا العداء خلية فرنسوا
دي مونترانسي ؟

فاهتز الشيخ كأنما قوة كهربائية هزته ومرت على بصره غمامة حمراء ورفع
يده ثم بصفع هنري .

غير ان هنري أسرع إلى تلك اليد فأوقفها عن الصفع وقال له أتشك بما
قلته لك أيها الشيخ البليد .. ان ابنتك في هذه الساعة بين ذراعي أخي ..
تعال .. تعال وانظر بعينيك .

ثم جره الى غرفة حنة ورفس الباب برجله ، فلما فتح لم يجد الشيخ ابنته
فيها فرفع عينيه الى السماء وأن أنيناً موجعاً وعاد مطرق الرأس من اليأس
والحجل الى قاعة الاستقبال ، فسقط على كرسي فيها سقوط الشجرة الضخمة
تكسرها العاصفة .

فاغتم هنري تلك الفرصة وهرب من ذلك المنزل الذي فضح فيه أخاه كما
هرب من قبله قاين .

أما حنة فإنها ذهبت الى منزل مرضعتها فلم تدخل اليه بل وقفت عند بابه
تعيد في نفسها ما أعدته من القول للاعتراف بسر حبليها .
ولم يطل وقوفها إذ دقت الساعة الثانية عشرة ووصل فرنسوا فعرفته

وعرفها ، ~~وكانت تائهة~~ الشغف ، لأن الحب بينهما كان شديداً متبادلاً
على السواء .

وعند ذلك قال لها فرنسوا : إن الدقائق أيتها الحبيبة معدودة علينا في
هذه الليلة ، فقد أقبل منذ هنيهة فارس إلى الحصن يخبرنا ان أبي سيصل بعد
ساعة ، ولا بد لي أن أكون في الحصن لاستقباله . فاعترفي لي أيتها
الحبيبة بهذا السر ، ولا تترددي في قوله مهما كان من أمره فإنك تكاشفين
به زوجك .

- زوجي ... إن قلبي يوشك ان يطير فرحاً لهذه الكلمة الحلوة . أحق
ما تقول يا فرنسوا ؟

- أقسم لك يا حنة بشرفي وباسمي المجيد الذي لم يتدنس .
- إذا فاسمع .

ثم اتكأت عليه وأسندت رأسها على كتفه وحاولت ان تبدأ اعترافها ،
فسمعت عندها صيحة هائلة اخترقت سكون الفضاء فرعبت رعباً شديداً وقالت :
فرنسوا إن هذا الصوت صوت أبي .. فرنسوا ان صوته يشبه صوت المختنق ..
فرنسوا انهم يخنقون أبي .

ثم أفلتت من ذراعي حبيبها وجعلت تمردو إلى منزل أبيها ، فبلغته ببضع
ثوان ، ووجدت الباب والنوافذ مفتوحة ، فدخلت إلى القاعة الكبرى حيث
كان النور . فرأت أباهما جالسا فيها على كرسي ، وهو كأنه منصمق فطوقت
بذراعيها رأسه المكمل بالشيب وجعلت تقبله وتقول : أبي .. أبي .. هذا أنا ..
ابنتك حنة .

ففتح الشيخ عينيه ، ونظر بهما الى ابنته المنكودة ، نظرة ملؤها
الاحتقار .

فتراجعت منزعرة الى الورا ، وهي لا تشك في أنه عرف
كل أمرها .

ثم جثت أمامه على ركبتيها فاعترفت له بأمرها وقالت له : أسألك العفو يا أبي عن حبه ، فقد دفعتني إلى ذراعيه بد قوية بجهولة ، ولو علمت يا أبي قدر حبنا لكان هذا الحب لديك خير شفيح .

أما الشيخ فانه وقف حين فرغت من حديثها فكان يشبه الخيال وأخذ بيد ابنته وأنهاضها .

فصاحت الفتاة بلمهجة السرور قائلة : أعفوت يا أبي عن ذنبي ؟

فلم يجيبها بكلمة عن سؤالها ، بل سار بها حتى وصل إلى الباب ، فمد يده إلى خارجه وقال لها : إذهبي إلى حيث تشائين فلست أبينك ولم يعد لي بنون .

فشمرت الفتاة ان الأرض تميد بها ، وحاولت الكلام فأنحبس لسانها ، واختنق صوتها .

لكنها سمعت من ورائها صوتاً يقول : لقد أخطأت يا أبي فلا يزال لك ابنة وان ابنك يقول هذا القول .

وكان صاحب هذا الصوت فرنسوا مونثورانسي ، فدخل بعد ان قال هذه الكلمات ، بينما كانت حنة قد صاحت صيحة رجاء ، وصاح الشيخ صيحة يأس ، وتراجع منذعراً إلى الوراء هو يقول : عشيق ابنتي في منزلي ... يا للعار !

فدنا منه فرنسوا وقال له بلمهجة يتبين منها الصدق : قلت لك يا سيدي انك منخدع فهل تريد ان أكون ولدك وزوجاً لابنتك .

- رباه ، ماذا أسمع ، أنت ولدي .. أتريد ان تجهز علي بالتهمك الهائل بعد أن قتلتني بالفضيحة .

- لا عار يا سيدي ولا افتضاح ، ففضل بقبولي زوجاً لابنتك .
- إنني أرى الصدق بادياً بين عينيك ، ولكن الملك تجهل انك ابن الأمير .

الجيش .

- كلا ، ولا أجهل أيضاً ما بينك وبين أبي من العداة ، ولكن زواجي بابنتك كافل بزوال الحقد ، ومنع المظالم عنك ، قل يا أبي إن سعادتني وسعادة ابنتك بين شفتيك .

ففرح الشيخ فرحاً لا يوصف وكاد يبارك العاشقين .

ولكن خطر له فجأة خاطر هائل ، فقال في نفسه : إن هذا الفتى يرى اني بت على أبواب القبر ، فهو سيعبث بابنتي بعد موتي كما عبث بي في قيد الحياة .

فقال له : أحقيقة إنك تريد الزواج بابنتي ؟ .. قل متى ؟! وفي أي يوم ؟

فعلم فرنسوا ما يحول في خاطر الشيخ ، فاتفقت عيناه بأشعة الإخلاص وقال : غداً .

فأجاب الشيخ ، بصوت أجش : ولكنني أكون غداً من أهل القبور .

فنظر فرنسوا الى ما حواليه ، فرأى الخدم قد صحوا من رقادم ، واجتمعوا في تلك القاعة ، فتأبط ذراع حنة وأشار الى خادمين أن يحملوا الشيخ على كرسبه التي كان جالساً عليها ، وهو بحالة تشبه النزاع وقال : هلم بنا يا أبي الى الكنيسة كي يعقد لنا كاهنها عقد الزواج ، فيصحووا اتحاداً عداة عائلتنا .

فاضطرب قلب الشيخ حتى كاد يخرج من صدره ، وصاح صيحة فرح خرجت منقطة كأنها أنة شقاء رسالت الدموع من عينيه فمد يده وبارك هذا الفتى الشريف .

وبعد عشر دقائق كان كاهن كنيسة مارجنسي يصلي صلاة الفجر ، وفي أوائل المصلين فرنسوا وحنة ، وورائهما والدهما وقد حملوه الى الكنيسة على كرسبه ووراءه امرأتان وثلاثة رجال وخدام المنزل ، فكانوا شهوداً على

(٢) بارهليان (ج ١)

عقد الزواج .

ولما فرغ الكاهن من الصلاة عقد زواج العاشقين وباركهما ، ووصل بينهما بتلك الصلة الأبدية ، وعاد الزوجان الى منزل الشيخ يلتمسان بركته الأبوية فرأياه يحاول ان يرفع يديه ليباركهما فلا يستطيع ، ولكن دلائل الفرحة كانت مرتسمة على وجهه .

وبعد هنيهة ابتسم لهما إذ لم يستطع الكلام ، وطبع الابتسام على شفتيه وقد صبغت بالاصفرار فلم يفارقها بفراق الروح .
ذلك ان هذا الشيخ قتله الفرحة ، بعد ذلك اليأس ، فعات باسماء
قرير العين .

- ٣ -

مجد الاسم

وبعد ذلك بساعة دخل فرنسوا الى حصن مونمورانسي ، وقد عهد بزوجته الثاكلة الى مرضعتها ، ووعداها ان يعود اليها عند الفجر ، بعد ان يرى أباه .

فلما دخل فرنسوا الى قاعة السلاح الكبرى وجد أباه أمير الجيوش جالسا على عرش عظيم يرقى اليه بثلاث درجات مفروشة بالخمير ، والعرش محلى بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة .

وكان النور شديد التألُق في هذه القاعة إذ كان فيها اثنا عشر عموداً من

النحاس وفوق كل عمود يتشعب إثنا عشر مصباحاً والجدران مغطاة بالسجاد
الثلثين وعليه الأسلحة المختلفة على جميع أنواعها .

وكان يوجد على هذه الجدران إثنتا عشرة صورة ، هي صور أجداد
أمير الجيوش ، وتحت صورة كل منهم ما كان يستعمل في عصره من
أنواع السلاح .

وكان أمير الجيوش جالساً على عرشه وهو مقطب الجبين ، وقد وقف
حوله خمسون رجلاً من خيار قواده مكوثاً لا يتكلمون ، وعلى يساره
قرب العرش ولده هنري ، وهو قائم في مهامه التفكير ، لا يشغله غير
الكيد لأخيه .

ولم يكن فرنسوا قد رأى أباه منذ عامين ، فتقدم حتى بلغ العرش
دون ان يرى نظرات أخيه الدموية ، فانحنى أمام أبيه ، بملء
الاحترام .

فلما رأى أمير الجيوش ولده البكر ، وتكامل شبابه ، ابتسم له ولم
يحدثه بكلمة .

وعندها أشار بيده الى الحضور وبدأ حديثه فقال :

- إنكم تعلمون ما أصيب به الأمبراطور شارلمان من الانكسار تحت
أسوار ميتر في شهر ديسمبر الماضي . فان المرض والبرد قد فتكا بجيشه فتكأ
فربماً حتى حسبنا انه قضي على المملكة الأسبانية القضاء المبرم ، وانها لا
تقوم لها قائمة بعد هذا الانكسار .

وما زالت اسبانيا قد تضعض شأنها والهوكينوت أبيدوا بحسامي ، فقد
خيل لنا ان السلم قد تقرر في هذا الربيع وأخذ جلالة الملك هنري الثاني بعد
الحفلات مستبشراً بهذا السلام الأكيد .

غير ان الأبطال وحذاق أهل الحروب يستفيدون من انكساراتهم ، كما
يستفيد سوامم من النصر . فإن شارلمان خرج من تلك المعركة الهائلة منقبض

الصدر دافع العين .

نعم إن هذا الأمبراطور بكى بدمع غزير حين فارق معسكره ، وقد ترك ٢٠ الف جثة ، و ١٥ الف مريض و ٨٠ مدفماً ، ولكن هذا الرجل الحديدي لم يضمضه ذلك الانكسار ، فماد إلى الحرب ، وهو يزحف البنا الآن .

ثم نظر أمير الجيوش نظرات النسر إلى قواده واستأنف الحديث فقال : ولقد تلقينا في الساعة الثالثة أمس أول نبأ عن زحفه وغايته ، فهو يحاول الاستيلاء على بيكارديا بعد أن نظم جنده وحشد الجيش العظيم . أما الآن فان فيلقاً من المشاة والمدفعية يزحف إلى تيروان ، فإذا تمكن من إفتتاحها فهو كأنه قد افتتح فرنسا بأسرها .

ولذلك اتفقت مع جلالة الملك أن يحتشد جيشي في باريس ، وأن يسير بعد يومين ، وبعد ذلك أرسل فرقة مؤلفة من ألفي فارس ، فتسرع إلى تيروان وتحاصر فيها فتدافع حتى الموت كي توقف زحف العدو .

وصاح جميع القواد بصوت واحد بشبه قصف الرعود ... حتى الموت !

وعاد أمير الجيوش إلى الحديث فقال :

- ويجب أن يكون لهذه الفرقة قائد فتى جسور لا يرهب الموت وقد اخترته ، فهو ولدي البكر فرنسوا .

فذعر فرنسوا وقال بلهجة القنوط : أتا ؟

- نعم أنت ، لقد وقع عليك اختياري وأنت الذي تتولى إنقاذ ملكك وأبيك ووطنك في وقت واحد . إن الفرقة التي عينتها لهذه المهمة هي خارج الحصن فتهياً للسفر بعد ربع ساعة واذهب فلا تقف إلا في تيروان ، حيث يجب أن تفوز أو تموت

ثم التفت إلى ولده الثاني فقال له : وأما أنت يا هنري فيجب أن تبقى في الحصن وتعد فيه كل معدات الدفاع كي لا يؤخذ على غرة .

وعض هنري على شفته حتى أوشك أن يدميها كي يستطيع التغلب على عواطف فرحه وقال في نفسه : وأطرباه ، إن حنة باتت لي .

أما فرنسوا فقد زعر ذعراً شديداً ودنا خطوة من أبيه وقال له : ماذا تقول يا أبي .. أنا .. أنا ..

ثم تمثل له بسرعة التصور ما يكون من شقاء زوجته إذا غادرها وحيدة ، يوم موت أبيها ودمدم : يا للهول .. كلا .. إن هذا محال .

فقطب أمير الجيوش حاجبيه وقال له بصوت رنان : فرنسوا أسرع إلى جوادك واصدع بما أمرت .

- أبي أنوسل اليك أن تمهلي ساعتين ، بل ساعة واحدة .
ورقف أمير الجيوش وقد ارتجفت وجنتاه من الغضب وصرخ بصوت يتهدج :

- أراك تناقش في أوامر الملك وأوامر رئيسك .
- أبي ساعة واحدة ، وأعدوا بعدها عدواً إلى الموت .

وتفجر الشيخ من الغضب ونزل عن عرشه وصرخ : فرنسوا دي مونغورانسي ! إني أقبض عليك بيدي .. لقد أهنت الاسم الذي تحمله .. فرنسوا ، إنك أول رجل من أسرة مونغورانسي ، خاف الموت ، منذ خمسة أجيال .

وقد كانت الإهانة شديدة هائلة لا يسع فرنسوا بعدها غير الانتحار أمام القواد كي ينفي عن نفسه تهمة الخوف . ولكنه فضل أن يموت موت الأبطال فشمخ برأسه ، وقد أمحت من قلبه خيالات الحب وأماني الغرام وقال : لتنقض الصاعقة على من يحسر أن يقول بأن ابن مونغورانسي يخاف الموت . إن شرف الاسم الذي القب به يدعوني إلى الامتثال ، وسأسافر بعد ربع ساعة كما

أمرت ولكنني إذا عدت حياً أتأقشك الحساب ، وسيكون حساباً هائلاً .
إستودعك الله .

ثم إجتاز صفوف القواد وخرج من تلك القاعة واليأس ملء فؤاده ، فأمر
أن يعدوا له معدات جلاده .

وكان جميع الحاضرين يتوقعون أن يصدر أمير الجيوش الأمر بالقبض
عليه ، غير أنهم رأوه رجع إلى عرشه يبتسم ، وسمعه القريبون منه يقول لا
شك ان الدم الذي يحول في عروقه دم مونغرانسي .

وبعد ذلك بعشر دقائق كان فرنسوا متاهباً للسفر ، فنادى خادماً وأمره
أن يدعو له أخاه هنري .

فأسرع هنري إلى دعوة أخيه وقال له : إني آت لتوديعك يا فرنسوا ، فقد
أمرت بالبقاء هنا .

فأخذ فرنسوا بيده بين يديه وقال له : أيمكن الاعتماد على إخوانك
يا هنري ؟

فارتعش هنري واحمر وجهه وقال : ما يملكك على الشك بي يا أخي ؟
- لا تؤاخذني لما بدر مني ، فإني شديد الشقاء فاعلم إني مسافر وقد لا
أعود ، ولكنني غادرت هنا شقاء عظيماً لا حيلة لي باتقائه
- أي شقاء هذا ؟

- اصنع إلي يا هنري ، فإن عزيمني لا تصح إلا بعد جوابك . أتعرف حنة
ابنة السيد دي بيانس ؟
- نعم أعرفها

- إذا فاعلم شقائي ، إني أحبها وتحبني منذ ستة أشهر ، وكانت لي وكنت
لها منذ ثلاثة أشهر ، وهي تدعى حنة مونغرانسي منذ ساعتين .

فتظاهر هنري بالاندهمال العظيم كأنه لا يعلم شيئاً من غرام أخيه ، فقال له
فرنسوا لا تعجب يا هنري فستخبرك هي غداً كيف كان عقد زواجنا ، ولكن

ليس هذا كل ما أريد أن أقوله لك .

فإن حنة تبكي الآن فوق جثة أبيها ، وقد مات أبوها وكانت آخر نظرة نظرها إلي وإلى ابنته كأنه يوصيني بها خيراً غير أنك تعلم أن منزل هذا المنكود وأرضه وكل ما يمتلك قد بات لنا ، وقد تركت امرأتي وحيدة لا معين لها ولا نصير ولا مال ولا مأوى ، أفهمت الآن علة شقائي ؟

- نعم فهمت كل شيء ولكن أنسيت إني أخوك وأنه صدر الأمر إلي بالبقاء هنا .

- بورك فيك يا أخي ، إذن سأعتمد عليك ، أتقسم لي بمراعاتها والحرص على راحتها .

فارتعش هنري ارتعاشاً بيناً ، ولكنه أجاب دون أن يتردد ، نعم أقسم .
- وإذا سلمت من الموت في هذه الحرب وعدت إلى الوطن أتقسم لي إني أرى امرأتي في منزل أبيها لا يعوزها شيء من أسباب الراحة ؟
- أقسم !

- وإذا قد لي أن أموت ، أتقسم لي بالإباحة بهذا السر لأبيك وبإعطاء أرملتي كل أموالي كي تعيش بها من بعدي ؟
- أقسم .

فعانق فرنسوا هذا الأخ المزاحم وقال : لم يبق الآن ما يحول دون سفري ، فاذا كره يا أخي إنك أقسمت لي ثلاث مرات .

ثم امتطى جواده وسار لرئاسة الأبطال الذين ينتظرونه .

والتفت إلى منزل امرأته فبكى وقال : الوداع !

وعند ذلك لكز بطن جواده فاندفع به حتى بلغ فرقة الفرسان فاستقبلوه بالهتاف ، فقال لهم : هلموا بنا إلى الموت !

فصاحوا جميعهم بصوت واحد كهزيمة الرعود ، إلى الموت ! فسار في

طلبتهم إلى حيث أمره وأبوه .

أما أبوه فإنه لما سمع ذلك الهمتاف وأيقن ان ولده قد سافر مع الفرسان ،
تنهد تنهداً طويلاً ثم امتطى جواده وسار في طريق باريس ، وبقي هنري
وحده لحراسة الحصن .

- ٤ -

يمين الاخ

كانت جثة والد حنة موضوعة على مرتبة عالية في وسط قاعة الاستقبال
الكبرى حسب اصطلاحهم في ذلك العهد . وقد البسوه ملابس الرسمية
ووضعوا حسامه بجانبه وقبضته بيده .

وكان الصبح قد طلع وحنة لا تزال ساهرة على أبيها ، فقامت إلى النافذة
وأطلقت نظرها إلى عجائب الربيع البادية في ذلك البستان كأنما كانت تلمس
تفريج كربتها بالنظر إلى تلك الأشجار المزهرة والسهول المفروسة بالنبت
الأخضر والطيور المختلفة الألوان ، ولكنها لم تجد بين تلك الأشجار الباسمة
ما يشبه ابتسام أبيها فعادت إليه تبكي بالدمع الغزير وتناجيه بارق الالفاظ .

رفيما هي على ذلك سمعت وقع حوافر جواد فقالت في نفسها : هو ذا
فرنسوا قد أقبل ، وسارت لاستقباله ، فلم تكن تبلغ الباب حتى وقفت
حائرة مبهوته ، ذلك إنها رأت هنري دي مونمورانسي قد جاء بدلاً
من أخيه .

أما هنري فإنه دنا منها وقال لها : اني قادم اليك بنياً أقسمت على أن
ابذلك اياه في هذا الصباح ، ولولا ذلك لما وجدتني قادماً اليك في هذه الساعة
التي تنتظرين فيها سواي .

فارتعشت حنة وحدثها قلبها بوقوع مصيبة جديدة ، فقالت له :
ماذا حدث ؟

- ان فرنسوا قد سافر

فتمهدت تنهداً يشبه الأنين وقالت : كيف سافر ؟ .. ولكنه سيعود
دون شك .

- بل انه لا يعود .

وقد لفظ هذه الكلمات الهائلة كما يلفظ القاضي الصارم الحكم على مجرم
بالاعدام . فوضعت حنة يدها على قلبها وقد اوشكت ان تسقط على الأرض
إذ خطر لها ان فرنسوا قد تخلى عنها ونظرت إلى هنري نظرة السائل دون
أن تجسر على السؤال .

فنظر اليها هذا الأخ المتافق نظرة المنهم وقال لها : ان الحرب قد عادت
إلى النشوب ، فالتمس أخي فرنسوا أن يكون في طليعة المحصورين في تيروان
كي يوقف جيش شارلستان العظيم ، وليس لديه غير الفتي فارس ، فكأنه قد
التمس الموت .

ولا بد لي من ابداء ما علمته من السبب في عزمه على هذا الانتحار ،
وهو انه شعر بما ارتكبه من الخطأ فاستكبر انكار زواجه ، وخشي اذا
اعترف به غضب ابيه امير الجيوش ، ففضل الانتحار المجيد ، وهو الموت
تحت الأسوار .

فامتقع وجه حنة حتى بات أشد اصفراراً من وجه ابنيها الميت وخرج من
صدرها انين هائل فسقطت جاثية على الأرض لاضطراب ساقها ونظرت إلى
السماء وقالت : رباه ماذا اصنع بولدي ومن يعوله

ولبثت على ذلك مدة طويلة وقد نسيت وجود هنري ونسيت موت أبيها
فلم تذكر في هذا القنوط غير ذلك الجنين الذي أصيب بهذه النكبة الفادحة
قبل أن يولد .

ثم وقفت فرأت هنري لا يزال واقفاً ينظر إليها دون أن تبدو على وجهه
شيء من علائم الاشفاق .

فقالت : حيث يكون الزوج تكون المرأة ، فأنا ذاهبة إلى تيروان
- ولكنك لا تعلمين انها مدينة محاصرة لا سبيل إلى ولوجها ، بل انك
تقتلين قبل الوصول إليها .
- بل سأذهب .

كلا ، انك لا تذهبين .

فهاجت المنكودة لما سمعته وقالت : من يمنعني عن الذهاب ؟
وكان هنري هائماً بها هياماً عظيماً دعاه إلى ارتكاب الجريمة فزادها بأسها
ودموعها جمالاً في عينيه .

... انا أمنعك ، ثم أسرع فضمها إلى صدره
وقال : حنة ... انه سافر وتخلي عنك وقد جبن عن المجاهرة بحبك فهو لا
يستحق منك هذا الحب .

أما أنا فاني أعبدك وأحبك حباً أقتل من اجله ابي بيدي اذا اعترضني فيه .
فليمت فرنسوا موت الجبناء لأنه جبن عن الاحتفاظ بك . ستكونين
زوجتي أمام العالم أجمع ...

حنة .. كلمة رجاء من فمك الجميل ...

لا تقولي هذه الكلمة ، وانظري إلي نظرة واحدة تحملني على هذا الرجاء .
فاذا رضيت بأن تفتحي لنفسي ابواب هذا النعيم ابتعدت عنك سعيداً مطمئناً
فلا أعود إلى حين تأمريني أن أعود ، وعند ذلك أكون بين يدبك أشد وفاء
من الكلب في حراسة المنزل وأشد قوة من الأسد في الدفاع عن العرين .

٢٦
وحدده فاضيه
منتدى ليلاس

وكان يكلمها وهي لا تزال بين يديه وقد بذلت كل قواها كي تتخلص من ذراعيه ، حتى إذا أفلتت منه ابتعدت عنه ونظرت إليه نظرة هائلة كادت تصمقه وقالت له بلاء العظمة والكبرياء إرفع قبعتك أيها الرجل فإذا كنت لا تحترم النساء فاحترم الأموات .

وارتعش هنري ونظر إلى قبعته يحاول اقتزاعها إحتراماً للميت ، ولكن يده لم تكفد تصل إلى القبعة حتى سقطت إلى موضعها ، وتغلبت عليه الكبرياء وانقدت عيناه ببارق من نار فقال : ألا تعلمين يا سيدتي اني هنا في منزلي ، وان من كان في منزله لا يتقيد بهذه القيود .

ولم تفهم حنة مراده وقالت له : أنت هنا في منزلك ؟
- نعم اني في منزلي ، فقد صدر أمر البرلمان برد منزلكم وأراضيك اليينا ، ولا أحتمل أن أرى المقيمين في منزلي

ولم تدعه حنة يتم حديثه إذ أسرعت إلى صندوق صغير كان أبوها يضع فيه أوراقه ففتحت وأخرجت منه نسخة ذلك الأمر الصادر من البرلمان فقرأته مسرعة ، ثم القته إلى الأرض ونادت الخدم بصوت مرتفع قائلة : يا جاك ، ويا غيليوم ، ويا رودريك ، ويا بيير ادخلوا ... ادخلوا جميعكم .

وحاول هنري أن يتكلم ولكنها لم تصغي لحديثه ، وسمع الخدم صوتها وأقبلوا مع بعض الفلاحين .

فقالت لهم : ادخلوا جميعكم واعلموا هذا النبأ الجديد وهو اني لست هنا في منزلي ..

فقال لها هنري بلمهجة المؤنب : سيدتي .
ودنت حنة من جثة أبيها وأمسكت يده الباردة وهزتها قائلة :
- اليس كذلك يا أبي . . ألم يطرردونا من منزلنا ويختلسوا أرضنا ..
قل يا أبي ، أيمكن البقاء ساعة بعد ، في هذا المنزل الذي لمحتقر

ونهان فيه ...

وأنتم ألا ترون ان هذا المنزل لم يعد لنا، بل لتلك الأسرة الظالمة .
الأ ترون كيف يطردون منه جثة أبي ...

أخرجوها من هذا المنزل ...

أمرعوا فلا أريد أن تبقى دقيقة فيه لأنها لم تكن في الحياة فلا تهان
في الموت ..

ثم اندفعت تحت الخدم والفلاحين على إخراج الجثة وقد ابيضت شفتاها
واحمرت عيناها وتهدج صوتها ومنع اليأس سقوط دمعا ، فحمل الخدم سرير
الفقيد على أكتافهم ومشوا وفي طليعتهم حنة .

أما هنري فانه وقف وقفة المبهوت ، وقد رأى الخدم يحملون جثة
الشيخ ، ورآهم خرجوا بها من القاعة تتقدمهم ابنته ، ولبت حائراً مبهوتاً
إلى أن توغل الموكب في القرية ، فضرب الأرض برجله وخرج حانقاً مفضباً
وامتطى جواده وأطلق له العنان ، ففرق به مروق السهم وهو لا يعلم إلى
أن يسير .

أما حنة فإنها لبثت تعارك اليأس حتى وصلت بيحة أبيها إلى منزل
مرضعتها ، وهناك خارت قواها وتقلب سلطان اليأس وسقطت مغمياً عليها
دون أن تدرى دمعة .

وتلا هذا الاغماء حمى شديدة أضاعت رشدها ولم يبق عليها من دلائل الحياة
غير ما كان يعترها من الهذيان .



أما هنري فقد كانت ليلته هائلة ، وكان يذكر ما فعله فيندم ويخجل ثم
يذكر احتقارها إياه وغرامه بها يهيج فائره وينسى ذلك الندم .

ولما أشرق الصباح عاد إلى منزل حنة وهو عاقد نيته الفاسدة على إحداث كل مكروه والاقدام على كل منكر حتى على القتل .
ولما وصل إلى المنزل علم ان حنة مشرفة على الموت ، وكان لهذا الخبر وقع اليم من نفسه الساقطة وجعل يرود كل يوم حول منزل المرضعة المقيمة فيه حنة مستظلاً أخبارها .

مضى على ذلك عدة شهور لم يكن غرامه إلا ليزيد اتقاداً .
وقد اتصل به يوماً ان مدينة تيرنوان المحصورة قد سقطت في يد شارلكان وأن الحامية قد أبيدت ، وإن أخاه فرنسوا قد اختفى .
فقال في نفسه : انه اختفى وربما بات قتيلاً .

وقول الرجاء في نفسه لاسيما بعد أن مر بوادي مونمورانسي بعض الذين تمكنوا من الفرار من المدينة المحصورة فأخبروه بتفاصيل الحصار وتلك المذبحة الهائلة التي حدثت فيها ، وكيف أباد السيف والنار الحامية وكيف ان فرنسوا مونمورانسي قائد الحامية قد اختفى ولم يعلم بمصيره أحد ، ولكن الرأي العام كان يجهماً على أنه مات .

وقد حدث أحدهم أنه رأى أخاه مرة وراء متراس ضعيف يهاجمه ثلاثة آلاف من جنود شارلكان ، ثم لم يعد يراه بعد ، فأيقن هنري إن أخاه بات قتيلاً ، وجعل يرود حول المنزل المقيمة فيه حنة وهو آمن مطمئن ينتظر شفاء تلك المنكودة .

إلى أن اتفق يوماً أنه رآها من نافذة ذلك المنزل ، وذلك بعد أحد عشر شهراً من سفر أخيه ، فاضطرب قلبه لمراها مما استدل به انه لا يزال والماً بها أشد الولوع .

وقد رآها بملابس الحداد ، ولم يعلم إن كان حدادها على زوجها أو على أبيها ، ولكنه رأى بين يديها طفلاً تقبله وتضمه إلى صدرها بحنو الأمهات ، فعاد يمشي الهويناء وهو يعد في قريحته الجهنمية خطة هائلة ، وهي ان حنة

شفيت من علتها ، وصار يسهل عليه ان يختطفها ويحيى بها الى الحصن كما يفعل الأقدمون .

وقد رمخ هذا الخاطر في ذهنه فاطمأن له وعاد إلى الحصن وهو يفكر بطريقة الأختطاف .

ولما وصل الى الحصن رأى فارساً ممفراً بالغبار ترجل عن جواده ودخل إلى الحصن فارتعش لرؤياه ولم يعلم السبب في هذا الارتعاش ، ولكنه رأى علائم البشر على وجه هذا الفارس ، فأيقن انه قادم ببشارة سارة ولم يحسر على سؤاله .

ولكن هذا الفارس لم يلبث أن رآه حتى أمرع اليه فانحنى أمامه بسلام الاحترام وقال له : أبشركم يا مولاي ، إن مولاي فرنسوا دي مونغورانسي قد نجا من الأسر وسيصل بعد غد إلى حصن آبائه وقد أرسلني كي أبشر بذلك أخاه العزيز ومن يحبهم .

فأطلق هنري سراح الفارس بإشارة كي يخلو له الجو بالاسترسال إلى غضبه ثم تصاعد الدم إلى عينيه وهدد السماء بقبضتيه وسقط على الأرض كما يسقط الثور في المجرر .

وحده فاضيه منتدى ليلاس

لوزيا

أقامت حنة في غرفة مرضعتها أربعة أشهر، وهي تعارك الموت وبعاركها وقد تمكنت منها الحمى وأجمت الآراء على أن هذه الحمى ستذهب بحياتها أو بعقلها .

ولكنها لم تمت ولم تفقد الصواب ، بل تغلب شبابها على الداء فزال عنها الخطر في الشهر الرابع وانقطعت الحمى كل الانقطاع غير أن المرض أنك قواها فهزلت ولم تستطع لضعفها مبارحة الفراش ، وكانت إذا خلت إلى نفسها تتكلم بصوت الهامس ، وتلفظ الفاظاً بلغت منتهى الرقة والحنان ، ولا يعلم سامعها إلى من توجه هذا الحديث ولكنها تعلم من المعنى به

ودامت على ذلك شهرين أيضاً إلى أن دخلت أشعة الشمس في صباح يوم من أيام الخريف إلى غرفتها ، وكانت تلك الأشعة جميلة لطيفة كأنها تودع الصيف ، فشمرت حنة بقوة وانتعاش وطلبت أن تغادر الفراش .

والبستها المرضع ثيابها وهي تبكي لفرحها بشفاؤها .

وقامت حنة تحاول الخروج من الغرفة فما مشت فيها خطوتين حتى وضعت يدها على أحشائها وصاحت صيحة ألم شديدة ، ذلك ان ساعة ولادتها قد دنت فأعادتها المرضع إلى السرير .

وكانت ساعة هائلة كادت روح حنة لمخرج من صدرها حتى انتهى الأمر
ولما فتحت عينيها قالت لها المرضع وهي تضحك وتبكي في حين واحد ...
انها فتاة .

- بل هي لويزا ، فلاني أدعوها منذ الآن باسم أمي .

ثم أخذت ابنتها بين ذراعيها ونظرت اليها نظرة تشف عن السرور والحزن
معاً فقبلت رأسها وقالت : أحق يا ابنتي انك ستكونين من غير اب ؟



وجعلت لويزا تنمو نمو الزهرة حتى اذا تبينت تقاطيع وجهها أيقنت أمها
انها ستكون مفرغة في قالب الجمال وآية من آيات الحسن . ولم تعد حنة تعيش
لنفسها ، بل من أجل طفلتها فإنها كانت ترى كل نظرة من نظراتها سعراً ،
ولم تكن تحب ابنتها بل كانت تعبدها ، فكانت هي تمثل حقيقة الأمومة ،
كما كانت بنتها تمثل حقيقة الجمال .

ولكنها في المساء حين كانت بنتها تنام في حضنها ويدها الصغيرة في شعرها
كانت حنة تنقطع عن التفكير بها وتنصرف بأفكارها إلى ذلك الزوج ، بل
إلى ذلك الأب الذي وهبته حياتها يحملتها قبل ان تهبها لتلك المولودة الجديدة
ثمرة ذلك الغرام القديم

وكانت تناجي نفسها به فتقول : أحق انه هجرني محتجاً بالحرب كي ينجو
من العار ؟ أحق انه هجرني إلى الأبد فلا أراه بعد اليوم ؟ وما بال أخبأه
قد انقطعت عن الناس ، العله مات ؟

وكانت تسرسل إلى هذه الأفكار فيقطع قلبها قنوطاً وتسيل الدموع من
عينيها فتسقط أحياناً على وجه ابنتها فتوقظها .
وهند ذلك تعود حنة أما فتقطع عن البكاء والتأوه إلى تنويم تلك الطفلة

فتنسى بها الوجود ومن فيه .
رمض الشتاء وحنة ملازمة البيت لا تخرج منه إلا في القليل النادر ومتى
خرجت لا تتجاوز الغرفة حذراً من أن تلتقي بهنري دي مونراني ، لأنها
كانت اذا افكرت به اقشعر جسمها واضطربت كأوراق الخريف .

وجاء الربيع وبلغت ابنتها الشهر السادس من عمرها وكان كل شيء في
الوجود يبسم لجمال الربيع ما عدا قلب هذه الأم الطريفة المنكودة .
ففي يوم من أيام مارس ذهبت الممرض مع زوجها للاحتطاب من الغسابة
وبقيت حنة في المنزل تنظر الى ابنتها بملء الحنو وقد نومتها في سريرها .
وكانت الغرفة المقيمة فيها تشرف على الحديقة من نافذة كانت مفتوحة في
للك الساعة .

وفيا هي تتمن يحال ابنتها سمعت قرع الباب فخرجت من غرفتها
وذهبت لتري من الطارق فوجدته شيخاً يتسول فدخلت إلى المطبخ وجاءته
بقطعة من الخبز ، ودفعتها اليه معتذرة وتلقاها الفقير بالشكر والدعاء
وانصرف .

وأفقلت حنة الباب وعادت الى غرفتها ، وكان أول ما وقع نظرها على
السريرو النائمة فيه ابنتها .

ولكنها لم تلبث ان نظرت إلى ذلك السريرو حتى صاحت صبيحة هائلة ..
صبيحة لبوة فقدت أشبالها .. صبيحة لا تصل الى وصفها الأقلام ، ذلك لأن
هذه الأم المنكودة الشقية لم تجد طفلتها في السريرو .

وحده فاضيه

منتدى ليلاس

(٣) باردليان (ج ١)

عودة الاسير

لقد تقدم لنا وصف حنو حنة على ابنتها ، وكيف كانت تعبدها ، فلم تكن تبحث عنها بعد فقدها بحزن وقنوط ، بل بحث من فقد روحه ولا حياة له بغير الروح .

ولبثت على ذلك أربع ساعات تبحث ولا تجسد ، وتلمس الموت فيوقف يدها الرجاء بايجاد تلك الضالة ، فتقطع شعرها وتمزق جلدتها باظافرهما وتطوف من غرفة الى غرفة طواف المهانين .

وفيما هي على ذلك وقد كاد يفنك يدها اليأس سمعت حساً في الغرفة التي كانت قائمة فيها ابنتها فأسرعت الى تلك الغرفة وثباً فوجدت فيها هنري دي مونراني ، شقيق زوجها وقد دخل اليها من النافذة .

فنظرت اليه نظرة هائلة وقد جمد الدم في عروقها وقالت له : أهذا أنت أنت الذي لا اراه الا في أشقى ساعات حياتي .

فأسرع هنري اليها وقبض على يديها وقال لها بصوت منخفض : إنك تبحثين عن ابنتك منذ ساعات فلا تجدينها ، وإن تجديها الا اذا أردت ، فأنا الذي اختطفتها والويل لك ان لم تصغي الي .

فزارت حنة زئير الأسود وقالت له : أيها الشقي تخطف ابنتي ثم تجسر على المثل أمامي . سوف تعلم أيها السافل ما تفعله الأمهات .

ثم تحركت حركة عنيفة تربد الأفلات منه ، ولكنها لم تستطع فشد هنري على يديها وقال لها : اسكتي وأصفي إلى ما أقوله لك ان أردت أن تري بنتك .

فلم تسمع الأم من أقواله غير كلمته الأخيرة ، ورأت أنها لا تستطيع الأفلات منه ، فجعلت تتوسل اليه وتقول : رحماك رد إلي بنتي إني أقبل موطني ، قدميك إذا فعلت ... إني أكون عبدة لك مساحيت ... رد إلي ابنتي يا سيدي يباركك الله .

- أصفي إلي : ان ابنتك في قبضة رجل من رجالي قد قلبه من حجر أصم ، وقد انفقت واياها بشأنها .
أصفي إلي و تتحركي ...

إني انفقت مع هذا الرجل الهائل أن أقف عند هذه النافذة وأرفع قبعتي بحيث يراها ، ومتى رآها أخذ خنجره وأغمده في صدر ابنتك .
ثم تركها ودنا من النافذة .
فقال لها دافعي إذا شئت بعد الآن .

فسقطت تلك الأم المنكودة على ركبتيها وحاولت الاستغاثة فلم تستطع ، ولكنها رفعت يديها إشارة إلى الخضوع والامتثال .
فأنهضها هنري وقال لها : لقد عرفت الآن موقف ابنتك فهل عزمتم على الخضوع .

فأومات برأسها إشارة إلى القبول فقال لها : أصفي إلي الآن . ان فرنسوا ..
أخري فرنسوا ، في قيد الحياة ، وقد عاد إلى الحصن ، اتسمعين ؟

إني سأحدثه أمامك أحاديث كاذبة عنك ، فإذا لم تكذبي ما أقول ولزمتي الصمت ترد إليك ابنتك في هذا المساء ، وإذا فهمت بكلمة واحدة تناقض قولي أشرت بقبعتي إلى الرجل فأغمد خنجره في قلب بنتك ...
انظري هوذا فرنسوا قادم .

فنظرت حنة فرأت فارساً ينهب الأرض بجواده ، فتثبتت انه زوجها
وصاحت بل ، صوتها تقول إلي ، إلي يا فرنسوا !
فلما سمعها هنري تستغيث ذهب بسكينة وحشيه ونظر الى حنة نظرة هائلة
تبيئت منها صدق عزمته وقال لها : أنت أردت قتل ابنتك ، فلتمت ا
ثم مد يده الى قبعته يحاول الإشارة بها حسب اتفاقه مع ذلك الرجل .
فتمثل الخطر لحنة فركعت أمامه وقالت له رحماك لا تفعل ... سامتثل
ولا أبوح لزوجي بشيء ولا أكذبك بحرف .
وعند ذلك فتح فرنسوا الباب ودخل وهو سكران من الفرح والحب .

عاد فرنسوا دي مونفورانسي بعد أن لقي الالهوال في حصار تلك المدينة ،
وبعد ان حسب أبوه وأخوه وقومه انه من أهل القبور .
ولقد كان سافر بالفي فارس كما تقدم فبلغ تيرنوان بسبعمائة منهم ، وقتل
الباقون في الطريق .
فدخل بهم المدينة عند المساء قبل أن يحاصرها الأعداء .
وفي الليلة نفسها هاجمها جيش من الالمانيين والاسبانيين والقموا أسوارها
باللغوم .

وفي الصباح أعادوا الكرة بجيش آخر ، فكان الجنود وأهالي المدينة
يتلهبون تحمساً بما كانوا يرونه من بسالة قائدهم الأكبر ، فان فرنسوا كان يهجم
بفرسانه على الأعداء هجوماً المستميت ، فتمكنوا من صد خمسة عشر هجوماً
على قلة عددهم وكثرة جيوش المعاصرين ومعداتهم .

ودام الحصار ثلاثة أشهر دون أن يتمكن جيش شارلكان من افتتاح المدينة
عنوة ، فبدأت عند ذلك المخابرات وأقبل وفد من الجيش المعاصر ليعرض على
المحصورين شروطاً شريفة للتسليم .

فاستقبلهم فرنسوا على الأسوار بحيط به أركان حربه وهم مزقوا الملابس
مشوهوا الوجوه بالبارود .

وبينما كان الوفد يعرض اقتراحات الامبراطور وفرنسوا يتأهب للجواب ،
سمعت صيحات هائلة وأصوات الفرنسيين يقولون إلى السلاح ، فتجيبهم
أصوات الاسبانيين إلى الموت إلى الموت !

ذلك ان جيشاً من الاسبانيين فتح الأسوار منفذاً وهاجم منه على المحصورين
خلال المخابرة دون أن يتلقى أوامر رؤسائه كما يقول المؤرخون .

وبعد دخول هذا الجيش شبت النار في المدينة ، فحدث مزيج هائل بين
اندلاع لسان النار وتفجر اللغوم ودوي رصاص البنادق .

فلما أمسى المساء لم يبق من أولئك المحصورين الأبطال غير ثلاثين بطلا
يدفعون عن نفوسهم دفاع القانطين ، وفي طليعتهم رجل كان يقاتل بسيفين ،
فمال زال يقاتل ويقتل حتى أصيب بضربة على رأسه ، فسقط على الأرض
وكان بسقوطه ختام الدفاع .

ان هذا الرجل كان فرنسوا دي مونفورانسي ، وقد دافع عن المدينة حتى
الموت كما وعد أباه .

وفي الليل وجدته الجنود الطوافة في المكان الذي سقط فيه ، فعرفوه
ورأوا أنه لا يزال في قيد الحياة ، فحملوه إلى القائد العام فأمر بمعالجته مع
الأمري المهاريج .

ودامت الحرب بعد سقوط تيرنوان فكانت سجالاتاً بين الفريقين إلى أن
عقد الصلح بينهما فاطلق سراح جميع الأسرى .

أما فرنسوا فإنه لم يميت كما أشيع بل شفي من جراحه ولبث في معسكر
الأعداء إلى أن عقد الصلح وبشروه باطلاق سراحه ، فعاد إلى حصن
أبيه مع خمسة عشر من رجاله ، وأرسل واحداً منهم يتقدمه ريبشر

قومه بعودته ، ثم واصل السير وهو يود لو كان له أجنحة فيطير بها إلى من يحب ، فلما ظهر له حصن أبيه الشامخ خفق قلبه وأدمعت عيناه وأطلق جواده العنان .



كانت أجراس الكنائس في مونتورانسي تدق مستبشرة بعودة بكر أمير الجيوش ومدافع الحصن تدوي فيرتج بدورها الفضاء وأهالي المدينة مجتمعون في المكان الذي سيمر به فرنسوا وهم يهتفون له بالدعاء وجنود الحامية وقوف على أبواب الحصن بالسلح لاستقبال ابن أميرهم ، وحاكم المدينة يتقدم الجموع ليلتو خطاب الاستقبال .

فلما وصل فرنسوا كان أول ما سأله « أين أخي » ؟
فبدأ الحاكم خطابه قائلاً « أن هذا اليوم السعيد من ... »
فقاطعه فرنسوا قائلاً : سأسمع خطابك في الحصن ، فقل لي الآن أين أخي وكيف لم يحضر لاستقبالي ؟

- أنه في مارجنسي يا مولاي .
فلكز فرنسوا بطن جواده وقد اضطرب لوجود أخيه عند زوجته ولعدم حضوره لاستقباله .

وما زال يسابق الرياح بجواده حتى وصل إلى منزل والد حنة فترجل عن الجواد ودخل إلى فناء المنزل فوجده مقفلاً .
وكان هناك خادم شيخ فناده ، وقبل أن يسأله مد الشيخ يده إلى منزل مرضعة حنة وقال له :

- أنك تجد هناك التي تبحث عنها يا مولاي .
- لماذا تدعوني مولاك ؟

أجاب اليس هذا المنزل لكم الآن ؟
فلم يسأله فرنسوا أكثر من ذلك وأسرع مهرولاً إلى منزل المرضعة وهو يتوقع مصيبة هائلة ، إذ كان أول ما خطر له أن حنة ماتت .
فلما وصل إلى ذلك المنزل فتح بابه بعنف فلقى حنة فيه وصاح صيحة فرح

وقد بسط ذراعيه لمعانقتها .
ولكن يده لم تلبث أن استرخت ولم يلبث هذا الفرع أن استحال إلى دعر فاضطرب قلبه إذ رأى حنة واقفة وقوف الاصنام ، وقد اصفر وجهها وبدت عليها علائم الرعب ، فقال في نفسه : العمل ذلك من تأثير تقريع الضمير .
ومشى ثلاث خطوات إلى امرأته وناداه باسمها .

فأجابته تلك المنكودة بتنهد عميق وحاولت أن تهجم على زوجها فتعانقه ولكنها نظرت إلى هنري فرأت قبعتها بيده كأنه يتأهب للإشارة بها من النافذة ، فجمدت في مكانها وتنهدت تنهداً كاد ينشق به صدرها .
فصاح بها فرنسوا صيحة هائلة بلهجة القانط قائلاً .. حنة ...
ثم نظر إلى هنري وقال له : أخي .

فجعل الأخ والزوجة ينظران إليه دون أن يتكلمتا نظرات كاد يحن لها ، فوضع يديه عند ذلك ببطء فوق صدره ، ثم تنهد تنهداً خرج من صدره كالزفير وقال بلهجة الكئيب المبتس ما يأتي .

- أن قلبي لم ينبض منذ عام إلا بهوى المرأة التي ملكتها قلبي والزوجة التي تدعى باسمي ، فما كنت انظر في ساعات اليأس غير وجهها المعبود ولا يتجه فكري في الممارك إلا إليها ، ولما سقطت في معمة القتال ذكرت اسمها وكنت اعتقد أنه آخر كلمة تخرج من فمي .

فلما صحوت من اغمائي ووجدت نفسي أسيراً محروماً كان خيالها عزائي الوحيد ، وكنت إذا قلقت عليها لاني غادرتها وحدها أذكر أن أخي المخلص الحبيب أقسم لي على العناية بها فاطمئن ويهدأ خاطري المضطرب . والآن

عدت وقلبي يخفق خفوق أجنحة الطائر من الشوق اليها وأنا أحسب أن الدهر قد بسم لي والسعادة باتت طوع يدي ، فماذا لقيت ؟ لقيت تلك الزوجة تترجم مني ، ولقيت ذلك الأخ لا يحسر أن ينظر إلي ..

ولا يعلم غير الله ما كانت تكابده تلك المنكودة في هذه الساعة الهائلة الرهيبة فإن شقاءها لا يصفه قلم بليغ ولا يدرك حقيقة فكر انسان فقد كانت تحب زوجها حب عبادة ، فبينما تدفعها شعائر قلبها الى معانقته تنظر الى قبعة ذلك الرجل الجهنمي في يده فتتردد لاشفاقها على بنتها من القتل الذريع .. وقد كانت تسمع كلام زوجها المؤثر ، ولكن فكرها لم يكن منصرفاً إلا لما قاله لها هنري « وهو اذك إذا فهت بكلمة أو كذبتني بلفظ قتلت ابنتك دون اشفاق » .

ابنتها ، وهي تلك الطفلة الظاهرة البريئة ثمرة أحشائها وغاية أمانيتها في هذا الوجود . أنها في قبضة وحش مفترس ينتظر إشارة وحش مفترس مثله ليفمد خنجره الهائل في قلبها الصغير .

في قلب تلك الطفلة التي لم تجر عليها غير الثغور بقبلات الحنو فكيف تطيق تضحيتمها وهي أمها .

أيتها الأم الشقية انك عظيمة في شقائك عظيمة في صبرك عظيمة في كتمانك .

وعضت حنة شفتها حتى أدمتها ، وذلك كي تتمكن من ضبط نفسها ولم يتم فرنسوا حديثه حتى نظر اليه أخوه نظرة الذئب ولبت واقفاً بجانب النافذة المفتوحة وقبعته بيده كي يشير بها عند الاقتضاء وقال له أيها الأخ المنكود أن الحقيقة محزنة ولكن لا بد لك من الوقوف عليها .

- قل ، أني أريد أن أعرف كل شيء .

- إذا فأعلم أن هذه المرأة ...

- كيف تقول هذه المرأة وهي امرأتي .

- هو ذلك والكفي أنا أخوك قد طردتها .
فاستند فرنسوا الى الجدار حذر السقوط ، وأنت حنة أنيناً لا يصفه قلم إنسان لأن نكبتها لم يرد لها نظير في تاريخ الانسان .

واستأنف هنري الحديث دون ان يتزحزح عن النافذة فقال : أيها الأخ المظلوم ان هذه المرأة لا تستحق ان تتشرف باسمك إنها خانتك فلم أجد بداً وأنا أخوك وو كيملك من طردها .

ولقد كانت الشكوى ظاهرة جليلة ، وكان عقاب الزانية في ذلك العهد الجلد بالسياط في الساحات العمومية ، او الشنق دون محاكمة . فكان بوسع فرنسوا ان يعاقبها هذا العقاب ، وهو الحاكم المطلق في غياب أبيه فكان موقف الثلاثة مفاجئاً بعد هذه الفضيحة . فإن هنري كان متأهباً لكل طارئ وهو واضع إحدى يديه على قبضة خنجره وممسك قبضته بالأخرى كي يشير بها عند الاقتضاء .

وقد كان ينظر إلى فرنسوا وحنة نظرات تدل على السكينة ، ولكنه كان مصمماً على قتل الاثنين إذا كذبت حنة ، بينما عامله يقتل طفلتها بعد إشارته .

وأما حنة فلإنها حين سمعت هذه الشكوى الهائلة ، هاجت كبرياؤها ، وتغلبت فيها عواطف الشرف على عواطف الأمومة . فمشت خطوة إلى فرنسوا وممت ان تبوح لزوجها بكل ما حدث .

ولكن هذا العزم لم يكدم يحول في خاطر تلك المنكودة حتى رأت هنري يتسم ابتسام الساخر ورأت يده بدأت ترتفع بقبعته . فتراجعت منذرة الى موقفها ، وأطرقت برأسها الى الأرض ، وألجمت لسانها عن القول ، وهي لا تدري ماذا تصنع . فقد كان مثلها مثل الواقف في مكان ضيق شاهق بين واديين عميقين ، إذا مشى خطوة الى الأمام أو خطوة الى الوراء سقط في الهوة الهائلة .

وأما فرنسوا فقد هزته النكبة ، كما تهز العاصفة الشجرة . ولم يخطر
لقلبه النبيل في تلك الساعة الرهيبة ان يندفع مع تيسار الغضب ، بل
حاول ان يسكن هياج غضبه ، ويكون أكبر من المصيبة التي
نكبت بها .

فلما تمكن من ضبط نفسه وشعر انه بات قادراً على اتقاء بوادر غضبه وانه
إذا حدث امراته لا تدفعه الحدة الى خنقها مشى اليها وعيناه تتقدان بلهب من
نار وقال لها : أحق ما يقول ؟

فنظرت حنة الى هنري نظرة منكورة ثم لزمت الصمت وهي ترجو ان يفتلها
زوجها لتستريح .

وعاد فرنسوا إلى السؤال فقال : أحق ما يقول ؟

وهنا خارت قوى تلك الشقية ، لأنها بشر ، وما نكبت به كان فوق
قوة البشر .

فسقطت ولكنها لم تسقط على ركبتيها مستغفرة فادمة كما كان يتوقع
فرنسوا ، ولم تبسط حقيقة أمرها كما كان يخشاه هنري ، بل سقطت على الأرض
وقد صدعتها النكبة .

فكان آخر ما نظرته يد ذلك الشقي وقبعتته ، وآخر ما قالته أو توهمت
انها قالته : (لأمت ، ولتحياى ابنتنا) ، ولم يبق عليها من دلائل الحياة
غير خفوق قلبها .

ونظر اليها فرنسوا لأول وهلة نظرة آدم الى الجنة حين طرد منها ، وكان
يرجو ان يسقط صريعاً قرب تلك المرأة التي طالما أحبها . ولكن الحياة انتصرت
فيه على الموت .

فخرج من ذلك المنزل دون ان يفوه بكلمة ، ومشى مشياً بطيئاً وهو لا
يعلم أين يسير .

أما هنري فإنه تبعه على مسافة قصيرة دون ان يكثر لحنه ، فقد قال

في نفسه : إنها إذا عاشت فستكون لي ، وإذا ماتت أكون قد أرحت نفسي
من عذاب الفيرة ، فلا أحبي الليالي ساهراً منكداً بينما هي مع أخي يجني من
شفتيها ثمار الغرام .

وقد أدرك في تلك الساعة حقيقة بغضه لأخيه ومبلغ انتقامه منه ولكنه
لم يكن قانعاً بما فعل بل كان يريد ان يكابد ذلك الأخ النبيل نفس ما كابد قلبه
السافل من الآلام خلال غرامه الفاسد مدة عامين .

ولذلك كان يسير في أثر أخيه بملء الصبر والسكينة ، وهو يتربص
الفرصة المناسبة .

أما فرنسوا فكان يسير وهو مطرق الرأس مضطرب الحواس ضيق الأنفاس
فيمشي الى حيث تدفعه قدماه .

ودام ذلك عدة ساعات وانتبه فرنسوا من غفلته ورأى ان الشمس قد غربت
وانه يسير في غابة من الكستناء فجلس عند جذع شجرة وحمل رأسه بين يديه
وجعل يبكي بكاء اليماء .

وقد طال بكأؤه ، وكأنما الدموع قد ردت اليه هداه ، فأخذ يتمن في ما
صار اليه ويذكر ماضيه .

فذكر غرامه واجتماعه مع حنة في منزل مرضعتها ، وما جرى له مع أبيها
وكيف عقد زواجه عند انتصاف الليل وسفره الى تيرنوان ، وأخيراً هذه
النكبة الهائلة التي فاجأته حين رجوعه .

فهاج هياج العواصف ، وأرمض البرق في عينيه ، فقال في نفسه : ترى
من هو هذا السافل الذميم الذي سلبنى شرفي ونعميمي ؟ . ويح لنفسي
إنني حاولت الرحيل يجرحي الدامي ، قبل ان أنتقم من هذا الرجل
وأقتله بيدي .

وقد كان فرنسوا كريم القلب ، شديد الرفق ، ومع ذلك فقد تعزى
بالقتل والانتقام

ونفض واقفاً وتنفس تنفس المنفرج وقال يجب ان أعرف هذا الرجل وأسل
حياته كما سلبني امرأتي ونعمي .

ولما وقف التفت فرأى أخاه هنري قريباً منه ، فلم ينسدهل لمرآة ،
وكلمه بملء البساطة ، كأنه يتم حديثاً دائراً بينهما فقال له : أخبرني الآن
بحقيقة ما جرى .

فأجابه هنري بلهجة المشفق : أية فائدة يا أخي من أن أقص عليك هذه
التفاصيل المؤلمة ، فلا دواء يشفيك الآن .

- لقد أخطأت يا هنري لأن الدواء الشافي موجود .

- ما هو ؟

- هو قتل الرجل الذي خدعني .

فارتعش هنري واصفر وجهه قليلاً ، ولكن ذلك لم يدم غير لحظة فأبرفت
بعده عيناه ببارق غريب وقال له أتريد ان تعلم ؟

- نعم أريد فلقد أقسمت لي ان تعتني بامرأتي ، وأن تكون
وكيلي في قضاء حاجاتها .. فوجب عليك أن تخبرني بحقيقة الجنابة ،
وباسم الجناني ... نعم ، إن ذلك يجب عليك ، وإذا أبيت أمرتك
أن تتكلم .

- أتأمرني بحق الأخوة أم بحق السيادة في غياب والدنا ؟

- بحق السيادة .

- إذا ، أمتثل ... فاسمع ، إنك لم تكذب - تبرح حصن مونمورانسي
الى الحرب ، حتى أظهرت مدموازيل دي بيانس ، لذلك الرجل ، فرحها
بغيبابك .

- إبدأ باسم هذا الرجل لأنني أريد معرفة اسمه قبل كل شيء .

- صبراً يا سيدي ، واعلم ان هذا الرجل كان يشاركك في نعمتك بل كانت
تجبه حباً صادقاً ولا تحب منك غير الجاه واللقب ، والآن أعلم إذ لم يبق سبيل

الى الكتمان ، ان هذا الرجل ظفر بحنة قبل ان تظفر بها أنت وكانت خليلته
قبل ان تكون خليلتك
فان فرنسوا أنيناً خرج من صدره كالزئير وكانت هيأته هائلة حتى ان هنري
توقف عن إتمام الحديث
غير ان فرنسوا نظروا اليه نظرة فارية وقال له : تكلم .

- إني أتم الحديث امتثالاً لأمرك ، فاعلم ان العلائق بقيت متصلة بين الرجل
وحنة بعد سفرك ، بل زادت تمكناً ، لان حنة اغتمت فرصة غياب الزوج
وكانت مع عشيقها على أبداع ما يصفه الشعراء ! .

- كفى كفى ايها الشقي انك تقتلني .

- إذا أسكت ؟

- كلا ، تكلم تكلم .

- وان هذا الرجل كان يراقبك يا سيدي فلما علم بوصولك عمل ما تعمله أنت
لو كنت في مكانه ، فإنه أروى غليله من هذه المشيقة وأشفق على بيتكم ان يطول
تلونه بمثل هذا العار فطرد منه الزانية .

فشعر فرنسوا أنه أصيب بدوار ورأى ان الهاوية أعمق مما تصورها فنظر
الى أخيه نظرة المهانين .

أما هنري فقد تمثل قلبه الحاقداً بين عينيه ، فقال لأخيه بلهجة
المتهم المنتقم :

- إنك تريد ايها الأخ العزيز ان تعرف اسم هذا الرجل ، إذا فاعلم
ان عشيق حنة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هنري
دي مونمورانسي .

بارداليان الاكبر

(هو أحد بظلي هذه الرواية ، وإنما دعواته بارداليان الاكبر للتفريق بينه وبين ابنه المدعو بهذا الاسم أيضاً ، فسيكون لهما في وقائع هذه الرواية ما يدهش المطالعين) .

لم يكن هنري كاذباً حين أنذر حنة بقتل ابنتها ، فقد كانت الطفلة حقيقة بين يدي رجل يراقب إشارته ، وقد رضي ان يغمد خنجره في صدر الطفلة حين يرى الإشارة .

وقد كان هذا الرجل الذي رضي بقضاء تلك المهمة الفظيعة يدعى بارداليان او الشفالييه دي بارداليان .

وخلاصة تاريخ هذا الرجل انه كان من سلالة أسرة عريقة النسب ، بدأ مجدها منذ القرن الثالث عشر ، وانقسمت من ذلك العهد الى فرعين فرع مشى في طريق الفخر ، فزين بعض رجاله صفحات التاريخ ، فخرج منهم مونتسبان الشهير ، والدوق دي أنسني ، الذي سمي باسمه أحد شوارع باريس .

وفرع لبث تاريخه مبهماً وبقي رجاله فقراء معدمين .

وقد كان الشفالييه دي بارداليان من هذا الفرع الأخير . فكانت حين البدء في هذه الرواية في الخمسين من عمره ، شاب مفرقه في الحروب ، وهو

من اولئك الجنود الافاقين ينخرط في كل معركة ويسعى الى الحرب من كل باب فينبهه الحر والعطش في الصيف ويكابد مشاق البرد والجوع في الشتاء ، وهو تارة يلتصق وقارة ينخزل .

وقد ظهرت آثار الجراح في جميع جسمه ، ولوحت الشمس وجهه ، فهو طبيب القلب بالفطرة ، ميال الى الخصام بالعادة ، يرى كل ما يفعله واجباً فلا يقرعه الضمير .

وعلى الجملة فما هو من أهل الشر وما هو من أهل السلامة ، وكان أخص ما فيه انه إذا تنازع اثنان على استخدام حسامه انتمى الى أكثرهما جوداً ، وهو في كل أدوار حياته من أفقر الفقراء .

وقد كان لقيه مونمورانسي أمير الجيوش ، خلال حروبه في أرمنياك ، فأعجب بجرأته وبسالته فجاء الى حصنه وعينه لخدمة ولده هنري ، حسب عادة الاسياد في ذلك العصر ، لان كل نبيل كان يعين لكل فتى من بنيه كهلاً من كبار المحاربين .

فلما سافر أمير الجيوش الى الحرب وسافر ولده فرنسوا الى تيرنواك بقي بارداليان في الحصن مع هنري .

وخطر لهنري خلال تغيب أخيه انه قد يحتاج الى رجل شديد الاخلاص فلم يلق أمامه غير بارداليان . فجعل يمتلك نفسه بالعطايا ، ويقيده بالاحسان ويحامله خير مجاملة ، حتى امتلك رقبته ، وبات بارداليان متأهباً كل حين لاقتداء هنري بنفسه .

فلما ذاع في الحصن خبر عزم عودة فرنسوا ، في اليوم التالي ، بعد ان يشس الجميع من رجوعه ، أخذ هنري بارداليان ، وهو مقطب الجبين ، وسار به الى منزل المرضعة الذي تقيم به ، وأمره ان يختطف لويزا بنت حنة .

وبعد ساعة رجع بارداليان الى حيث كان ينتظره مولاه ، وهو يحمل

فأمره عند ذلك هنري بما عرفه القراء ، وأعطاه خاتماً ثميناً من اللؤلؤ .
فأخذ بارداليان الهدية مكرهاً ، وتلقى تلك الاوامر مستفكراً ووقف في مكان
يشرف على نافذة الغرفة المقيمة فيها حنة ، بحيث يستطيع أن يرى إشارة
هنري الهائلة .

أما هنري فإنه اجتمع بحنة ، وقد عرف القراء ما حدث في ذلك
الاجتماع .

وأما بارداليان ، فقد رأى فرنسوا دخل الى المنزل ، فوقف يُنظر
إلى النافذة ، وقد اصفر وجهه ، والطفلة نائمة بين يديه . فلم يحسر ان
ينظر اليها .

فلما رأى فرنسوا خرج من المنزل ، وتبعه اخوه هنري دون ان يشير
تلك الاشارة الهائلة ، تنفس الصعداء ، واشرق وجهه بعد العبوس وقال :
لقد احسن هذا الوحش بعدم إبداء الاشارة ، لاني كنت عازماً على عصيانه
والعودة الى معيشتي السابقة . فمن يحصر على الفتك بهذه الطفلة النائمة ؟ إن
الوحوش الضارية تشفق عليها . وفي كل حال احمد الله على ما اتفق فقد اصبحت
كهلاً وتعبت من مشاق الحياة . اما ان احتفظ بهذه الطفلة شهراً او شهرين كما
امرني فلا اجد في ذلك بأساً .

ثم وضع لويزا في رداثه وسار بها مطرق الرأس الى منزله الساكن عند
باب الحصن ، فأسرع لاستقباله غلام يبلغ الخامسة من عمره ، كان يلعب في
فناء المنزل .

فابتسم بارداليان وقال له : لقد جئتك يا جان بطفلة صغيرة ، ستكون
اختاً لك .

ثم نادى خادمتة ودفع اليها بلويزا وقال لها : إني اعهد اليك بهذه الطفلة ،
على ان تعتني بها كل الاعتناء وحذار ان تبوحني بأمرها لاحد .

أما هذا الغلام الذي ناداه بارداليان باسم جان فقد كان في الخامسة من عمره
كما قدمنا وتدل عيناه على ذكاء متوقد ، وهو متين العضلات كالذئاب خفيف
الحركات كالقطط .

كان هذا الغلام ابن بارداليان اقامه مع مرضعته في ذلك المنزل عند باب
الحصن وكان يأتي كل يوم اليه ليراه .

وقد عرف كل سكان الحصن انه ابن بارداليان ، ولكنهم لم يعلموا
من اين اتى به ، لانه لم يكن له امرأة معروفة ، ولم يذكر هو كلمة عن مولد
إبنه لاحد .

فلما دفع الطفلة الى الخادمة اخذ ولده واجلسه على ركبتة وجعل يلاعبه
وعيناه تضيئان بشمع الخنو .

غير ان الغلام افلت من ابيه ، ووثب عن ركبتة الى الارض ، واسرع
الى لويزا ، التي كانت وضعتها الخادمة فوق سريره ، فضمها الى صدره ضمّاً
عنيفاً وعانقها .

وما بكث الفتاة ، ولكنها فتحت عينيهما الجميلتين وجعلت تنظر منذهلة
الى الغلام .

أما بارداليان فإنه نهض فجأة وخرج من المنزل مطرق الرأس مفكراً مهموماً
إذ كان يفكر في تلك الساعة بوالدة الطفلة وبأسها لاختطاف ابنتها ويقديسها
الى نفسه فيما لو خطفوا ولده فيشفق عليها ويتوجع لمصاها كما كانت تدل عبراته
المتساقطة على خديه وهو يسير .

وبعد ساعة كان تحت نافذة غرفة حنة فرأى وسمع ما يلين له قلب الجهاد
من تلك المرأة ، التي استفاقت من إغمائها ، فعلمت انها فقدت حبيبها
وولدها .

وجعلت تمض يديها من اليأس وقلمن تلك الساعة التي وافقت فيها على
الصمت وكتمت امرها عن زوجها .

ولكنها تفتكر بابنتها فيخفت صوتها وتقول: اني لو فهمت بكلمة لقضوا على ابنتي فأكون قتلتها بيدي ...

على ان هذا النمر الكاسر أقسم لي أنت يرد لي ابنتي ، إذا أطقته ، ولم أكذبه فيما يقول ، وهو سيردها لي ، دون شك ، اليس كذلك يا لويزا ؟

لويزا ، اين أنت يا ملاكي الحارس ويا كل نعيمي في هذا الوجود الا تعب الليلة يداك الجميلتان بشعر أمك ...

فرنسوا ، لا تصدق ما قال ، إنه من الكاذبين ...

فرنسوا ، إنه نذل سافل تجاسر ان يختطف ملاكنا الصغير ...

أيها الظالم الدنيء ، رد إلي ابنتي .. إلي إلي .. لويزا .. ابنتي ألا تسمعين نداء أمك ؟

وكانت تخطط في أقوالها بين محادثة زوجها وابنتها ، بكلام يقطع القلوب من الاشفاق .

وأي الأفلام أن تمثل عواطف أم تبكي ولداً فقدته .

فلما سمع باردليان هذه الأقوال التي علم منها كيف يكون اليأس ، ورأى وجه تلك الأم الشقية وقد أدمته أظافرها ، ورأى نظراتها التي كانت تشبه نظرات حيوان يقتلونه ، فهي قارة تلتهب بنار الوعيد فيرتمد لها البطل وقارة تذبل ذبولاً يكي عيون الجلاد .

إنه لما سمع ورأى ما كان من هذه الأم شعر انه أب فاصططكت أسنانه من هول ما رآه وتراجع على مهل كي لا تشعر بوجوده ثم أسرع بالسير حتى توارى عنها فجعل يمدو عدو المجانين .

ولما وصل الى منزله ، كانت الليل قد أرخى سدوله ، وكان وصوله في نفس الساعة التي كان فرنسوا وهنري يتباحثان فيها في الغابة ، حيث تركناهما .

وكان ولده جان قائماً في سريره ، ويجانبه لويزا ، وقد ألقت رأسها الصغير على ذراعه بلء الثقة فدنا من السرير وأخذ منه الطفلة دون ان يوقظها ولفها بردائه .

ثم نادى الخادمة وقال لها : أوقظي ولدي ، والبسيه ملابس السفر ، لاننا مسافرون سغراً طويلاً بعد ساعة ، وقولي لخادمي بمسد لي جوادتي ، ويحضر الى هنا .

وعندها ذهب بالطفلة عائداً الى حيث تقيم أمها وترك الخادمة وهي في أشد حالات الاندهال لهذه الأوامر .

وأما حنة فقد كان اليأس أنكق قواها وهسد حيلها ، فانطرحت على كرسي وجلست مرضعتها أمامها تعزيها وتتوجع لنكبتها ، ثم رأت ان التعب أضناها .

فقال لها : كفى يا سيدتي بكاء وادخلي الى مضجعك .

فلم تجبها حنة على كلامها وقالت : لويزا .. لويزا .. إنها قادمة .

- إنها تأتي دون شك فادخلي يا سيدتي واستريحي بالرقاد .

- لويزا ، يا ابنتي تعالي وثامي بين ذراعي .

وعندها وقفت حنة فجأة ودفعت المرضعة في صدرها ووثبت إلى الباب وهي تصيح : لويزا .. لويزا !

فصاحت المرضعة صياح اليأس وقالت : رباة لقد ذهب عقلها .

أما حنة فقد خرجت من الباب ، تصيح وتنادي ابنتها ، وكان الظلام حالكا ، فرأت عند خروجها شبحاً ، وان هذا الشبح يحمل جسماً بين يديه ، فهجمت عليه واختطفته ودخلت به إلى غرفتها ووضعته على كرسي وركعت أمامه .

كان هذا الشبح باردليان ، والجسم الذي يحمله لويزا ، وقد ركعت تلك الأم أمام طفلتها دون ان تذرف دمة او تفوه بكلمة او تقبل تلك الطفلة التي

نعم نعم قل لي اسمه لألعنه الى الابد كما أباركك

فارتعد باردليان وتردد هنيهة ، وهو يبصت عن اسم يختلقه ، ثم خطر له خاطر سريع ، وقرعه ضميره تقريباً مؤلماً ، فاصفر وجهه وقال :

أتريدن ؟

نعم أريد معرفة اسم هذا السافل السفاك لالعنه إلى الأبد .

إذاً ، إعلمي يا سيدتي ان هذا السافل السفاك ، يدعى الشفالييه

باردليان .

وقد ذكر اسمه بصوت مختنق وهرب مسرعاً كأنه لا يطيق ان يسمع سقوط اللعنة عليه من فم تلك الام .

- ٨ -

السفر الى باريس

ولنعد الآن الى الاخوين ، لقد تركناهما في غابة الكستناء وقد توارت الشمس في حجابها .

وكان آخر ما سمعناه من هنري قوله لاختيه ، وقد كاد ان يقتله صبراً :
(إن عشيق حنة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هنري دي مونمورانسي .)

وإنما قال هنري هذا القول ورضي ان يتهم نفسه بالجريمة كي لا يبقى مجالاً لنقض التهمة ومبالغة في إثبات الخيانة على حنة .

كادت تجنح للاختطافها .

ثم خطر لها خاطر سريع فجعلت تنزع ثياب الطفلة بسرعة وتقول ربه أرجو ان لا تكون أصيبت بسوء .

ولما نزع ثيابها جعلت تفحصها من مفرق رأسها إلى قدميها ، حتى إذا وثقت من سلامتها تفجر قلبها حنوياً فلم تعد تعلم أين تقبلها .

كل ذلك والطفلة تبكي لحرارة التقبيل والام تقلسها بدموع الفرح وباردليان واقف وقوف المأخوذ يريد ان ينصرف فلا يستطيع .

ولما روت حنة غلها من تقبيل ابنتها التفتت فرأت باردليان فزحفت على ركبتيها اليه وأخذت يده وقبلتها .

وجذب باردليان يده وقال : سيدتي ماذا تفعلين ؟

إني أقبل تلك اليد التي ردت إلي ابنتي قل لي اسمك يا سيدتي لأباركك إلى آخر أيامي .

إني جندي قديم يا سيدتي ، جوالاً لا يقيم في بلد ، وأية فائدة من معرفة اسمي .

ولكن كيف عثرت بابنتي وكيف جئتني بها ؟

الأمر بسيط يا سيدتي ، إني لقيت رجلاً أعرفه يحمل طفلة فسألته عنها وعلمت أمرها فجئتك بها .

إذاً قل لي اسمك كي أذكرك ما حبيت ولا أنسى إحسانك .

أسألك العفو يا سيدتي لا فائدة من معرفة اسمي .

إذاً كان ذلك فقل لي اسم الآخر .

فاضطرب باردليان وقال : اسم الذي اختطف الطفلة ؟

نعم ، فقد قلت انك تعرف هذا الرجل السفاك ، الذي رضي أن يقتل ابنتي .

أتريدن مني .. انا .. ان أقول لك اسم هذا السفاك ؟

وصرح لآخيه بأمر عشيق امرأته وهو يتوقع ان يرى اليأس بنفجر
في صدر أخيه ، وينهال عليه بالشم واللعن . ولكن فرنسوا لم يفعل شيئاً من
ذلك بل انه وضع يده على كتف أخيه وقال له بصوت أبح : هنري إنك
ماتت فتأهب .

فوثب هنري لفوره وثبته الى الورا وجرد حسامه وقال له . تريد ان تقول
أيها الاخ العزيز ان واحداً منا سيقتل في هذه الغابة ؟
- كلا ، بل قلت انك ستموت .

وكانت لهجة خطيرة ، حتى خيل لهنري انه قاض يحكم عليه
بالاعدام .

ورجع فرنسوا ايضاً خطوة الى الورا رجوع الاسد حين يتحفر للهجوم ،
وجرد حسامه وانقض به على أخيه .

والتعم السيفان واتقدت العيون بنظرات نارية كان يتأجج فيها الحقد
ويتطاير شرر اليأس من تلك العيون فيزيدها اتقاداً .

وكان الليل قد هجم فلم يكن الخصم يرى خصمه بل يستهدي اليه من بريق
حسامه رتوقد عينيه .

والغريب في هذه المباوزة الدموية انه بينما كان هنري يشب على أخيه الوثبة
بعد الوثبة ، وهو شديد التيقظ والهباج ، لا يفتكر إلا بأن يجد منفذاً لحسامه
إلى قلب أخيه . كان فرنسوا يتلقى ضربات أخيه وهو مشنت البال كأنه
غائب في شكل حاضر فيدافع عن نفسه وقد قاه في مهامه التفكير ، فجعل
يحدث نفسه ويقول :

- إذا هو أخي الذي خانني بمن أحب واي شقاء أشد من هذا الشقاء . وإذا
كنت لا أستطيع الركون الى أخي فإلى من بعده يصح الركون .
راقداً كنت أحسب ان خيانتة هذه المرأة بلغت بي الى أقصى حدود
اليأس ، ولكن بقي علي لتكذ طالعي ان اعرف اسم هذا العشيق الذي

خاننتي من أجله كي أخفف اليأس بالانتقام .

فيا ليتني اصبت بالحرس ويا ليتني فقدت الحياة قبل ان أسأل معرفة هذا
الاسم واقف على هذا السر الرهيب .

نعم إني سأقتل أخي ولكن اذا عشت بعده من يشفيني من بأسني وماذا يكون
عزائي حين افتكر ان الذي خانني أخي .

وكان هنري قد وثب في خلال ذلك على أخيه مفتنماً فرصة ذهوله فجرحه
في عنقه جرحاً خفيفاً أسال دمه .

فتذببه فرنسوا من غفلته ببطء ، وإنما نقول ببطء لان الثواني في تلك البرهة
الهائلة كانت تعد كالساعات .

وقد نبهه الدم الى ما هو فيه فنسي ذلك الحديث الذي كان يناجي نفسه
به ونسي ان خصمه أخوه فلم يربه إلا عشيق زوجته . فزار زئير الاسود

الضارية ومشى اليه فاصطدم السيفان ، فكانت ساعة هائلة لم يسمح فيها غير
صوت قراع الحديد وتنفس المتبازين .

وبعد هنيهة سمع صوت هنري وقد لفظ كلمة سباب ، ثم ساد السكوت
فتلاه تنهد فصيحة فصوت سقوط جسم على الارض .

ذلك ان حسام فرنسوا كان قد أصاب صدر هنري من الجهة اليمنى فاخرقه
من فوق الضلع الثالث .

فركع فرنسوا عند ذلك قرب أخيه الصريع وعلم انه لا يزال في قيد
الحياة فجرد خنجره ورفع اليه فوق رأسه قائلاً : مت ايها الخائن الشقي فمثلك
لا يستحق ان يحيى .

ولكنه قبل ان يغمد خنجره في قلبه تألق بارق في السماء فأثار الكون
ورأى فرنسوا وجه هنري المصفر وصاح قائلاً بلهجة الجنون : أخي ...
أخي .

كأنه لم يعرف إلا من هذا البرق انه يحاول قتل أخيه

وعند ذلك ذعر وظهرت علائم الرعب على وجهه فألقى خنجره على مسافة بعيدة كأنه ناغم عليه ووقف وقد عادت إليه ذكرى جميع تلك الحوادث الهائلة فقال : ولكنه هو الذي خانني بعد ان ائتمنته ، وهو الذي اعترف بجريمته دون استحياء ، وهو الذي كان يريد قتلي والحقد مائل بين عينيهِ ، فاذا قدر له ان يموت فقد نال جزاءه ، وإذا شفي من جراحه قتله الخجل .

وعند ذلك التفت فرأى رجلين من الخطابين في تلك الغابة سمعا صليل السيوف فأمرعا ليعلموا الخبر وهما يحملان مشعلا فدنا فرنسا منها وأشار لها إشارة محزنة الى جسم اخيه دون ان يفوه بكلمة .
ثم اطرق برأسه الى الارض ومشى مشياً بطيئاً دون ان يلتفت الى ذلك الرجل الذي كان اخاه .

وبعد ما بساعتين وصل فرنسا الى الحصن ولما رآه حارس باب ذلك الحصن صاح صيحة دهش ورعب ، لأن شعره الذي كان في الصباح افهم كالليل عمه الشيب فبات رأسه كراس الشيوخ .
وقد استقبله احد الضباط فقال له : إننا اعدنا لك يا مولاي ، منزلك وجلبنا ...

فقاطعه فرنسا قائلاً بصوت اجش : ليحضروا لي جواداً .

ليس في نية مولاي المبيت في الحصن ؟

فضرب الارض برجله واجاب : كلا فليحضروا لي جواداً .

فأسرع الضابط الى تلبية امره وبعد هنيهة جاء الخادم بالجواد فعاد الضابط الى محادثة فرنسا .

فقال له : ان مولاي سيعود قريباً فيما أظن ؟

فوثب فرنسا الى ظهر جواده ، وهو يقول : إنه لا يعود الى الابد .

ثم اكر بطن الجواد وتوارى عن الأنظار

وفي ذلك الحين نفسه سمع صوت يقول فرنسا .. فرنسا ..
وكان النداء نداء يأس ظهرت بعده امرأة بين ذراعيها طفل وهي تمدو في أثر الجواد وتكرر النداء .

ولكن فرنسا لم يسمع دون شك هذا النداء فلم يلتفت ، وركض بجواده يسابق الرياح ، فكان وقع حوافره يسمع من بعيد ، وصوت المرأة يعيده الصدى حتى انقطع صوت المرأة ، وتوارى الفارس بجواده فلم يسمع لوقع الحوافر صوت .

فدنت المرأة عند ذلك من ثلة من الجنود كانوا واقفين عند باب الحصن يودعون أميرهم بالنظر وهم مندهلون لهذا السفر الغريب الذي يشبه الفرار .

فقال لهم بصوت مختنق : إلى أين ذهب ؟

فأجابها واحد منهم قائلاً من يعلم يا سيدتي ؟

- متى يعود ؟

- لقد قال انه لا يعود إلى الابد .

- إلى أين تؤدي الطريق التي سلكها ؟

- إلى باريس .

فشكرت حنة الجندي وسارت وابنتها بين يديها في نفس الطريق الذي سار فيه زوجها .



بعد أن أرجع بارداليان لويزا إلى أمها وبعد أن ذكر لها اسم الذي اختطفها وخرج خروج القانطين ، أخذت حنة بنتها وسارت في طريق حصن مونمورانسي وحدها ، فلم تأذن لمرضاعتها أن تصحبها بالرغم عن الحاحها ، فان ابنتها ما زالت في يديها لا يستطيع أحد اختطافها منها ، وما زالت ابنتها

معها فانها تستطيع أن تبوح لزوجها بكل ما جرى لها مع ذلك الحائن
السافل ، وهي تستطيع الآن كشف النقاب عن أعماله دون أن تخشى على
ابنتها الموت .

فكانت تسير في ظلام الليل وهي تناجي حبيبها فتقول : أيتها الزوج
الحبيب اني وهبتك حياتي ، وأنت الآن تأقم علي تود لو خسفت بي الأرض
وابتلعني جوفها .

ولكني لا أبالي بذلك فستعلم الحقيقة ونعود كما كنا ...

ولكني مشفقة عليك أكثر من اشفاقي على نفسي ، وأود تكريس حياتي في
سبيل هنائك كي أمحو أثر تلك الساعة الهائلة التي سحقت قلبك ..
ويح لنفسي ما أشد شقائي ...

أنا أخونك يا فرنسوا ، ولولا خوف الشرك لما عبدت سواك ؟

ولكنك عالم بشعائري ، واقف على دقائق نفسي فإذا كشفت لك الحقيقة
ألا تثق بأقوالي ... ؟

انك تثق بها دون شك ...

اني لو كذبت ذلك الحائن بكلمة لأعمد الخنجر في صدر طفلتنا ...

فرنسوا انك لا تعرف ابنتنا ، ولكنك ستغدو أسعد انسان حين تراها
وستدمع عيناك حزناً حين أقول لك ، فرنسوا هذه هي بنتك فعانقها .

وما زالت تمشي مسرعة وهي تناجي من تحبه بمثل هذه الأقوال حتى باتت
على قيد مائة خطوة من الحصن ، فرأت جماعة من الجند واقفين عند باب الحصن
وبأيديهم المشاعل ، ورأت فارساً مرق بجواده بينهم مروق السهم .

فقال : ربا هذا هو .

ثم ركعت اليه وجعلت تصيح بملء صوتها وتناديه . ولكن كتب في لوح
المقدور لهذين الزوجين أن يعيشا شقيين . فلو تقدمت أو تأخر بضع ثوان
لاجتمعت به وأرقفته على سر المكيدة .

ولما علمت من الجندي انه سار في طريق باريس قالت : لأقفون أفره
ما زال لي قوة تعينني على السير ولو اضطررت أن أجوب فرنسا في أفره ماشية
على الأقدام .

وتسلحت بحب زوجها وحب ابنتها فاخترقت الغابات في ظلام الليل .
وسارت بين تلك الأشجار التي أحنى النسيم أغصانها ، فكانت كأنها تحيي
بأغصانها تلك الزوجة الطاهرة وتبدي لها فروض الاحترام .

وقد تمكن اليأس من قلبها حتى انه لم يعد يخطر لها الخوف في بال ،
فلم تحش اللصوص ولا الحيوانات الضارية ولا قطاع الطريق الذين يكونون
للسافرين في الغابات ، إذ لم يعد للحياة قيمة عندها بعد ذلك اليأس .

وسارت على عجل وابنتها بين يديها وهي ليس لديها غير الملابس التي تلبسها
وليس في جيبها قطعة من النقود ، ولا تعرف باريس ولا أحداً من قومها ،
ولكنها لم تكترث لذلك بل لم يخطر في بالها ، فكانت تسير وعيناها محددتان
إلى الأمام ترى بهما خيال ذلك الزوج الهارب فتهتدي به سواء السبيل .



بعد سفر فرنسوا بساعة جاء الرجلان يحسم أخيه محمولاً على لوح من الخشب
والدم يقطر من جرحه فاضطرب كل من في الحصن لهذا الحادث الجلل واسرعوا
فحملوه إلى فراشه وجاؤه بجراح القصر .

ففحص الطبيب جرحه وقال للضباط الواقفين من حوله انه يعيش ، ولكنه
لا يستطيع قبل ستة أشهر أن يبرح الفراش .

وكان الرجلان اللذان حملاه إلى الحصن قد عرفا أخاه فرنسوا ، ولكنهما
استغربا ذلك الأمر وغشياً عاقبة التصريح فلم يحسرا على الأباحة بشيء .

أما أهل الحصن فقد تبادر إلى ذهنهم ان هنري توغل في الغابة للصيد

فباغته اللصوص إذ لم يخطر لهم في بال أن يكون ذلك من صنع أخي
فرنسوا دي مونجرانسي .



في الساعة نفسها برح الحصن ايضاً الشفالييه بارداليان دون ان يعلم شيئاً مما
جرى ، ولو علم بما أصاب هنري لما بقي دقيقة في ذلك الحصن ، فانه كان
يعرف هنري حق العرفان ، وانه ليس في قلبه ذرة من الاشفاق والرحمة

وكان يقول في نفسه اني أرجعت الطفلة إلى أمها فإذا علم هنري بذلك
ينقم علي أشد النقمة ويعذبني عذاب المجرمين فالفرار خير لي وأبقى .

ثم امتطى جواده ووضع ولده أمامه وأشار إلى الحصن إشارة وداع
وانطلق بجواده في طريق باريس .

وبعد هنيهة دخل إلى تلك الغابات العظيمة التي تمتد إلى أبواب باريس
لاتساعها .

فلم يسر فيها بضع خطوات حتى رأى بعينه النقادة شبحاً ، ثم اتضح له انه
شبح امرأة ، فأسرع بجواده حتى وصل اليها فعرفها واضطرب .
وكانت هذه المرأة حنة فواصلت سيرها كأنها لم تسمع وقع حوافر الجواد .

غير أن بارداليان ناداها برفق قائلاً سيدي .
فوقفت حنة وقالت له أليست الطريق التي أسير عليها يا سيدي هي
طريق باريس ؟

- نعم يا سيدي ، ولكن مسيرك ليلاً في هذه الغابات خطر عليك ، ألا
تسمعين لي أن أصحابك ؟
فهزت حنة رأسها إشارة إلى عدم اكترائها بالأخطار ، فشكرته
بصوت ضعيف .

- كيف ذلك يا سيدي تريدان أن تسيري وحدك ؟

نعم ، اني لا أخاف شيئاً في هذا الوجود ، ثم استمرت في سيرها .
فنظر اليها بارداليان نظرة المعجب المشفق ثم هز كتفيه كأنه يريد أن يقول
انه لا سبيل إلى مقاومة يأسها ، ومشى في سبيله .

غير انه لم يسر بضع خطوات حتى عاد اليها وقال لها ولكن ألك أقرباء
يا سيدي في باريس . أتعلمين إلى أين تذهبين ؟
- كلا ، ليس لي أحد ولا اعلم اين أسير .

أسألك العفو يا سيدي لجسارتي في سؤالك . ألدبك من النقود ما يكفي
لمثل هذا السفر ؟

- ليس لدي درهم وفي كل حال أشكرك لما تبسديه من الاهتمام بي على غير
معرفة سابقة .

فتردد بارداليان هنيهة كأنه في نزاع شديد ثم ذهب التردد وظهرت عليه
دلائل العزم الأكيد فدنا من حنة ووضع على صدر بنتها شيئاً لماعاً وأطلق لجواده
العنان ممناً في الفرار بعد أن قال لها هذه الكلمات :

« سيدي أرجوك ، أن لا تزيدني في لعن الشفالييه دي بارداليان فهو
من أصحابي ، » .

فعلت حنة عند ذلك ان هذا الرجل هو نفس الرجل الذي رد لها ابنتها
ونظرت إلى تلك الحاجة المماعة التي وضعها على صدر ابنتها فرأتها خاتماً ثميناً
من أفخر أنواع الماس .

أما هذا الخاتم ، فقد وصل إلى بارداليان من هنري ، وقد أعطاه أجرة
اختطافه الطفلة .

وحده قاضيه منتدى ليلاس

التضحية

كان الشيخ مونغورانسي أمير الجيوش يسير ذهاباً وإياباً في قاعة الشرف الكبرى في قصره في باريس .

وكان رجال بطانته الأشراف من حوله بعضهم جالسين على المقاعد وبعضهم وقوفاً وهم يتمعدثون بأصوات واطئة بأمر غريبة .

وكان أمير الجيوش قد أطل منذ هنيهة من النافذة ورأى امرأة واقفة أمام باب القصر الأكبر وهي مضطربة مصفرة الوجه وبين يديها طفل .

فأصدر أمير الجيوش امره بإدخال هذه المرأة إلى القصر فأدخلوها إلى غرفة محاذية للقاعة الكبرى واقامت تنتظر فيها .

وفوق ذلك فان ابن أمير الجيوش الذي كانوا يحسبونه ميتاً قدم إلى باريس فجأة في الليل ، وخلا بأبيه خلوة طويلة ، ثم سافر بعد هذه الخلوة إلى مكان لا يعلمه أحد .

ووردت الأنباء من حصن مونغورانسي تفيد ان هنري ابن أمير الجيوش الثاني هوجم في الغابة وأصيب بجرح بالغ .

وآخر تلك الأنباء ان جلالة الملك هنري الثاني كان عازماً في الساعة الرابعة من ذلك اليوم على زيارة صديقه القديم ، وأمير جيوشه ، فاستنجزوا من هذه الزيارة أنها يريدان التأهب لحرب جديدة ، وان الملك مقبل للمداولة

مع الأمير .

وكان جميع من في القصر منهمكين انهما كما عظيماً لاستقبال الملك بما يليق بمقامه من الاجلال إذ لم يبق لموعد زيارته غير ساعة وهو من أشد الناس حرصاً على الصدق في المواعيد .

أما قصر مونغورانسي فقد كان مقره بازاء اللوفر على مسافة قريبة من البحيرة .

وكان القصر على أتم مظاهر الفخامة والاجلال في عصر لم يكن أتى فيه بعد الكردينال ريشيليو ، فكبح جماح أولئك النبلاء الذين كانوا يشبهون الملوك بمظاهر القوة والجلال ، ويزيدون عليهم بالثروة واكتناز المال .

وكان في قاعة الشرف التي نحن في صدها نحو ستين نبيلاً من بطانة أمير الجيوش ، وهي حاشية عظيمة ، لم يخف ذلك الشيخ السياسي من أن يظهرها أمام الملك ، في حين أن مولاه لا يعد مثل هذه الحاشية على كونه ملك فرنسا .

ولكن أمير الجيوش لم يكن في ذلك الحين يفتكر في هذه الأمور بل كان يسير مضطرب الخطى وهو يدنو من حين إلى حين من باب تلك الغرفة المقيمة فيها المرأة ، حتى إذا وصل إليها تراجع مغضباً وضرب الأرض برجله وعاد إلى المسير ذهاباً وإياباً في تلك القاعة وهو مشتت البال لا ينبس بحرف .

إلى أن زال ذلك التردد وظهرت عليه دلائل العزم الأكيد ففتح باب الغرفة فجأة ودخل .

وكان في وسط هذه الغرفة امرأة واقفة وقفة المنتظر وقد وضعت طفلها النائم فوق مقعد وجعلت تنظر اليه بملء الحنو .

فدنا أمير الجيوش خطوتين منها وقال لها وهو عابس الوجه مقطب الجبين : ماذا تريدن أيتها السيدة ؟

فبذت على المرأة علائم الدهشة والذعر معاً ، حين رآته وفتحت
مولاي الأمير .

فأجاب بعنف وجفاء إنك لم تتوقعي أن تربني اليس كذلك ؟ وإنك بدلا
من أن تري ذلك الابن الأبله ، الذي يمكن خديعته كل حين بزخارف القول ،
رأيت ذلك الوالد الذي لا يخدعه لين النساء .

فنظرت اليه حنة ، وقد عرف القراء انها هي دون شك ، وأجابته بلهجة
شفت عن عواطف قلبها الرقيق : لا أنكر عليك يا سيدي اني كنت أرجو
أن أرى فرنسوا ، ولكن امرأة من أسرتي لا يمكن ان تجفلس إذا رأت
والد زوجها .

فأطبق الشيخ قبضتيه وأجاب : ماذا تقولين : زوجك ، اني أمرك بان
لا تعيدي هذا القول أمامي ، فلقد أخبرني فرنسوا بكل ما جرى تلك
الليلة . سمعت ، انه أخبرني بكل ما جرى ، لقد علمت انك اتفقت مع
أبيك على ولدي وأكرهتماه على الزواج بك .

وأني زواج هذا . انه عقد بعد انتصاف الليل خلسة فهو سرقة محضة ،
بل هو اغتصاب شائن .

وحاول الشيخ ان يندفع مع تيار غضبه ويسترسل في شتمه ، ولكن
صيحة بدت من حنة أوقفته عن تنمة حديثه ، فقد اصفر وجهها من الانفة
ومدت اليه يدها بملء العظمة والكبرياء ، فقالت له : انك كاذب أيها الشيخ
وعار على النبلاء أن يكونوا من الكاذبين .

فاضطرب أمير الجيوش اضطراباً عظيماً وأجاب : من يقول عني هذا
القول ؟

- أنا ، وهي كلمات مرة ولكنها حق ، وما زال القول الحق يقرع
الأسماع ، ولكنني أزيد عليها فأقول :

« انك كالتبور المكسرة ظاهرها أبيض ناصع وليس في باطنها غير الجيف

انك ليس لك من النبيل غير ملابس النبلاء . وان تاج شعورك الأبيض لم
يكن يحميك من الصفع لو كان أبي الذي قتلته بيدك الظالمة قتلاً بطيئاً
موجوداً الآن معي . . . وانك تهين امرأة تحمل اسم أسرتك فأنت تهين
نفسك باهانتني .

فدهش أمير الجيوش لما رآه من كبريائها ، ولما سمعه من حديثها ، فأحمر
وجهه في البدء ، ثم اصفر واضطربت شفتاه من الغيظ حتى أوشك أن
يصدر أمراً . . .
ثم ضبط نفسه ورأى انه مغلوب وأنه أهانها إهانة تستوجب هذا الدفاع ،
فانحنى أمامها دون أن يفوه بحرف .

أما حنة فإنها استأنفت حديثها بعد ان حاولت تسكين اضطرابها فقالت :
« لقد أخبرتني يا سيدي منذ هنيئة انك عارف بكل شيء ، فداني كلامك على
أنك تتهمني تهماً لا سبيل إلى السكوت عن ردها ، وما زال القدر دفعني اليك
فلا أجد بداً من الكلام . . .

كلا يا سيدي انك لا تعلم كل شيء كما تقول ، بل إنك تجهل الحقيقة
الهائلة كما يجهلها رئيسي وزوجي ، والرجل الذي ملكته نفسي . ولا بد لك
من سماع الحقيقة صيانة لشرفي ، وحفظاً لهناء ولدك وحياة هذا الطفل البريء
الظاهر المستظل الآن بسماء بيتك وهو من دمك . . .

فزاد اندهاش الشيخ مما رآه من نبيل تلك المرأة ، ورأى ظواهر السلامة
والصدق منطبعة على وجهها الجميل فانحنى أمامها أيضاً وسألها : تكلمي
يا سيدي . . .

ثم أطلق نظره إلى الطفلة النائمة على المقعد .

ورأت حنة أنه ينظر إلى إبنيتها نظرة تكاد تشف عن الحنو .

فأبرقت عينها بأشعة الرجاء ، فذهبت إلى ابنتها فقبلتها . . .

ثم حملتها بين ذراعيها ، ودنت بها من جدها ، وهي تبتم وتبكي في

في حين واحد .

فرق قلب الشيخ لهذا المنظر ومد يديه لأخذ الطفلة وقال لها : ما اسم هذا الطفل ؟
- انها تدعى لويزا .

فظهرت علائم الاحتقار على وجه الشيخ وبين شفثيه وأرعى يديه كان أنف من أن يضم تلك الطفلة وهو يحسب أنها غلام فأدركت حنة قصده وعلمت ما جال في نفسه فتراجعت مصفرة الوجه . أما الشيخ فإنه لم يحن قلبه في البدء إلى المولود إلا لحسابه غلاماً يحدد مجد بيته في الأيام القادمة .

وكانت عادة تفضيل الذكور على الإناث شائعة في ذلك العهد فقال لها : اني وعدتك يا سيدتي أن أسمع حديثك فقولي ما تشائين وابسطي تلك الحقيقة التي تدعينها هائلة فاني مصغ اليك .

فأيقنت حنة أن ذلك الوفاق الذي أملت ان يصل بينها وبين أسرة مونغورانسي انقطع ، ولكنها لم تعد تكترث لهذا الاتصال في تلك الساعة التي وقفت فيها موقف المتهمين ، وكان كل ما يشغلها الدفاع عن شرفها وتبرئة نفسها لدى والد زوجها كي يصل حديث البراءة الى الزوج .

وعند ذلك حكمت له جميع ما اتفق لها مع ولده فرنسوا منذ نظرهما النظرة الأولى الى حين عقد زواجهما .

ثم ذكرت له وعيد هنري وولادة لويزا ، وتلك النهاية الهائلة التي عرفها القراء .

بحيث روت له كل ما حدث دون ان تنقص حرفاً

فسمعها الشيخ بملء الاصغاء دون أن يبدو على وجهه شيء من علائم التأثير .

وكانت حنة تفحص ملامحه عليها تجرد في عينيه ما يدل على العطف والرفق

ولكن خاب رجاؤها فركمت امامه على ركبتها واليأس ملء قوادها :
وتابعت : أرى يا سيدي لنكسد طالعي اني لم أفز باقتناعك وانى لم أستطع ان امثل لك ما قلته بعبارات تثبت حقيقته ، ولكني اقسم لك بنفسى وبالانجيل الطاهر ، بل بحياة ابنتى انى لم اقل غير الحق فلماذا لا تثق بصدقى يا سيدي ولماذا هذا السكوت .

انك والد فرنسوا وهذه الطفلة ابنته فهي حفيدتك ، الا تشفق يا سيدي على هذه الأم المنكودة .

واذا كنت لا تريد ان ترحمها الا ترحم هذه الطفلة وهي بريئة طاهرة فلا ذنب لها .

وكانت تقول هذا القول بلمهجة كثييرة تدل على ان قواها بلغت غاية الانحطاط .

فكان الشيخ يسمعها وعيناه تضطربان مما يدل على انه كان يبحث عن حيلة تنقذه من هذا الموقف .

فلما أتمت حديثها ، قال لها : انهضى يا سيدي فقد بت واثقاً انك تقولين الحق .

فصاحت حنة صيحة فرح وتمتمت :

- لقد نجت لويزا فليتبارك اسم الله .

وقد اضطرب الشيخ لهذه الكلمات لحظة ، ثم ضبط نفسه وعاد الى الحديث فقال : انى لم اكن اعلم بشيء مما حدثتني به عن فرنسوا وهنري ، فان فرنسوا لم يكلمني بشيء ، وحين قلت لك انى عالم بكل الامر ، كنت اريد بذلك انى كنت عالماً بذلك الزواج السرى الذى اهانتني واضر مصالح سبادتى واسرتى ، فاعلمى يا سيدي ان هذا الزواج مستحيل .

فدعرت حنة وقالت له : إن الزواج لا يقال فيه انه ممكن او مستحيل وهو كائن .

فهاج نائر غضب الشيخ وكادت تبدر منه بوادر الحدة ولكنه كظم غيظه
ومشى في الغرفة هنيئة بي يقمع فتنة نفسه الشائرة ، حتى اذا وثق من ضبط
عواطفه عاد الى تلك المنكودة فأخرج من جيبه ورقتين مطويتين ففتح احداهما
فدفعها الى حنة وقال لها : إقرأي هذه .

فأخذت حنة تلك الورقة ، ولم تكذب تم قراءتها حتى اصفر وجهها ،
واثارت العواصف في قلبها الكسير ولم تستطع ان تفوه بكلمة
لكنها نظرت إلى ذلك الشيخ ، كما ينظر الحمل الى الجزار حين يجرده
السكين لذبحه .

أما الورقة فقد كانت تتضمن ما يأتي :

« صدر الأمر إلى قائد حرسنا بالقبض على فرنسوا كونت دي مرجني ،
وبكر أسرة مونورانسي والكولونيل في جيشنا السويسري والذهاب به إلى
سجن فامبل ، حيث يقيم فيه إلى أن يدعو الله اليه . »

ولكن سكوتها لم يطل فانها ما لبثت ان ثابت الى رشدها بعد تلك الضربة
الهائلة حتى نظرت الى ذلك الظالم وقالت له بلمهجة التوسل : أية إساءة اساءها
اليك فرنسوا فتعاقبه بالسجن الأبدي ؟

فقال لها الشيخ : انظري يا سيدتي إلى الأمر تجدي انه لم يوقع عليه بعد
ولكن الملك سيزورني بعد هنيئة في هذا القصر ، وانت تعلمين اني امير الجيوش
واعظم عظيم في فرنسا بعد الملك ، فاذا التمسست من جلالتك أن يوقع على الأمر
فعل دون شك فيسير فرنسوا غداً إلى السجن ويبدأ عذاب ذلك الذي تقولين
انك تحبينه .

- ولكن ذلك شديد هائل ، فماذا اجرم هذا المنكود فاستحق هذا
العقاب ؟

- إنه تزوج بك .

- اتعد الزواج جريمة ؟

- رحماك يا سيدي والحق صواعق غضبك علي دون فرنسوا فلا ذنب له ..
ان الله عادل رحيم ، الا يوجد في هذه الأرض عدل ورحمة واشفاق ؟
اقتلني يا سيدي ما زال الحب يعمد جريمة فقد أحببت ، ودع فرنسوا
فإنه ولدك .

فبرقت عيننا الشيخ ببارق من الرجاء فأخذ الورقة الثانية وقال لها :
والآن اقرأي هذه الورقة فانها صك اختياري يتضمن فسخ الزواج
بينك وبين ولدي .

فصاحت - نة صيحة منكورة واجابت .

- كلا ، معاذ الله ان افعل ، فاقتلني اذا شئت ان يفسخ الزواج ، واما
ان افسخه بيدي فلا .

- اني اعلم مقدار صعوبة الطلاق عندنا ، ولكن الملك يساعدنا ، فيسهل
ديون

فركعت حنة وجعلت تبكي وتقول ارحمني واشفق علي .

- ولا سيما إن قداسة البابا قد وافق على فسخ الزواج ولم يبق الا توقيعك
على الصك

- رحماك ، دع لي فرنسوا ودعني أحبه .

- وقومي يا سيدتي على الصك ، والخبر الأعظم يلغي الزواج .

- وابنتي يا سيدي ... إنها بذت فرنسوا .. انها حفيدتك ، اتسرق منها
اباها ، اتختلس منها اسمها .

- كفي يا سيدتي ، فلا بد لي من تقديم إحدى هاتين العريضتين بعد هنيئة
الى الملك فاذا لم توقعي على العريضة ولم استطع ارسالها الليلة الى رومه بات
فرنسوا غداً في السجن فلا يخرج منه حياً ، فوقمي يا سيدتي اذا كنت تريد
له النجاة

ثم دفع اليها القلم فاختنق صوتها بالبكاء .

- كلا ، كلا .. لا افعل .

وعند ذلك سمع صياح الجنود ، في فناء القصر يكررون القول :
ليحيى الملك !
ذلك ان الملك هنري الثاني كان قد دخل القصر ، فأسرع أحد النبلاء الى
امير الجيوش ، وقال له :

- مولاي ان جلالة الملك قد وصل .

فالتفت الشيخ إلى حنة وقال :

- استودعك الله ، فزقي عريضة الطلاق اذ لم يبق فائدة منها ، وان
اعرض على جلالة الملك العريضة الثانية القاضية بسجن فرنسوا إلى الأبد .
ثم هم بالخروج مغضباً وعليه دلائل صدق العزيمة فأسرعت اليه وقالت له :
قف فقد رضيت ان امضي . رضيت ان اموت فداء لمن احب .

ثم وقعت على الصك والقت القلم ، لأن يدها لم تعد تستطيع ضبطه ، فانها
سقطت على الأرض لا حراك بها ، وقد بسطت يدها دون ادراك الى جهة
ابنتها كأنها تريد ان تحميها .

اما الشيخ فانه اخذ الصك فوضعه في جيبه وخرج لمقابلة هنري الثاني

فتلقاه النبلاء والجنود بالصياح قائلين : ليحيى الملك ، وليحيى امير
الجيوش !

- ١٠ -

ذات الملابس السوداء

وصل الصك الى قداسة البابا ، فحكم ببطلان ذلك الزواج السري ،
وبطلاق حنة دي بيانس من فرنسوا دي مونمرانسي ، فكان لذلك وقع عظيم
في الأندية الخاصة ، اذ كان الجميع يعتقدون ان الملك سيعارض في هذا الطلاق
ويأباه كل الاباء .

وفي سنة ١٥٥٨ بات فرنسوا دي مونمرانسي امير الجيوش الأكبر بدلاً من
ابيه المتوفي ، فتزوج ديانا دي فرانس ابنة الملك ، ولكنه قبل ميعاد الزواج
بأسبوعين ذهب الى تلك الأميرة فخلاها .

وقال لها ما يأتي :

اني لا اعلم يا سيدتي حقيقة منزلتي من قلبك واسألك المَعذرة والعفو عما
سأقوله لك ، فانك لا تسمعين من يكلمك بهذه اللهجة الهمجية غيري .
انهم يريدون يا سيدتي تزويجنا ، وانما رضيت هذا الشرف امتثالاً لأوامر
الملك الذي اراد هذا الزواج لأسباب سياسية .

ولكن اليوم الذي يبارك فيه الأسقف زواجنا يكون قلبي بعيداً عن تلك
الحفلة ، فاني لا احبك ولن احبك

ولا انكر يا سيدتي اني اتجاسر على اهانتك في ما اقول ..
فقاطعت ديانا قائلة : كلا ، وأنا أرجوك أن تمضي في حديتك بملء الحرية

كأنك تتناجي نفسك

- ولكني لو كان قلبي لي لما وهبته لسواك ، فإنك فتنة العميون وابدع موصوفة بين الحسان .
- إذا أنت مقيد بحب سواي ؟

- كلا يا سيدتي فقد أخطأت التعبير لأن قلبي قدمات ودفنت فيه أماني الغرام ، وإذا كنت لا أزال في قيد الحياة فليس ذلك بذنبي ، فقد طالما القيت نفسي إلى الموت في غمار المعارك .
ثم ابتسم ابتسام قنوط وقال :

- ولكن الموت كان يهرب مني ، وهذه هي يا سيدتي حقيقة أمري ، فإن زواجنا لا يمكن أن يراد به غير اتحاد الاسمين ، فإذا كان الحب الأخوي والاخلاص الطاهر والخضوع الأكيد تعدل كفتها كفة الحب قدمت لك بملء الاحترام هذا الاخاء وهذا الخلوص .
والآن يا سيدتي إني بحت لك بمكنونات قلبي ، واطلمتكم على حقيقة لا ريب فيها فلم يبق علي إلا انتظار أوامرك .

وكانت ديانا جميلة على ما وصفها فرنسوا وهي على جمالها ذكية الفؤاد ، فوقفت حين أتم حديثه وقالت له برفق : إني لو سمعت ما قلته لي الآن من سواك لما حسبت قوله إلا اهانة ، ولكنني غفرت كل هفوة تبدر منك فامتثل لأوامر ملكك ، وليحتفظ كل منا بقلبه . أليس هذا الذي تنتظره مني يا حضرة المارشال ؟

فاصفر وجه فرنسوا لأنه كان يتوقع أن يسمع غير هذا الجواب وقال لها :
يا سيدتي . . .

- انصرف الآن واعلم إني سأحترم حداد قلبك .
فانحنى فرنسوا أمامها وقبل يدها وهو يبتسم ابتساماً يشف عن سويداء

أما الأميرة فلإنها ودعته ضاحكة وهي تقول : أن الطبيب باري يقول إني خبيرة بالطب ، ومن يعلم ، فقد اتمكن من شفائك فادع لي بالتوفيق .



وبعد هذه المقابلة جعل فرنسوا يعرض نفسه للموت في كل معترك .
ولكن الموت كان يفر منه كما يقول .

أما هنري فإنه لم ير أخاه بعد تلك المباراة ، وكان كل من الأخوين يحاول اجتناب الآخر ، فإذا حارب فرنسوا في الشمال حارب هنري في الجنوب .
على أن هذا اللقاء لم يكن بد منه ، فإن الأخوين كانا لا يزالان هويان حنة وكلاهما يبعثان عنهما ، ولكن بجائهما ذهبت سدى فلم يعرف أحد مكانها .

وماذا عسى أن يكون قد أصاب هذه المرأة المنكودة التي يصح أن يضرب بشقاها الأمثال . العله كانت أسعد حظاً من زوجها فرنسوا فوجدت الراحة بالموت .

العل شقاءها بزوجها وابنتها وبأسها من الحياة دفعها إلى الهاوية الأبدية ؟
كلا ، إنها لا تزال في قيد الحياة ، ولكنها حياة مرة يفضلها الموت ، فهي في عراك دائم مع اليأس تقضي الليالي الطوال باكية تندب ذلك النعيم الذاهب ولا تريد أن تعيش إلا لابنتها .

ويذكر القراء انها بعد أن وقعت على صك الطلاق سقطت مغمياً عليها ولا نذكر كيف استيقظت وكيف كان خروجها من ذلك القصر ، وكيف عاشت تلك السنين حذر الاسهاب في ما لا يفيد .
ولكننا ندخل بذهن القاريء إلى منزل حقير كانت تقيم فيه في شارع

وحده قاضيه منتدى ليلاس

سانت دنيس ، وهو منزل صغير مؤلف من ثلاث غرف مفروشة بأبسط فرش ، ولكنها باتم النظافة والترتيب .

خرجت حنة من إحدى هذه الغرف إلى غرفة كانت جالسة عند نافذتها المطلة على الشارع فتاة حسناء .

وقبل أن تدخل إلى الغرفة وقفت عند مرآة فجعلت تنظر فيها وتحدث نفسها فتقول :

« كيف يجدي لو رأي الآن . العله يعرفني ؟ . وأأسفاه لقد ذهب العهد القديم وزالت نصره الشباب وأين أنا الآن مني حين كنت القب بحورية الربيع .. إني بت الآن القب بالمرأة السوداء لملايسي السود ، وما هي إلا الحداد على بختي العاثر .

غير أن حنة كانت مخطئة في ما ادعته من ذهاب نصره جمالها ، فإنها كانت لا تزال آية في الجمال ولم يكن اصفرار وجهها إلا ليزيدها حسناً .

ودخلت وهي تتنهد إلى غرفة الفتاة فوجدتها تشتغل بالتطريز ، وهي منهمكة فيه حتى إنها لم تنتبه لدخول أمها ، فان هذه الفتاة كانت لويزا ، وقد وضع السبب الآن في بقاء حنة في قيد الحياة فانها قد لقيت من الشقاء ما لم تلقه زوجة من قبلها .

ولكنها على نكبتها كانت أما وقد زادها شقاؤها بزوجها تعلقاً بابنتها ، وكانت تحبها وتعبدتها وهي طفلة في العهد ، فكيف يكون حبها لها الآن وقد ترعرعت وخرجت كأما لطفاً وجمالاً يدهش الابصار .

وكانت لويزا بالغة في ذلك العهد ستة عشر ربيعاً وهي زرقاء العينين تشبه زرقتها لون السماء الصافية ولها شعر ذهبي يلعب كالتاج وقعت عليه أشعة الشمس وكل ما فيها حلو جميل ، وكل كلمة من كلماتها العذبة قصيدة .

ولكنها على هذا الجمال الفتان وعلى ما فيها من نضارة الشباب ، كانت

تبدو عليها مظاهر السويداء فلا تنقطع عن التفكير ، فهل كتب في لوح المقدور لهذه الفتاة ما كتب لأما ؟

وحده قاضييه متندى ليلاس

ولما دخلت أمها ووقفت أمامها انتبهت لها فنظرت اليها مبتسمة وقابلتها أمها بمثل ذلك الابتسام .

ولو نظر الناظر الناقد اليها لما قال انها أم وبنتها ، بل قال انها اختان بينهما بضعة أعوام على أن الأم تزيد البنت بقدر عمرها .

وجلست حنة تجاه لويزا فأخذت طرفاً من الوشاح الذي تطرزوه وجعلت تساعد في التطريز .

فقالت لها لويزا : كفاك عناء يا أمي واستريحيني ، فأنا أتم هذا الوشاح إذ لم يبق منه غير القليل .

قالت : العلك نسيت يا ابنتي انه يجب علي تسليم الوشاح في هذا اليوم الى تلك السيدة الغنية .

- نعم ولقد ذكرت لي اسمها فهي ماري توشيت ، اليس كذلك ؟
نعم يا لويزا .

لماذا لم تخلق أغنياء يا أمي مثل هؤلاء الذين نشغل لهم فنكتفي مشقة العمل ، وانما أقول ذلك من أجلك فاني سعيدة بقربك وبكفيني ذلك .

فنظرت حنة إلى لويزا بنتها نظرة شفت عن الكآبة وقالت في نفسها تخاطب ابنتها :

إنك لا اسم لك ولا لقب ، ولكنك لو علمت إنك ابنة مونغورانسي فما كنت تقولين .

ثم قامت في مهامة التفكير فقالت لها لويزا بما تفكرين يا أماء ؟

فارتعشت حنة واغرورقت عيناها بالدموع فقالت : افتكروا يا ابنتي بانك ما خلقت لهذا العمل الشاق ويسوء في ان تخز الأبر يدك الجميلتين . وأخذت يدي بنتها وجعلت تقبلها . فضحكت الفتاة وقالت لها : أتظنين يا أمي ان يدي تشبه أيادي الأميرات ؟

فزاد اضطراب حنة وأجابتها قائلة : من يعلم يا ابنتي لولا هذان الرجلان الشقيان .. ثم توقفت فجأة عن الحديث فقالت لها لويزا :

مق تقولين لي يا أمي هذا السر الهائل المثلث على حياتك ، ومق تذكرين لي اسم ثاني الرجلين الذي نعص عيشك هذا التنغيص ، فإنك لم تذكرين لي غير اسم واحد .

- نعم يا لويزا ، وهو الشفالييه دي باردليان .

- إني لا انسى هذا الاسم وسأكرمه ما حييت فقد كان السبب في شقائك . ولكن اذكري لي اسم الآخر .

فسكتت حنة ولم تجب واحترمت البنيت سكوت أمها فعكفتا على العمل حتى تم الوشاح .

وعند ذلك أخذته حنة وذهبت به الى تلك السيدة وهي ماري قوشيت . أما لويزا فإنها وقفت بعد ذهاب أمها تنظر من النافذة ، وقد أرسلت نظرها إلى فندق يقابل منزلها وقلبها يخفق بالرجاء .

وكان في نافذة إحدى غرف ذلك الفندق فتى جميل ، فلما رأى الفتاة أطلت من الشباك أرسل لها قبلة من يده .

فاحمر وجه الفتاة ثم اصفر ولبثت هنيهة وعيناها محذقتان بهذا الفتى ، فكانت هذه النظرات شبه اعتراف بموافقتها على الحب .

ولم تكن الفتاة تعرف هذا الفتى ، ولكنها لو عرفت اسمه لما وقفت في

تلك النافذة ، ولما نظرت اليه هذه النظرات وللعنته أشد لمن ، فإن هذا الفتى كان يدعى الشفالييه دي باردليان الأصغر .

أي ابن باردليان الأكبر الذي عرف القراء أمره فيما تقدم من سياق الحديث

وحده قاضيه متندي ليليس

- ١١ -

باردليان الأصغر

جواده وكلبه وحسامه

كان باردليان الأصغر يقيم منذ ثلاثة أعوام في غرفة من أجمل غرف فندق دفينير تشرف على شارع سانت دينيس الذي تقيم فيه حنة وابنتها لويزا .

وسرى كيف تمكن هذا الشاب على فقره المدقع من الأقامة في هذا الفندق الذي كان يعد من أشهر فنادق باريس في تلك الأيام .

ولا بد لنا قبل ذلك من أن نصف باردليان ، فقد عرفناه طفلاً صغيراً قوي البنية خفيف الحركات ، وهو الآن في العشرين من عمره ريان الشباب ممتلئ البدن شديد الأعصاب لين المربكة .

وكان يلبس لباساً واحداً في الصيف والشتاء ، وهو من الخمل الأزرق وقبعته تختلف عن قبعات جميع الناس ، فهي مستديرة وعليها ريشة ديك ، وقد استعمل هذه القبعة هنري الثالث فعم انتشارها ، ولكنها كانت من

مخترعات باردليان دون شك .

وكان عالي القامة براق العينين ولنظراته حلاوة ورهبة ، إذا ابتسم أو غضب ، وعلى الجملة فقد كان جميلاً مهيباً في حين واحد .

وقد لقب نفسه كأبيه بلقب شفالبيه ، فكان جميع سكان شوارع سانت دينيس وقامبيل وسانت انطوان ، وفي جميع خمارات الغلمان الأشرار يعرفونه ويخافونه .

وطالما رآه الأرواح وهم مع نساءهم يمر بهم وهم معتز كالمملوك ، فيهربون من لقائه بل طالما كانت السيدات ترفع سجوف مركباتهن لتشيغنه بالنظر

أما هو فقد كان طاهر القلب فلم يكن ينتبه لشيء مما يحيط به من اعجاب الناس ، بل كان يسير غير مكترث وانفه مرتفع للهواء كأنه ذئب يبحث عن مفتم ، وما غنمه غير معركة يثيرها أو خصم يبارزه وحادثة غرام تسليه .

وكان الجنود يخافونه فلا يماملونه إلا باللطف والابتسام ، وقطاع الطريق الأشداء يعجبون به ويعرضون عليه أن يتولى رئاستهم فيأنف منهم . فكانت جميع الناس يعجبون به على اختلاف الطبقات .

أما هذا البطل فلم يكن يمتلك شيئاً في الوجود ، إلا ما أنعم عليه به الله من صحة وظرف وقوة ، وحصان يدعى كالور وكلب يدعى بيبو وحسام طويل يدعى جيبوليه .

هذه هي كل ثروته ، وسنعود إلى حديث جواده وكلبه وسيفه فان لها شأناً في هذه الرواية .

ولنعد الان إلى حديث باردليان فنقول : انه قبل أن يرسل إلى لويزان تلك القبلة من النافذة بستة أشهر دعاه اليه والده وكان يقيم معه في ذلك الفندق فقال له : إني دعوتك إلي يا بني لأودعك .

فاضطرب وقال له : أملك مسافر ؟

- نعم يا بني وقد كان خطري لي أن أقترح عليك السفر معي

فاصفر وجه باردليان وظهرت عليه علائم الاضطراب ، وكان أبوه يراقبه فقال له لقد كان خطري لي هذا الخاطر ، ولكنني رأيت بعد ذلك ان بقاءك في باريس أفضل ، فانها عاصمة البلاد ومقر الملك ومطمح أهل الأقدام مثلك .

قال : ولكن ماذا بدعوك إلى السفر يا أبي ؟

أجاب : يدعوني اليه أمور كثيرة يا بني أخصها أني نشأت على التجوال والضرب في الأرض ومناجاة الطبيعة في معظم جلالها ، وقد ضيق العيش في باريس صدري فلم أعد أستطيع الإقامة فيها .

وربما كان الدافع إلى سفر باردليان الأكبر سبب غير هذا يريد أن يكتبه فانه كان يتلجلج في قوله .

ثم مضى في حديثه فقال :

إنني أفارقك الان يا بني وقد يكون هذا الفراق فراق الأبد ، فقد كدت أبلغ مبالغ الشيوخ ويسوءني اني ليس لي ما أدعه لك غير نصائحي الأبوية وهي إرثك الوحيد مني ، بل هي خير من المال فانها نتيجة التجارب والاختبار دهرأ طويلاً .

ورأى باردليان دمعة سقطت على وجنة ولده فقال : على م البكاء يا بني ان بكاءك يحزنني : فاحتفظ بدمعك ترسله في غير هذا المقام ، فليس فراقك نكبة تدعو إلى البكاء .

واني مسافر يا بني ولكنني أفتخر بأني تركت ولداً جديراً بأن يكافح في معترك الحياة . فأنت خير من حمل السيف وليس في جميع بلادنا الفرنسية من يستطيع الثبات أمامك ومضاهاتك في ما علمتك إياه من فنون القتال ، فأنت حديد النظر ذو هممة شماء شجاع عنيد لا يعوزك سبب من أسباب الفخار .

وفوق ذلك فقد كنت أحملك في حداثتك قارة على جوادي وقارة على ظهري

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلم تتجاوزت من الحداثة كنت قد ظفت جميع فرنسا من شرقها إلى
مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الحشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكترث
لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لهطل الأمطار وترتاح
لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني
ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر باردليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى
حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن
برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون
بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعدده لك .

فدعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

- إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

- أنت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك الحنون
ألين من ان يرتكب الهفوات .

- اصغ إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلاً جواب آفاق ناقت نفسي
إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن احتفظ
بمنصبي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي
اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة
آلاف ريال ووعدني بضعفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكنني عولت منذ تلقيت الأمر بقضاؤها
ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .
- وبعد ذلك .

- وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فمصيت أمر الرئيس ، وأرجعت
الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتني . فلم أجد بعد عصياني
رئيسي سبيلاً إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة
عشر عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك
على العيش .

- من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت
في خدمته ؟

- ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن أعلم إنك بسبب جرمي
بت أشد فقراً من أيوب ، وهنا ينتهي شبك بهذا الرجل ، المشهور
بالصلاح والصبر .

والآن ، إصغ إلي ما أقوله لك واعرفني سمعك لألقي عليك نصائحها لأنها
كل ما ترثه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق باحد من الناس فليس بينهم من يسوى
قيمة الحبل الذي يجب ان يشنق به .
إذا رأيت رجلاً مشرفاً على الفرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض
في شأنك .

وإذا رأيت لصواً ينهبون رجلاً في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم
وسر في طريق آخر .
وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحشك عن الشر
الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعدني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

- نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

- فانياً ، يجب ان تكون شديد الحذر من النساء ، لان أشدهن دعة تهيج في قلبها البراكين ، وأرفقهن بك أنفذهن سهماً إلى قلبك .
واعلم يا بني ، ان النساء خلقت لنا رياحين ، فتمتع من شميم الرياح ما شئت .

ولكن إحرص على قلبك ولا تبعه لفانية ولا تقيد نفسك بالفراغ ، وإذا فعلت كنت سعيداً وعشت العيش الرغيد .

وكأنما هذه الوصية لم ترق لباردليان ، وهو يسمعها من شيخ تجاوز عهد الفراغ .

- سأعمل بوصيتك يا أبي جهد الامكان .

- إذا أسافر مطمئناً آمناً وسأبقي لك سيفي الطويل .

ثم نظر الى سيف طويل معلق على الجدار نظرة إعجاب فقام وانتزعه من موضعه وعلق حمائله في عنق ولده .

ثم قال له بلهجة ملك يقلد وسامه من ينعم عليه :

- كن قوياً على نفسك ، وعلى النساء ، وعلى الرجال . وهذا السيف الطويل النجاد خير عون لك ، فهو الصديق الذي لا يخدع ، والخليلة التي لا تخون ..

والآن أستودعك الله يا بني .

فصاح باردليان يستوقف أباه ويقول : أبتى .. قل لي اسم هذه المرأة التي أرجعت اليها ابنتها ، واسم هذا الرجل الذي كنت في خدمته .

فأجابه بلهجة خطيرة : لقد قلت لك ان هذا السر ليس لي .

ورأى باردليان انه لا فائدة من الالاح ، فاكتفى بتشجيع أبيه إلى خارج باب باريس . وهناك ودع الأب ولده وامتنطى جواده ، واندفع به يسابق الرياح .

وقد بكى باردليان ورجع إلى الفندق آسفاً حزينا وهو يعلم انه بات وحيداً في الوجود لا رفيق له إلا هذا الذي أخذه من أبيه .

بعد ذلك بأسبوعين كان باردليان يتنزه على ضفاف السين وعليه مظاهر الكآبة فرأى عصابة من الغلمان قد طوقوا عنق كلب بحبل وجعلوا يحرونه إلى جهة النهر بغية إغراقه .

فرق قلبه لنكبة الكلب وانقض على العصابة ففرقها وأنقذ الكلب وهو يقول : ان أبي أوصاني بعدم إنقاذ الفرقى من الناس لكنه لم يمنني عن إنقاذ الفرقى من الكلاب .

ولا حاجة الى القول ، ان الكلب تعلق بمنقذه ، وجعل يقفوا خطواته ، غير أن باردليان كان يصعب عليه في أيام المسر تغذية نفسه ، فحاول طرد الكلب .

ولكن هذا الكلب الأمين تفرغ على قدميه ، وجعل ينظر اليه بملء السلامة ، كأنه يبرهن له عن إخلاصه وامتنانه . فمال باردليان اليه وذهب به الى الفندق .

ولم يمض ثلاثة أشهر حتى عرف عيوب كلبه وحسناته ، ودعاه بيبو ، وعرف كل طباعه . فقد كان ذكياً كثير اللعب ، سارقاً ، خطافاً ، كذوباً .

ولا يسهل القراء من أننا وصفناه بالكذب ، فمن الثابت ان الكلاب تتكلم ولكن ليس من يفهم لغتها ، غير انه مع هذه الصفات كان شجاعاً مقداماً شديد الاخلاص ، فشغمت هذه المماسن بتلك العيوب ، ودعت باردليان إلى التعلق به .

وكان باردليان يقيم في ذلك الفندق مع أبيه في غرفة مظلمة تشرف على فناء الفندق ، ولم يكن يكثرث لعيوبها ، في عهد والده . ولما سافر وبقي وحده تجملت له مساوئها ، بحيث أنف الإقامة فيها وجعل يعمل

الفكرة لإبدالها .

وفيا هو يفكر حازت منه التفاقة إلى الباب ، ورأى باب الغرفة التي تقابل غرفته مفتوحاً . فدخل إليها ووجدها خالية ، وهي مفروشة أجمل فرش ، وفيها كل ما يحتاج إليه ، فقال في نفسه : هذه هي الغرفة التي أريد الإقامة فيها .

ثم فتح نافذتها فوجد أنها تشرف على شارع سانت دانيس .

فتأمل هنيئة جمال هذا الشارع وهم بالرجوع وإقفال النافذة ، فوقع نظره فجأة على منزل مقابل للفندق ورأى في أعلا نافذة من نوافذ هذا المنزل فتاة لم تر العيون أبدع منها فصاح صيحة دهش وإعجاب بلغت إلى مسامع الصبية فاحمر وجهها استحياء وأقفلت النافذة .

فوقف بارداليان في مكانه مندهلاً مفتوناً لذلك الجمال الفصاح لاسيما وان رأى تلك الفتاة مراراً تسير في ذلك الشارع ، ولكنه لم يعلم أنها تقيم في ذلك المنزل وان نافذة غرفة الفندق تشرف على منزلها وقد لبث واقفاً تأملاً في مهامة التصور والتفكير إلى ان أيقظه من غفلته صوت لاندري جريحوار صاحب الفندق .

كان لاندري هذا في حدائته ضعيف البنية هزيلاً ، فلما كبر وشب لم يزد طولاً ، بل زاد عرضاً وكثر سمته ، حتى بات عرضه مساوياً لطوله فأصبح شبه البرميل .

فلما رأى بارداليان في تلك الغرفة قال له : إني أبحث عنك يا سيدي الشفالييه منذ ساعة فلم أجده لانك لم تكن في غرفتك .

فجلس بارداليان على كرسي وقال : إني فيها قل ماتشاء .

فاضطرب لاندري ورد : كيف أنت فيها ؟

- لا أرى داعياً إلى العجب لقد راقت لي هذه الحجره فاستبدلت غرفتي

بها وسأبيت فيها الليلة .

فاصفر وجه صاحب الفندق ، ورد بصوت يتهدج من الغضب : إنك تختار ما تريده من غرف فندقي في حين اني كنت قادمًا اليك لاخبرك إني لا أستطيع قبولك في غرفتك القديمة .

وأجاب بملء البرود : إذا ، نحن متفقان ... إصنع بحجرتي القديمة ماتشاء .

وهاج ناثر لاندري ورد : إذا كنت أرفض ان أبقىك في غرفتك القديمة المظلمة فهل أذن لك بالإقامة في أجمل غرفة من غرف فندقي وهي تؤجر بمائة ريال على الأقل ..

لقد آن لي ان أتكلم يا سيدي الشفالييه ، إن أباك حين شرفني بالإقامة عندي وعد ان يدفع لي الاجرة بشكل منظم ، وقد مضى عامان دون ان يدفع شيئاً وهو ما لا يرضى به سواي .

- إن ذلك يشرفك يا لاندري .

- نعم ، ولكنه لا يعنيني . وقد طلبت إلى والدك بعد ما نفذ صبري ان يدفع لي ما عليه .

- وماذا أجاب ؟

- أجابني بالصفع والضرب .

- ألم يؤدبك هذا الجزاء ، فتعلم قحتك ، بطلب الاجرة من رجل شريف ؟

- نعم ، لكن لا بد لي ان أقول لك يا سيدي أن والدك كان يحمي فندقي ولا بدع احدًا يعتدي علي فيه ، وإذا عربد سكير عربدة تزعج الزبائن حملة والقاء إلى الشارع فلا يحسر ان يعود .

- إذا كان ذلك أنت المدين له كما أرى .

- كفى مزاحاً يا حضرة الشفالييه .

- كما تشاء ، قل ما تريد .

- أريد ان تغادر فندقى ، إلا إذا دفعت لى مؤخرات عامين عنك وعن والدك .

- أهذا آخر ما تقوله ؟

وتشجع صاحب الفندق بما رآه من لطف بارداليان وقال له : إن آخر كلمة أقولها أن تكون هذه الليلة آخر ليا ليالك عندي .

فخرج بارداليان بملء السكينة إلى غرفته ، فجاء بالمصا التي كانت بعدها والده لضرب صاحب الفندق حين يطالبه ، وعساد فانها لها على ظهر ذلك المنكود ، وهو يقوك : يجب على الابن المهذب أن يقتدي بوالده وقد كان والدي يضربك كما تقول ، فلا بد لولده ان يعمل عمله ، ومن أشبه والده فما ظلم .

وجعل بارداليان يضربه ضرباً موجماً ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث وأسرعت امرأته وفي أثرها الخدم والخادمت ، وهم مسلحون بأدوات المطبخ والمكانس ، وكلهم يصيحون بأصوات مختلفة . لان بعضهم توهم ان النار قد شبت في الفندق ، وبعضهم حسبوا ان اللصوص هاجموا فلم يكثر الجيران لهذا الصباح لانهم حسبوا انهم يقتلون احد الهيكنوت ، لان ذلك كان كثير الاتفاق

ولما رأى بارداليان ان الحجر قد غصت بالخدم ، عمد الى الحيلة ، فحمل صاحب الفندق ودنا من النافذة ، وأمسكه بيديه وجعل جسمه خارج النافذة .

ولما رأى صاحب الفندق هذا الخطر المهدق به ، ورأى ان بارداليان يتهدده بالموت إذا لم يأمر خدمه بالانصراف صاح بهم بصوت يختمنق من الخوف : أخرجوا جميعكم وإلا تركني فهوبت .

ولم يسع الخدم غير الامتثال ، وخرجوا جميعهم ، ولم يبق غير امرأة صاحب الفندق .

والغريب انها لم تكن بادية عليها علائم الخوف ، وهي ترى زوجها في أشد الاخطار

وأما لاندري فإنه جعل يستغيث ببارداليان ويقول له : رجعتك أرجعني إلى الحجر .

- أتعود بعد الآن إلى مثل تلك المطالب ؟

- كلا ! كلا !

- أيجق لى الإقامة في هذه الحجر ؟

- بل إن الفندق كله لك ... أرجعني إلى الحجر بحق الله ، لاني أكاد أموت .

وأعاد بارداليان ببطء ، والقاء على كرسي ، وقد وهنت عزائمه وكاد يفمى عليه .

فجعلت امرأته تنضح وجهه بالماء ثم نظرت إلى بارداليان بدلال ، وقالت له برفق : ماذا فعلت يا سيدي الشفالييه ؟ إنه لو سقط من يدك لمات في الحال .

- إن ذاك محال يا سيدي .

- كيف تقول محال ، ألا ترى هذا العلو الشاهق ؟

فابتسم بارداليان وقال : إنه يقع على بطنه يا سيدي فيشب . ألا ترى يشبه كرة الجلد المشوة هواء .

وبعد ان ثاب لاندري إلى رشده عقد مع بارداليان اتفاقاً خلاصته انه يجق له ان يقيم في تلك الغرفة الجميلة ويجق له ان يتناول طعام العشاء في الفندق على شرط ان يحميه .

وتعهد الشفالييه بحمايته ، وأقسم بشرفه . فعقد الصلح على ذلك وتم الاتفاق .

ولقد عرفنا الآن كيف ان بارداليان ، على فقره المدقع كان يقيم في أجمل

عرفة من اجل فنادق باريس .

وعرفنا كيف انه نال ذلك السيف الطويل من والده .

وكيف حصل على ذلك الكلب بعد ان فرق عنه الغلمان . وبقي علينا ان نعلم كيف فاز بذلك الجواد فنقول :

انه خرج ليلة من إحدى الخمارات ، وقد أفرط في الشراب ، مع احد أصحابه حتى بات يشبه السكارى ، أي انه كان يترنح بمشيته ، وحسامه الطويل يقرع بلاط الشارع ، فيخرج له نغمة يطرب لها قلبه ويندفع في الغناء بملء صوته .

وقد أخذ ينشد نشيداً غرامياً كان مشهوراً في ذلك العهد . فلما أتم الفقرة الأولى منه وقف وجعل يحدث نفسه فيقول :

أحق إنني أصبحت من العشاق فينطبق علي قول هذا الشاعر ...

كلا . إن ابي حذرتني من النساء . . ولا بد لي من الامتثال لوصاياه الصادقة .

لكنه لم يسر خطوتين حتى عاد إلى الغناء ، فأنشد الفقرة الثانية وفيها اوصاف الحسنة التي يتغزل فيها الشاعر .

فلما أتمها وقف وقفته الأولى

وقال كلاب إن شعرها حيات تطوق الاعناق وما رضاها غير السم النقيع واما عينها ...

أواه إنها اذكرتني تلك اللحظات ...

لكن ابي لا يريد ان اعشق فلأحذر النساء

وعاد إلى الغناء فلم يتم الفقرة الثالثة ، حتى سمع صوت رجل يستغيث

ويقول : الينا يا اهل النجدة !

فانقطع عن الغناء واصغى إلى الصوت فتكررت الاستغاثة وكان الصوت يشبه اصوات الشيوخ .

فقال بارديان في نفسه : ان الصوت صادر من شارع سانت انطوان ، ويجب علي ، حسب وصية والدي ، ان اذهب في الجهة المضادة اي ان اسير إلى الفندق .

وقد عول ان يعمل بهذه الوصية .

لكنه ما لبث ان سمع الصوت قد تكرر حتى جعل يعدو بخفة الغلمان الذين يقضون اوقاتهم في تسلق الاشجار .

وكان سريع العدو فلم تمر به هنيئة حتى وصل الى شارع سانت انطوان دون ان يريد ، لانه اندفع مع تيار الفطرة ، وكان يود ان لا يخل بحرف من وصية والده .

وهناك رأى رجلين يحيط بهما اثنا عشر رجلاً من قطاع الطرق .

كان كل من الرجلين ممتطياً جواداً ، وفي يد احدهما عنان جواد ثالث خلا من فارسه .

فكان قائد هذا الجواد شيخاً متشعماً بملابس تدل على انه من خدام البيوت العظيمة ، وهو الذي كان يصرخ ويستغيث فيقول قارة إلى النار ، وقارة إلى اللصوص

غير ان اولئك اللصوص لم يخشوا الاستغاثة ، كأنهم كانوا واثقين انه لا يحسر على إغاثة فريستهم احد ، فلم يبالوا بالشيخ وصراخه وانقضوا على الفارس الآخر .

اما ذلك الفارس فكان يدافع عن نفسه اجمل دفاع ، دون ان يفوه بكلمة ولقد اصاب اثنين من اولئك المهاجمين بجراح بالغة ، فانقلبوا على الارض

غير ان هذا الفارس على شدته ، وحسن دفاعه ، كان قد بدت عليه علائم الجوع ، لتكاثر الاعداء من حوله ، لانهم اجمعوا كلهم على مهاجمته مرة واحدة .

فنظر بارداليان نظرة النسر الى الموقف فأدرك حرج الفارس وصاح به :
تشدد واصبر لقد اتيت لنجدتك !

ثم انقض على اللصوص انقضاض الصاعقة وجعل يعمل فيهم الضرب الاليم
قبل ان يجرده حسامه المشهور ، كأنه لا يتداني إلى تجريده على اللصوص فكانوا
يرزحون تحت ضرباته .

ثم كأنه اراد ان يظهر لهم قوة بدنه الهائلة ، فهجم على اثنين
من اقربهم اليه ، وامسك عنق كل منهما باحدى يديه ، وضم كلا
منهما الى الآخر بعنف شديد ، فالتطم الانف بالانف ، وسالت الدماء وعلا
صياح الألم .

وبعدها القى بهما على اللصوص ، فسقطا على بعد خطوات وسقط معها
كل من اصاباه .

ثم وقف امام الفارس ، وجرده حسامه الطويل ، بحماسة ترتجف
لها القلوب .

ولا ندري أذعر اولئك اللصوص بما شاهدوا من قوة هذا الرجل أم عرفوا
انه بارداليان ولكنهم تراجعوا منذعرين وحملوا جرحاهم ، فلم تمر لحظة حتى لم
يبق منهم واحد .

وعندها برقت أمرة الفارس ببارق من السرور وقال لبارداليان : إنك
والحق يقال أنقذتني من الموت

- أتعلم يا سيدي ماذا صنعت ؟
- كيف لا أعلم إنك أنقذت حياتي كما ذكرت .
- كلا يا سيدي بل إنني ارتكبت جريمة .

فذهل الفارس لما سمعه وسأل : العلك تمزح ؟

- كلا ، لكفي خالفت وصية والدي ، وأخشى ان أصاب بنكبة بعد
هذا العصيان

- ولكنك في أي حال خدمتني أجل خدمة ، فإذا تريد ان يكون
جزاؤك ؟
- لا أريد شيئاً .

- إذا تفضل بقبول هذا الجواد على سبيل التذكار لهذه الحادثة ، وهو
خير جيادي بل هو أفضل جواد لأن اسمه يدل عليه .
- ما اسمه يا سيدي ؟
- كالور ، وهو اسم مغربي يراد به القوة .

فقال له بارداليان بلمهجة ملك يتفضل بقبول احترام أحد رعاياه : إنني أقبل
منك هذا الجواد .

ثم وثب عليه فامتطاه بخفة نادرة ، كأنه قد ربي فوق ظهور الصافنات .
أما الفارس المجهول ، فإنه أشار بيده إلى بارداليان إشارة وداع ،
وانصرف .

وسار خادمه ورائه على مسافة بضعة أمتار ، فدنا منه بارداليان وقال له
بصوت منخفض : أتريد ان تخبرني اسم هذا الفارس الذي عصيت من أجله وصية
والدي في هذه الليلة ؟

فانذهل الخادم وأجاب : دون شك .
- ما اسمه ؟

- هو هنري دي مونمورانسي مارشال دامفيل

وحده قاضييه متتدي ليلاس

بيت شارع باراس

فعاد بارداليان إلى الفندق بضيف جديد ، وقد وصل بعد أغلقت أبواب
الفندق . فلم يوقظ خادماً ولم يقرع باباً ، بل سار بجواده توأ إلى الاصطبل ،
فوضعه في أحسن مكان منه ووضع له العلف في المelf ، ووقف يتأمل محاسنه
ويفحصه فحصى العارفين بالجياذ .
وكان عجبه به شديداً ، وسروره لا يوصف ، لانه كان حقيقة كما وصفه
له هنري .

وفيما هو على ذلك سمع من ورائه صوت صاحب الفندق يقول : ماذا تعمل
هنا يا سيدي الشفالييه ؟
والتفت بارداليان اليه ، وقال له : إني أفحص مساغمته من جريمة
الليلة . . .

فارتعش لاندري وسأل : العمل هذا الجواد لك يا سيدي ؟

فوضع بارداليان حفنة من الشعير في المelf وقال : ألم أخبرك اني غنمته
هذه الليلة ؟

فقال صاحب الفندق وقد امتعض وجهه : أيجب علي ان أطعمه ؟

- إذا أتريد ان يموت مثل هذا الفرس الكريم جوعاً ؟

ثم نظر إلى جواده فتأكد انه لا يعوزه شيء وحيى لاندري مودعاً ودخل

إلى الفندق وصعد إلى غرفته .
أما لاندري فانه وضع رأسه بين يديه ، ثم تمكن منه اليأس فحاول أن
يلتف شعره .
لكنه لم يفز في ما أراد لانه كان أصلع ولا شعر في رأسه الذي كان
يلعب كالعلاج .

أما بارداليان فانه لم ير منذ ذلك اليوم إلا راكباً ، فكان يمتطي جواده
ويسير عليه معتزلاً به إعتزاز الملوك يتقدمه كلبه وأنفه مرتفع في الهواء يبحث
عما يأكله او يسرقه من باعة الطيور .
وأما هذا الجواد الكريم فانه لم يكن يتحول عن الجهة اليمنى من الطريق
مهما بذل بارداليان في سبيل رده . فكان الناس يضطرون حين مروره إلى المرور
من جهة الشمال إلا من اراد منهم ان يداس .

ومما يضاف إلى ذلك انه إذا بدرت بادرة انتقاد او تذمر من احد المارة فإن
سيف بارداليان كان يخرج من نفسه من الغم .
وعلى ذلك فقد القى بارداليان وحسامه وكلبه وجواده الرعب في
قلوب سكان ذلك الشارع المقيم فيه ، وإنما نريد أهل الوقاحة والعناد من
اولئك السكان .

وإن بارداليان ، على ما عرف القراء من صفاته ، كان والحق يقال
رقيق الحاشية لين الجانب ، شريف الغاية لا يندفع في خصام إلا بغية
الانتصار للضعيف .

واتفق له كثيراً انه كان يأتي بالفقير المتسول في قارعة الطريق فيجلسه
أمامه على المائدة ويقسم معه طعامه .

وفي مثل هذه الحوادث كان يدفع ثمن الطعام لصاحب الفندق وأما إذا كان
وحده فلا يدفع شيئاً .

وقد اتفق مرة ان صاحب الفندق كان محتاجاً اليه ، فلما أراد دفع ثمن

طعام الفقير الذي جاء به أبي صاحب الفندق قبض الثمن ، فاستاء بارداليان وقال ألمحسب أنك من عظماء الأسياد ، وهب أنك الدوق دي كينز أو أنك الملك نفسه ، إني لا أسمع لك ان تتجاسر وتدفع ثمن ما يأكله ضيفي ، لأن ذلك وقاحة منك .

وحدث مرة انه جاء إلى الفندق مستمجلاً فدخل إلى المطبخ وأخذ دجاجة مقلية ورغيفاً وزجاجة خمر ثم دفع ريالاً وانصرف .

فمجب الطبايح لأمره واقتفى أثره فراه دخل إلى كوخ حقير كان فيه ثلاثة من الفقراء فوضع الطعام بين أيديهم وحيامهم بقبعته وانصرف دون ان يفوه بحرف .

غير انه بعد خروجه من الكوخ قال : هوذا إني خالفت وصية والدي مرة ثانية باحساني إلى الناس ، ولا أعلم ما يعد الله لي من العقاب في الآخرة .

على انه كان يشمر بضجر شديد حين تمر به أيام لا تحدث له فيها حوادث مؤثرة . فكان يسير في الشارع وعيناه شاخصتان إلى منزل حنة حتى إذا رأى لويزا زال ما كان يشمر به من الضجر ، وفرح قلبه برؤية وجهها الجميل كما كان يقول .

وقد تعودت الصبية تباعاً على نظراته فلم تمد تقفل النافذة بسرعة حين تراه ، بل جعلت تنظر اليه مثل نظراته .

وقد وقف الأمر بها عند هذا الحد ، لأن لويزا لم تكن تعرف شيئاً من أمره ، وهو لا يعرف منها إلا انها ابنة تلك السيدة التي لا تخلع الملابس السوداء حتى لقبت بها ، وكان يعرف عن الأم وابنتها انها تترقبان من صناعة التطريز .

وفي ذات يوم كان بارداليان ينظف ملابسه وعدته في غرفته وكان من عادة امرأة لاندري ان تقضي عنه هذه المهمة ، لكن هذه المرأة الجميلة باغتته يوماً

وهو ينظر إلى لويزا نظرات الهائمين فعادت إلى المطبخ وانقطعت منذ ذلك اليوم عن تنظيف عدته .
وكان بارداليان يشتغل بتنظيف عدته وملابسه بملء الاستياء ، لكن لم يجد بدأ من ذلك كي يروق في عيني لويزا .

وكان يقول في نفسه إني إذا لم أجد وسيلة أستطيع ان اقتدي برجال البلاط في ما يلبسون فلا رجاء لي ان تحبني . وكيف اطمع بحبها وهذا الثوب لم استبدله منذ أربعة اعوام .
وعلى الجملة لقد كان بارداليان كثير السلامة والبساطة .

ولما أتم تنظيف ملابسه وسيفه ، لبسها وخرج من الفندق وهو عازم على ان يبذل كل ما عز وهان ، في سبيل الحصول على تلك الملابس التي كان يحلم بها .

لكن قبل ان يخرج من الفندق أطل من النافذة ، فرأى حنة خارجة من المنزل وذاهبة إلى شارع سانت انطوان ، وفي الوقت نفسه برزت له لويزا من تلك النافذة كما يبرز القمر من خلال الغيوم ، فأرسل لها تلك القبلة بيده كما تقدم لنا ذكره .

أما لويزا فقد أحمر وجهها استحياء لكنها مع ذلك لبثت هنيئة في موقفها ثم توارت ببطء عن انظاره وابتعدت عن النافذة .
وأما بارداليان فقد خفق قلبه خفوقاً شديداً حتى شعر انه يكاد يخرج من صدره فقال في نفسه : أحقيقة ما رأيته ام خيال ؟

إنها لم تستاء لجرأتي ، ولم تقفل النافذة . وكل ذلك يحمل على الرجاء انها تحبني ، بالرغم عن حقارة ملابسي . إذا لم يبق لي بد من مخابرة امها في الحال .

ولو اتفق لغيره من السفهاء ما اتفق له لما خطر في باله ان يسرع إلى مخابرة امها ، بل كان اول ما يخطر في باله ان يفتنم فرصة غياب الام ليذهب

وينظر على قدمي الفتاة .

على ان باردليان خرج من غرفته راكضاً ، ونزل درجات السلم اربعا اربعا .

واسرع حتى ادرك حنة وهي تنقل من شارع سانت دينيس إلى شارع سانت انطوان في جهة الباستيل .

وكان قد اندفع في اثرها دون ترو ، فلما وصل اليها لم يحسر ان يكلمها ، فجعل يتفقد اثرها على مسافة قريبة ، حتى وصلت إلى شارع باريس ووقفت عند باب منزل فيه .

وكان هذا المنزل صغيراً ولكنه كان حسن الرواء تحيط به الحدائق الجميلة الناضرة فرآها باردليان طرقت ذلك الباب وفتح لها فدخلت .

فوقف بقرب ذلك المنزل وهو يقول في نفسه : إنها ستخرج منه عائدة إلى منزلها فأكلها إذ لا بد لي من محادثتها .

اما حنة فقد صعدت بها خادمة إلى الدور الأعلى من المنزل وادخلتها إلى غرفة مفروشة بأجمل الأثاث .

وكان في هذه الغرفة فتى جالساً بجانب صبية يحادثها فلما رأت الصبية حنة داخله ابتسمت لها .

وقال لها الشاب : ارسمت ما اوصيتك برسمه ؟

فقالت حنة : نعم يا سيدي وهذا هو الرسم .

فسألته الصبية : ما هذا الرسم ؟

فأخذه من يد حنة وعرضه على الفتاة قائلاً : انظري اليه يا ماري عله يروق لك فقد رسمته بيدي .

ونظرت اليه ماري وقالت : كيف لا يعجبني يا شارل ، وانت الذي رسمته .

ثم اخذت تفحص ذلك الرسم الجميل ، وكلما نظرت إلى زهرة ظهرت

عليها علائم السرور والاعجاب ، حتى إذا انتهت من فحصه انطرحت بين ذراعيه وهي تقول انك جعلتني أسعد النساء يا حبيبي شارل فضمها إلى صدره بحنو لا يوصف .

وكانت حنة واقفة تنظر اليهما وتقول في نفسها :

ما أسعد هذين العاشقين ، وأسفاه أما كان يجب أن اكون كذلك مع من أحب ؟

أما شارل فإنه لم يكن يخطر في باله وجود حنة في ذلك المكان ، وقد سكر بنظرات ماري .

فقال لها : نعم أيتها الحبيبة ، اني لا أفكر إلا بك من قلب اللوفر ، فاني بينا أمي تحسب اني منهمك في إباداة الهوكينوت ، وبينما أخي الدوق دي أنجو يحسب اني أفكر بأنجع الوسائل لقتله ، وبينما الدوق دي كيز يحدق في عيني ليقراً ما كتب له في لوح المقدور ...

بينما جميع هؤلاء يفتكرون بما أنا براء منه ، أفكر أنا بأني أحبك ، وحدك ، لأنني لا أجد غير ماري توشيت ، من تحبني حباً صادقاً في هذا الوجود .

وكانت ماري تسمع كلام من تحب وقد سكرت ايضاً باخلاصه الصحيح وحبه الأكيد ..

فقالت له : أشكرك ، يا صاحب الجلالة ، فقد جعلتني أسعد من ربات العروش .

فارتعشت حنة حين سمعتها وقالت في نفسها : شارل .. صاحب الجلالة .. ملك فرنسا .

ثم اهتزت اهتزازاً عنيفاً حين رأت نفسها واقفة بحضور شارل التاسع ، الذي طالما خطر لها أن تذهب اليه وتسأله العدل ، ليس من أجلها ، بل من أجل ابنتها .

وعند ذلك تقدمت خطوة كأنها تريد أن تبدأ الشكوى .
غير أن الملك لم يدع لها مجالاً فإنه أبعد عنه حبيبته برفق .

وقال لها : دعي الجلالة والألقاب ، يا ماري ، فما أنا هنا غير محبك
شارل الطاهر القلب ، لأنني لم أسمع هذا الوصف إلا من فمك الجميل وهو لي
أعظم سلوى .
ما أنا بملك أيتها الحبيبة ، وما أنا إلا رجل منكود تكرهه أمه ، ويغضبه
اخوانه ...

اني لا أجسر أن أأكل في اللوفر وأخاف أن اتنشق الهواء الذي يهب
عليه ، فلا أجسر على مناولة الطعام والشراب ، إلا عندك أيتها الحبيبة ،
ومن يدك ..

بل اني لا أجسر على استنشاق الهواء بلء رثي إلا حين أكون بقربك ،
فأنظري إلى قلبي ، كيف يخفق خفوق أجنحة الطائر ، حين افنكر
بهؤلاء الناس .

فخافت عليه ماري عاقبة التأثير فقالت له : كفى يا شارل ...
سكن روعك ..

ولكن الملك اندفع في تأثره فاتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، واضطربت
أعصابه . فقال لها :

- لقد طالما قلت لك إنهم يريدون موتي .. ماري انقذيني .. خبيثي
عندك .. اني قرأت بين عيونهم سور الموت ، ورأيت الحكم بقتلي مكتوباً في
ضمايرهم بحروف من نار

فاضطربت ماري لما رأته من اندفاعه وقالت له :

بالله يا شارل كفى واشفق على نفسك فإن النوبة العصبية عائدة اليك ..
انك عندي الآن .. انك بقرب ماري .

فدفع الملك ماري عنه وقد فاجأته النوبة وكانت هائلة فإنه قبض بأحدى

يديه على الكرسي وضغط عليها حتى كاد يسحقها .

وسال العرق البارد من وجهه وجحظت عيناه والتهبتا فجعل ينظر بهما إلى
اشخاص تمثلهم له النوبة ، ثم ضحك ضحكاً عالياً وقال :

ويح لأولئك الأشقياء انهم يبحثون عن طريقة لقتلي وينظرون في من يخلفني
على العرش .

أهو أنت يا دي كيز الجهنمي ، ام أنت يا انجو وبابيران :

ويح للقتلة السفاكين انهم جميعهم يتآمرون علي ..

ومن هؤلاء الذين يتقدمون إلي في جنح الظلام ، ومن هذا الذي يتولى
زعامتهم ، أهو كوليسي ؟

يا ويحك سترون عاقبة غرورك .. إلي ايها الجيوش .. اقبضوا على جميع
هؤلاء اللصوص واذبحوهم أمامي ذبح الأغنام ..

رباه انهم يقتلونني .. إلي إلي . النجدة النجدة .

وقد ختم هذا القول بضحك عصبي ترتجف له القلوب ثم انطرح بين ذراعي
ماري وقد استفحل أمر النوبة ولم يعد يعي على شيء .

فاسرعت حنة لمساعدة ماري .

فقال لها ماري : استحلفك بالله يا سيدتي ان لا تذكرى كلمة مما رأيته
وسمعته رحمة بهذا الملك المنكود .

- اطمأني يا سيدتي فاني اعرف مصائب البشر حق العرفان وان المصائب
لا تأنف من البلوغ الى اصحاب التيجان . فاطمأني يا سيدتي واعلمي ان مثل
هذه المصائب علمتني الكتمان .

فشكرتها ماري الطاف شكر .

فقال لها حنة ، ألا تريدان يا سيدتي أن اعينك في شيء ؟

فشكرتها أيضاً وقالت : لا حاجة إلى ذلك فإنه سيصحو من نفسه ولا

يسكن روعه غير وجوده بين ذراعي كما تربته .

— إذا يجب أن اذهب قبل أن يستفيق كي لا يعلم انه ارتكب ما ارتكبه من الضعف امام شاهد .

فشكرتها ما ربي أجمل شكر ، وودعتها حنة وخرجت واليأس ملء قلبها فانها ضعت خير فرصة تتمكن فيها من عرض شكيتها على الملك .

ولم تكذب تبرح ذلك المنزل ، حتى فتح شارل التاسع عينيه فمسح وجهه بيده ، ونظر نظراً مضطرباً إلى ما حوله ، فلما رأى ماري اطمأن وابتسم ابتسامة حزن .

قال : لا تزال النوبة تعاودني حتى تذهب بحياتي .

— اطمئن أيها الحبيب فقد زالت اعراضها أتم الزوال وهي أخف مما كانت عليه في المرة السابقة .

— لقد كان يوجد هنا امرأة وهي عاملة التطريز ، فإين هي ؟

— انها انصرفت منذ حين .

— أذهبت قبل النوبة .

— نعم ، ولم ترى شيئاً مما حدث ، فاستند علي أيها الحبيب واشرب جرعة من هذا الأكسير فانه يقويك .

ثم جلست وأجلسته بقربها فكان يطيعها كالطفل .

وبعد أن سقته الدواء ، وضعت رأسه على صدرها ، فساد السكوت في ذلك المنزل ، لأن ملك فرنسا كان قد انهكه التعب ، فنام متكئاً على صدر من يحب ، وهو مطمئن واثق ان هذا الملاك يحميه مدة رقادته من كيد الأعداء .

* * *

ولا بد لنا قبل ختام هذا الفصل من وصف الملك ومعشوقته في ذلك الحين فقد كان الملك متوسط القامة نحيل الجسم يبدو الاصفرار على وجهه وتدل عيناه على الاضطراب .

وهو يبسم عادة ابتسامات تدل على الشر ، ولكنه حين كان يبسم لماري كانت تظهر عليه دلائل الاخلاص الأكيد .

وعلى الجملة فإن هيئته كانت تدل على انه مصاب بمرض عصبي عضال ، فانه كان يضحك أحياناً دون سبب ضحكاً هائلاً يحمل على الاشفاق وهو لم يتجاوز بعد العشرين من العمر .

أما المرأة فقد كانت تزيد بثلاثة او أربعة أعوام ، وهي شقراء الشعر زرقاء العينين جميلة ، ولكن جمالها عادي لا يدعو الى الاعجاب ، غير أن عينيهما كانتا تدلان على حنو عجيب ، إذا نظرت بهما إلى الملك سحرتة . وعلى الجملة فإن كل ما فيها يدل على الحنو والخلوص .

وهذا الذي حمل الملك على التفاني في غرامها والركون اليها ، حتى باتت مستودع أسرارها ، وبات منزلها مأواه الذي يلجأ اليه حين يريد الأكل أو الشرب أو النوم ، فانه كان يخشى مكائد أهله في كل حين ولا يحسر أن يتبلغ في اللوفر بقوت .

وحده
فأضديه
متتدي
ليلاس

صوت الشعب صوت الله

أما بارداليان فإنه كان لا يزال واقفاً خارج المنزل ينتظر أن تعود حنة فيكلمها ، إذ عزم كل العزم على محادثتها ، ولكن ماذا يقول لها ؟

أيقول لها انه يحب ابنتها وانه يريد أن يتزوجها ، ربما كان هذا مراده ، فهو نفسه لم يكن يعلم ما يجب أن يقول ولكن أقصى أمانيه أن يتقرب من الفتاة وأمها

وقد كان أعد الخطاب الذي أراد أن يلقيه عليها ، فلما رآها خرجت من المنزل ، وتقدمت الى الجهة التي كانت فيها اضطرب قلبه وتلجلج لسانه . فلما مرت به نسي بدء ذلك الخطاب الجميل الذي كان أعده ، ووقف وقوف البله ، ولم يحسر على أن يقول كلمة ، واكتفى بأن رفع قبعته وحينئذ بله الاحترام .

وبعد أن سارت أمامه وثاب اليه رشده ، ذكر الفقرة الأولى التي كان نسيها من خطابه ، فجد في أثرها وهو يرجو ان يتوفق إلى محادثتها في شارع سانت ديسنيس .

ولم يخطر لهذا الساذج الفطرة ان خير وسيلة في مثل هذه المواقف أن يزور الأم في منزلها ، ويخبرها بما يريد ، فإن البنات لا يخطبون في الشوارع ، ولكن ذلك لم يخطر في باله ، وقد ارتأى ان يكلمها فوجد رأيه

لباب الصواب .

ولبت سائراً في أثرها ، وهو على قيد عشرين خطوة منها إلى أن وصل إلى شارع سانت أنطوان ، فرأى ان باريس قد تغيرت واضطربت كما يضطرب البحر حين العاصفة .

وقد رأى الناس أفواجاً مختلطين يزحم بعضهم بعضاً وهم سائرون الى اللوفر وقد غصت بهم الطريق حتى لم يبق سبيل للمرور . فقال بارداليان في نفسه : ما عسى أن يكون قد حدث ؟ وشغل بمراقبة الناس .

ثم التفت فوجد ان حنة قد قوارت عن أنظاره ولم يبق سبيل إلى ادراكها لكثرة الزحام ، فسار مع الشعب السائر وهو لا يعلم أين يسير ، فكان كالخشب العائمة تندفع مع التيار .

وكان يرى أمامه ثلاثة رجال ضخام الأجسام يسرون متعاقدي الأيدي في طليعة الناس ، ولهم رقاب كرقاب الثيران ، وعيون يكاد يقطر منها الدم ، فكان الناس يسرون في أثرهم ويصيحون : ليحيى كرفيه .. ليحيى ليزو .. ليحيى كيرسي !

فسأل بارداليان رجلاً بقربه : من هم هؤلاء الأفيال ؟

فنظر الرجل نظرة إزدراء إلى بارداليان ولكنه ما لبث ان رأى سيفه الطويل حتى لطف لهجته وأجاب : كيف يا سيدي ألا تعرف كيرسي الجوهري وبيزو الجزار وكرفيه الكتي ؟

أرجو يا سيدي ان تعذرني فلاني قادم من الريف ، فهل هم هؤلاء الثلاثة الذين يتفون لهم ..

نعم ، وهم أصعباب الدوق دي كيز

إن صداقتهم شرف عظيم لسيدي الدوق

دون شك فإنهم المدافعون عن الديانة المقدسة

أجابه بارداليان ببرود قائلاً : أية ديانة تعني يا سيدي ؟

- ديانتنا ... أي ديانة البابا والملكة ، والدوق دي كيز ، بل ديانة الشعب ..

- إذا كانت ديانة جميع الناس ، فهي ديانتي أيضاً ، فماذا تريد هذه الديانة ؟

- إصغ تعلم ما تريد ...

وكان بارداليان قد وصل في هذا الحين إلى الجسر الخشي ، وهناك اشتد الزحام ، وزاد تجمع الناس ، وكثر الهتاف للدوق دي كيز ، وجعل الجميع يصيحون بصوت واحد : ليتم الهوكينوت . ليتم البروتستانت !

فقال له الرجل : أسمع ما يصيح به الشعب ؟ ان صوت الشعب يا سيدي صوت الله ..

- إذا .. هو الله الذي يصيح الآن ليتم البروتستانت ؟

- بلا ريب ، فهو الذي أوحى إلى الدوق دي كيز ان يهيج الشعب على هذه الطائفة المبتدعة .

وقد قدم اليوم هذا الدوق العظيم إلى باريس وسيمر بهذا المكان حين ذهابه إلى اللوفر ، فليحى الدوق دي كيز ، ولتتم ملكة نافار !

وعند ذلك دخل كثير من الناس بين بارداليان ومحدثه واصطفت الجماهير على جانبي الطريق لقرب وصول الدوق .

وكان بارداليان واقفاً عند مدخل الجسر وعلى يساره منزل قديم متداع إلى السقوط ، يظهر انه مهجوراً ، لأن جميع نوافذه كانت مقفلة في حين ان نوافذ البيوت المجاورة وسقوفها كانت غاصة بالناس .

وكان مقابله هذا المنزل الخرب منزل أقفلت نوافذه أيضاً ما خلا نافذة كانت مفتوحة ، فرأى من خلالها وجه امرأة كانت عيناها ترسلان نظرات نارية إلى تلك الجماهير التي كانت تصيح ليتم البروتستانت .

ولم يكن في ذلك العهد ، أحد من اهل تلك الطائفة في باريس ، وإذا اتفق وجود أحد منهم ، فقد كان محتبئاً دون شك ، وفوق ذلك فإن معاهدة الصلح متى أمضيت في سانت جرمن كانت تضمن الراحة والأمن في العاصمة .

إذاً لا بد أن يكون لهذا التجمهر سبب غير الهياج على الهوكينوت ، ولا بد للدافعين اليه مأرب آخر .

وقد رأى بارداليان ان الجزار والجوهري والكتبي ، جعلوا يمررون بالمصابات المجتمعة ويسرون اليهم كلاماً خاصاً ، فجعلوا يصيحون لتمت ملكة النافار .. لتلقى في المياه .

اما اولئك الزعماء الثلاثة ، فإنهم وقفوا في الجهة اليسرى من الجسر قرب بارداليان .

فقال بارداليان في نفسه : يظهر ان هذا اليوم يوم الغرائب .

وفيا هو ينظر الى الزعماء الثلاثة وهو معجب بتحمسهم رأى احدهم وهو ينظر إلى تلك النافذة التي خيل لبارداليان انه رأى منها وجه امرأة ، فرأى رجلاً محتبئاً وراء النافذة تبودلت إشارة سرية سريعة بينه وبين الزعيم ، ثم توارى عن الأنظار .

* * *

ولندخل الآن إلى ذلك المنزل لنعلم من كان فيه . فقد كان في تلك الغرفة المطلة على الشارع امرأة هزيلة متشحة بملابس السواد ، لها انف كأنف العقاب وشفتان متلاصقتان ، ونظرات نافذة كنظرات النسروهي جالسة على كرسي كبير .

وهذه المرأة هي كاترين دي مديس ، ارملة هنري الثاني ، ووالدة

شارل التاسع .

وكان بالقرب منها رجل لا يزال من اهل الشباب ، وهو وافر الجمال ، وهذا الرجل يدعى ريجياري الفلكي .

وقد كان واقفاً بقربها من غير كلفة كأنهما صديقان ، إذ لم يكن يبدي لها شيئاً من واجبات الاحترام التي تعودها الملوك من الرعية .

فضربت كاترين الأرض برجلها وقد ظهرت عليها علائم الجزع .

فابتسم لها ريجياري وقال لها :

- صبراً ايها العزيزة .

- أنت واثق انها في باريس ؟

- كل الثقة ، فإن ملكة النافار جاءت امس ودخلت سرأ الى باريس ،

وهي لا بد قادمة لشأن خطير .

- ولكن كيف عرفت ذلك ؟

- من الجاسوسة التي عينها في خدمتها .

- اليس دي ليكس ؟

- هي بعينها ، وهي والحق يقال من اذكي الجواسيس .

- أنت واثق ان ملكة النافار ستمر بهذا الجسر ؟

... دون شك ، ولولا ذلك لما استنجدت بالكتبي والجزار والجوهري ،

اتظنين اني فعلت ذلك ليهتف الشعب للدوق دي كيز ؟ صبراً يا كاترين

سوف ترين ..

فضمت كاترين يديها وقالت :

... ان كرهى لهذه المرأة لا يقف عند حد ..

إن الدوق دي كيز لا ابالي به فهو في قبضة يدي أعبت به كما اشاء

وحين اشاء ، اما ملكة النافار فهي العدو اللدود الشديد فإذا ظفرت بها

خنقتها بيدي .

- لا تغمسي ايها الحبيبة يدك الجميلة بالدم ، ودعي هذه المهمة للشعب ،

فهو سيتولى قضاها عنك .

قسماً بزحل والمريخ ان المشهد سيكون فخيماً يستحق عناء الفرجة .

وعند ذلك سمعا ضجيج الشعب فدننت كاترين مع الفلكي من النافذة وجعلت

تنظر وقد اصططكت اسنانها واتقدت عينها بلمهب الانتقام .

وبعد ان تطلعت قالت

- اني لا اري غير هنري دي كيز .

- انظري هناك في آخر الجسر الا ترين مركبة قادمة يخفها الحراس ؟

- نعم ، نعم ..

- إن هذه المركبة لم تعد تستطيع الرجوع فقد طوقها الشعب .

اصبري هنيهة إلى ان تصل ، وسترين ان كيرمي يعرف لأول نظرة

ملكة النافار .

وكان هنري دي كيز يسير فوق الجسر ومعه نحو ثلاثين فارساً ، وهو

يحيي الهاقنين له باليد والابتسام فيعيدون الهتاف قائلين : لتحيى الكنيسة

وليسقط البروتستانت !

وكان مشهد هؤلاء الفرسان فخيماً ، فإنهم كانوا ممتطين افخر الجياد .

والحجارة الكريمة تلمع ، وتزيدها اشعة الشمس بريقاً فوق ثيابهم

الحريرية ..

ولكن هيئة رئيسهم هنري كان اشد فخامة ، فقد كان في العشرين من

عمره ، وهو عالي القامة ، قوي البنية شديد الانفة والكبرياء ، وقد اتشح

بوشاح من الحرير الأزرق وبرقت اللآلئ والجواهر على قبعته فانمكست اشعتها

على ملابسه الزرقاء ، فكان الناس يصيحون حين يمر بهم : ليحيى

الدوق كيز !

والملكة تنظر اليه وتضم قبضتها بعنف ، حتى تكاد تدخل اظافرهما

في جلدها من الحقد .

كل ذلك يجري ومملك فرنسا نائم في منزل خليلته ماري توشيت لا يعلم شيئاً مما تكبده امه ، ومما يعمله الدوق دي كيز .

أما الدوق دي كيز فقد اجتاز الجسر مع حراسه ، فلما بلغوا إلى آخره اضطروا إلى الوقوف لكثرة الزحام .

وعند ذلك كثر الصياح من ورائهم ، وكان صياحاً خفيفاً حتى خشى الدوق على نفسه فوضع يده على قبضة خنجره .

ولكنه أيقن انهم لا يريدون به شراً .

وبدأ عندئذ ذلك الحادث الرهيب ، الذي كان يراه الدوق وام الملك وصديقها الفلكي .

وهو أن مركبة كانت تسير على ذلك الجسر فبلغت المنزل القديم الذي كان واقفاً بالقرب منه الزعماء الثلاثة وبارداليان .

وكانت المركبة بسيطة الظاهر ونوافذها محكمة الاقفال .

فلما وصلت إلى ذلك المنزل فتحت نافذة المركبة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ، فهاج الزعماء هياج الضواري وصاحوا قائلين : هوذا

حنة دي البريت ملكة النافار !

ليمت البروتستانت ، لمت ملكة النافار !

فهجم الشعب هجمة واحدة على المركبة فقلبوها وصاحوا قائلين : اطرحوا عدوة الدين في النهر ..

لتمت ملكة النافار !

وقبل ان تسقط المركبة وثبت منها امرأتان إلى الأرض ، فقالت احداهما وهي الأصغر سناً : رحماك اشفقوا على جلالتها .

ولكن هيأتها لم تكن تدل على انها خائفة من هذا الموقف الخطر فأشار الزعماء الثلاثة إلى الملكة وقالوا : هذه هي . هذه هي !

أما الملكة فإنها وضعت برقعها على وجهها بلاء الجلال ومشت إلى ذلك البيت الحرب كأنما قوة خفية تدفعها اليه . فارتفعت الأصوات حتى طبقت عنان الفضاء ومدت الأيدي إلى الملكة ، فلو أدركتها لمزقتها .

وفي ذلك الحين كانت كاترين أم الملك والفلسفي في النافذة ، والدوق دي كيز فوق جواده ينظرون إلى هذا الحادث الهائل ، وهو هجوم الف رجل على امرأة هجوم الوحوش المفترسة .

ولكن تلك الأيدي لم تصل إلى الملكة فإن رجلاً اخترق هذه الجموع وجعل يفرقهم بيديه ورجليه ورأسه وكوعيه ، كأنه القضاء المنزل ، فلا يسمع من حوله غير التأم ، ولم تمر هنيئة حتى تمكن من جعل فسحة خالية بين باب المنزل الذي كانت المرأتان واقفتين عنده ، وبين جمهور الناظرين وزعمائهم الثلاثة .

وعند ذلك جرد حسامه الطويل وجعل يفتك به اولئك المتحمسين فيعودون عنه والذعر ملء قلوبهم ، ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الهجوم ويعودون إلى ما كان عليه من القتل .

أما كاترين فإنها أعجبت بهذا الباسل ، بقدر ما خافت منه على نجاة ملكة النافار ، فقالت للفلسفي : يجب إما أن يكون هذا الفتى لي أو يموت . فأجابها الفلكي : لقد خطر لي ما خطر لك فاني لم أجد أشد منه إقداماً ولا أنفذ حساماً إلى القلوب .

وقال الدوق دي كيز لأحد أخصائه : يجب أن أعرف هذا الرجل الذي ينقض انقضاض الصاعقة ولا يحفل بالموت .

أما هذا الباسل الذي أرادت أم الملك أن يكون من رجالها ، وهذا البطل الذي أراد أن يعرفه الدوق دي كيز ، فقد كان الشفالييه بارداليان .

وكان باردليان حين رأى الزعماء ورجالهم هجموا على المركبة ورأى ان
فيها امرأتين حاول الهجوم .

فتعلق به ذلك الرجل الذي كان يحدثه وقال له دعهم يفعلوا واذكر
ما قلته لك وهو ان صوت الشعب من صوت الله .

فدفعه باردليان فانقلب الرجل يهوي الى الأرض وهو يقول : ما هذا
بشراً ، إن هذا إلا شيطان رجم .

- ١٤ -

ملكة نافار

فلم تمر نصف دقيقة حتى كانت الجماهير محدقة بباردليان تنذر وتتوعد وهو
لا يفوه بكلمة بل ينيب عنه حسامه الطويل بالجواب .

على أن ذلك لا يمكن أن يكون ، فإن أولئك المتحمسين كانوا يعدون
بالمئات وهو واحد فرد فأيقن أنهم سيسحقونه سحق الزجاج في أقرب حين .

وعند ذلك ضرب بحسامه أحد الهاجمين عليه ضربة أوقعت الرعب في
قلوب سواه والتفت إلى المرأتين فقال لهما : تأمبا .

ثم هجم على باب المنزل الحطب ورفسه برجله رفسة قوضت أركانه ، ولكنه
لم يفتح .

فعلم الهاجمون غرضه وهجم عليه نحو خمسة منهم ، فلم تكن إلا لحظة حتى
سقط اثنان يتخضبان بدمهما فشغل بهما الآخرون .

وعاد باردليان إلى الباب فرفسه برجله أيضاً رفسة شديدة فانكسر وفتح .
فقالت الملكة لرفيقتها تعالي معي يا اليس ، ثم ولجنا ذلك الباب
وتبعهما باردليان .

أما الشعب فلما رأى أن فريسته قد هربت منه ، زار زئير الضواري
ودوت أصواته في الفضاء دوي الرعود حتى اهتز المنزل الحطب ، وأوشك
أن يتهدم واختفى الزعماء الثلاثة بين الناس الشائرين فكانوا يشبهون الجيش
حين هجومه .

حتى إذا وصلوا إلى ذلك الباب وبعضهم يسير فوق بعض ، رأوه قد أقفل
من الداخل فوقفوا عنده كأنهم يتشاورون فيما يجب أن يصنعوه .

وذلك انه بعد أن دخلت الملكة ، ووصيفتها إلى ذلك المنزل جعل باردليان
يضرب بحسامه يمنة ويسرة كيفما اتفق ، وكل ضربة يخمر لها صريع أو يارت
لها جريح حتى إذا رأى القوم قد دعروا منه وارتدوا عنه وثب إلى المنزل
ورفع الباب الساقط ، فرده إلى موضعه وجعل ينظر إلى ما حواليه نظرات
تتأجج ناراً .

وكان هذا المنزل منزل نجار وفيه كثير من الألواح الغليظة ، فأخذ منها
خمس ألواح ودعم بها الباب بحيث أمن اغتصابه إلى حين .

وكان أول كلمة قالتها الملكة انها سألته : من أية ملة أنت يا سيدي ؟
- أن مذهبي الان يا سيدتي أن اصون حياتك من الخطر .

فنظرت اليه الملكة نظرة اعجاب يستحقها ، فقد كان ممزق الملابس دامي
اليدين والوجه ، وهو لا ينفك عن الابتسام فكان في تلك اللحظة جميلاً يشرق
وجهه بنور البشر على ما هو فيه من الخطر ، وتبدو بين عينيه علائم الجراحة
النادرة فتزيد جمالاً .

ثم قالت له الملكة : انه إذا كان قد قضي علينا بالموت فاريد قبل موتي أن
اشكرك وأقول لك اني في ساعة موتي لقيت أعظم بطل نبيل لا يدانيه أحد

من الذين عرفتهم من الابطال

فقال لها باردليان : اننا لم نمت بعد يا سيدتي ، ولا يزال لدينا ثلاثة دقائق
فان المهاجمين لا يكسرون الباب ولا يصلون الينا قبل هذا الزمن ، فاصبري
يا سيدتي علنا ننجو .

ثم فحص السكان الذي هم فيه بنظرة فراه قاعة متسعة فيها كل آلات
النجارة ، وقد اسند سقف هذه القاعة على ثلاثة اعمدة من الخشب .
وهذه الاعمدة تخرق أرض القاعة وتنفذ منها إلى الاقبية .

فمشى باردليان في تلك القاعة مسرعاً فاحصاً ، فوجد في آخرها منفذاً إلى
القبو الكائن تحتها .

وعند ذلك نادى المرأتين فاسرعتا اليه فقال لهما : انزلا إلى القبو
فقالت له الملكة : وأنت ؟

— بالله يا سيدتي امتثلي ولا تسأليني الان شيئاً ، فان الموقف حرج
والمقام ضيق .

فامتثلت الملكة ونزلت على سلم القبو تتبعها وصيفتها ، وفحصت ذلك
القبو الكائن تحت القاعة ، فسمعت هدير الأمواج وعلمت ان هذا المنزل مبني
على أوتاد قائمة في الماء .

فاستبشرت وجعلت تبحث عن المنفذ المؤدي إلى النهر وهي تسمع فوق
رأسها أصواتاً انسانية تشبه قصف الرعود ولا تفهم منها غير كلمة الموت .

ولم يكن قد مضى على دخولها إلى المنزل اكثر من دقيقة فأصغت كي تعلم من
أين مصدر الأصوات ، فسمعت صوتاً يشبه صوت المنشار حين النشر .

ولكن ذلك لم يطول فان اصوات الثائرين تغلبت على صوت المنشار فلم
تعد تسمعه .

وعادت إلى البحث عن المنفذ وقد استنار فكرها في هذا الموقف الرهيب ،
موقف الموت الأكيد .

فبينما هي سائرة عثرت رجلها بحلقة من الحديد ، فمدت يدها اليها
وانتزعته بقوة ضاعفها اليأس ففتح باب خشبي ، فرأت منه وهي تقتهد
تنهد المنفرج بعد ضيق ، سلمات من الخشب ينتهي إلى نهر السين ، ورأت
قارباً عند أسفل السلم .

ففرحت فرحاً عظيماً وأسرعت إلى باب القبو تنادي باردليان .

فسمع باردليان نداءها وقال لها : لبيك يا سيدتي فاننا إذا متنا الان
يموت معنا كثيرون .

ثم ظهر لها عند أعلى السلم وفي يديه حبل غليظ وهو يشد به شداً عنيفاً
حتى ان عروق صدغيه كادت تنفجر .

وفي هذه اللحظة كان الهائجون قد كسروا الباب ودخلوا إلى المنزل
جماعات وهم يصيحون : إلى الموت !

وفي هذه اللحظة أيضاً بذل باردليان آخر ما لديه من قوته الهائلة في شد
الحبل ، فسمع صوت عظيم هائل يشبه صوت الصاعقة المنقضة تلتها
أصوات مختلفة .

ذلك ان سقف هذا المنزل قد سقط على أولئك المهاجمين ، فقتل وجرح منهم
مئات وعلت أصوات التالم والذعر .

ثم خفتت الأصوات وساد السكوت سكوت الموت ، فان باردليان كان
قد نشر الدعائم الخشبية القائم عليها السقف وانتزعها بذلك الحبل فسقط
السقف على المهاجمين .

وعند ذلك وثب من منفذ القاعة إلى القبو دون أن يصاب بأذى ، فوقع
عند قدمي الملكة .

أما الملكة فقد ذعرت ذعراً شديداً دون أن تعلم ما حدث ، فأنهضت
باردليان ودلته بيدها على النهر والسلم والقارب .

فأسرع الثلاثة بالنزول وبعد هنيهة كان القارب يسير بهم إلى جهة اللوفر

والناس يعتقدون انهم هلكوا مع الذين سقط عليهم المنزل .
وبعد خمس دقائق وصلوا إلى الشاطئ ، وصعدوا إليه ، فوقف باردليان
يبتسم وبدء على سيفه وقوف من رافق هذه السيدة في نزهة وهو يلتمس
الاذن بالانصراف .

فقالت له الملكة بسكينة لم تفارقها من ساعة الخطر إلى ساعة السلامة :
إني يا سيدي ملكة النافار ، فمن أنت ؟

- إني أدعى يا سيدتي الشفالييه دي باردليان .

- إنك يا سيدي خدمت أمرة بوربون خدمة جليلة لا تنساها مدى الحياة
وتحفظها لك في صفحات تاريخها .

فأبدى باردليان إشارة كأنه يريد أن يتنصل من هذا الشكر فقالت له :
لا تتنصل من فضل ما فعلت يا سيدي الشفالييه ولا سيما أمامي .

فأجابها ببساطته المعروفة : لا أتصل يا سيدتي من شيء فعلته أمام
أحد ، ولا أنكر اني خدمت جلالتك خدمة جليلة إذ أنقذت حياتها من
أشد الأخطار .

غير إني حين أقدمت على انقاذك لم أكن أعلم أنك من أصحاب التيجان ،
بل فعلت ما فعلته بغية انقاذ امرأتين كانتا في خطر .

فأعجبت ملكة النافار ببسالة باردليان وبساطته ، وهي التي طالما أثارت
الحروب وأدارت رحاها كأشهر القواد ، وهي التي خاضت معارك السياسة
فأرعبت أهل الحنكة والتدبير .

فلما أجابها باردليان هذا الجواب ، نظرت إليه نظرة اعجاب لم تحاول
اخفاءها وقالت له : انك إذا شئت أن تتبعني إلى معسكر ولدي ضمننت لك
الثروة والمجد .

فارتعش باردليان لذكر الثروة والمجد ، وفي الوقت نفسه تمثلت له

جارتها الحسناء بشعرها الجميل ولحاضها الفتانة ، فانقبضت نفسه حين افترق
انه سيبرح باريس .

ووقف في شر موقف بين أن يترك تلك الغادة وهي عنده خير من كل
ثروة ، وبين أن يترك تلك الثروة التي عرضت له اتفاقاً ، وهي كل ما كان
يسعى إليه في هذا الوجود .

ولكن الغرام تغلب على نفسه فأجاب الملكة قائلاً : ألتمس من جلالة
الملكة أن تتفضل بقبول امتناني ، فإني عزمتم على أن أبحث عن الثروة
والمجد في باريس .

- لا بأس فليكن ما تريد غير انه إذا أراد أحد أتباعي أن يراك
فأين يجدهك .

- في فندق دافنيير في شارع سانت دانيس .
فأومأت الملكة برأسها والتفتت إلى رفيقتها .

وكانت هذه الرفيقة والوصيفة بارعة الجمال رشيقة الحركات ، وكانت
علائم القلق بادية عليها في تلك الساعة تنظر إلى الملكة نظرات سريعة كانت
أقرب إلى الدلالة على الخوف .

فقالت لها الملكة : لقد ارتكبت يا اليس خطأ فادحاً بأن جعلت المركبة
تمر فوق الجسر .

فأجابتها الفتاة بثبات : لقد توهمت ان الطريق آمنة .
- ولقد أخطأت أيضاً بفتح نافذة المركبة .

فضعف ثبات الفتاة وقالت : لا أنكر ان ذلك كان مني على سبيل الفضول .
- ولقد أخطأت أيضاً يا اليس بأن ذكرت اسمي بصوت مرتفع أمام
الجمهور الهائج وأنت تعلمين انهم أعدائي .

فاضطربت الفتاة عند ذلك اضطراباً شديداً وقالت : لقد طاش رأسي في

تلك الساعة ، فلم أعلم ماذا اصنع وانطلق لساني بما لا أريد .

ف نظرت الملكة اليها نظرة منكرة ثم قالت لها بعد صمت قليل : إني لا اقصد توبيخك يا ابنتي ، ولكن لو أراد عدو تسليمي لما فعل أكثر مما فعلت فاعتبري بما بدر منك ولا تعودي إلى هذا الطيش .

وعادت إلى مخاطبة باردليان فقالت له : اني أود يا حضرة الشفالييه أن أعهد اليك بمهمة أخرى .

- تفضلي يا سيدتي ومرري بما تشائين .

- أشكرك الشكر الجزيل ، والذي أريده منك أن تقفوا خطواتنا على مسافة قريبة حتى نصل إلى حيث نحن ذاهبان ، فإني بحاجة بطول مثلك لا أخاف أن أمر بين جيش .

فشكرها باردليان لثنائها عليه وثقتها به ، ثم تنهد وقال في نفسه : أية خسارة أبلغ من عدم استطاعتي مبارحة باريس لتعلق قلبي بالغرام ... لقد صدق أبي حين أوصاني بالحذر من النساء ، وما كان إلا من الصادقين .

وما أنا الان عالق بهوى جارتي أضيع مثل هذه الفرصة النادرة في سبيل هذا الغرام .

ثم نظر الى ملابسه الممزقة الخلقة فتنهد أيضاً وقال .

اني برحت منزلي وفي نيتي أن أعود اليه بأجل لباس ، وما أنا سأعود اليه بنفس ملابس ، وستعمل الابرة كل الليل بترقيعها بعد أن عمل سيفي طول النهار بتمزيق الجلود .

وكان باردليان يحدث نفسه بمثل هذه الأقوال وهو يتبع الملكة على قيد عشر خطوات ويده على قبضة حسامه ، والملكة تتوغل بسرعة مع وصيفتها في شوارع باريس .

وقد بدأ الجوع ينهش معدة باردليان فانه لم يأكل حين خروجه من الفندق لانشغاله في لحاق أم لوزا .

وبعد أن طافت الملكة كثيرًا من الشوارع وقفت عند باب منزل في شارع فامبل وأشارت الى اليس أن تطرق الباب .

فامتثلت اليس وفتح الباب للفور ، فدخلت الملكة وأشارت إلى باردليان يتبعها .

وقالت له : انه يحق لك الان يا حضرة الشفالييه أن تقف على أعمالي فادخل معي .

فانحنى باردليان وقال : لا يحق لي يا سيدتي إلا أن أكون عبداً مطيعاً في تنفيذ أوامر جلالتك .

ودخل الثلاثة إلى المنزل فاقفل الباب على أثر دخولهم واستقبلهم رجل عجوز طويل اللحية بيضت شعره السنون ، فأجلسهم حول مائدة ونظر الى الملكة فابتسم .

- أهذا أنت يا سيدتي ؟ اني لم أرك منذ ثلاثة أعوام ، ولكن اسمك مطبوع في صندوقي ..

فأجابته الملكة بحفاة : نعم فاني أدعى مدام لارو .

- هو ذاك يا سيدتي فقد كدت الفظه لو لم تسبقيني اليه .

فهل لك أيضاً ما تبيعيني اياه من عقود اللؤلؤ وحجارة الماس ؟

وكان في يد الملكة كيس من الجلد فوضعت على المائدة وفتحته واخرجت ما فيه من المجوهرات فبدرته على المائدة دون انتظام .

فاتقدت عيننا اسحق العجوز ومد يده الى قطع الماس والياقوت والزمرد وغيرها من الحجارة الكريمة التي كانت تتوهج فتبزع باجتماعها انوار مختلفة .

واما باردليان فانه حين رأى هذه المجوهرات وهي موضوعة بعضها على بعض فوق المائدة ، منها مجتمع ومنها متفرق .

ثم لما رأى نفسه واقفاً أمام هذه الثروة الشعرية ينظر إلى أنوارها الزرقاء والحمراء والخضراء كأنها خارجة من اتون سحري حديق بعينيه كأنه غير

ثم طار بالخيال الى من يحب فتصور ان هذا الكنز له ، وانه باع احدي
جواهره ، فاشترى خير الملابس ورصع قبعته ببعضها ، وذهب يخال تحت
نوافذ لوبزا وهو يرى انه ملك الدنيا .

ولكن هذا الحلم لم يطل فانه نظر الى ملابسه الممزقة فصحا من سكرة
تصوراته ، ولم يعد يحسر ان ينظر إلى تلك الجواهر فتشهد وجعل ينظر
الى الملكة .

كانت ملكة النافار في عهد هذه الرواية قد بلغت الثانية والاربعين من
عمرها ، وهي لا تزال لابسة ملابس الحداد على زوجها انطوان دي بوربون
ملك النافار المتوفي في سنة ١٥٦١ مع أنها لم تأسف أسفاً كثيراً على هذا
الزوج الضعيف الارادة المتقلب الاراء الذي كان يرتبك لكثرة الاحزاب ،
فلم يستطع لضعفه إلا ان يتخذ الموت حزباً حين حاجة بلاده إلى موت رئيسها
المنخلع القلب .

وقد ترك بلاده ومشاكلها الى امرأته وهي أشهر النساء جرأة وأشد
ذكاء وابعدهن في السيامة وحسن التدبير نظراً

وكانت زرقاء العينين ولكن نظراتها كانت تخترق حجب النفوس فتنفذ
الى اعماقها .

وكانت تبدو للرائي لأول وهلة انها من اهل الكسل والخوار ، ولكنها
حين تتأثر لأمر تهيج عواطفها فتستحيل من حالة الى حالة .

وقد شبهها المؤرخون افراط جرأتها وغيبتها على تأييد المذهب البروتستانتي
بجان دارك الشهيرة ، وقالوا انه لم يحصل دون تمام هذا الشبه غير ما لقيته في
طريقها من العقبات التي أوقفت سيرها .

لقد وصفنا حنة زوجة فرنسوا وصف ام تحب ولدها ووصفنا كلارين دي

مدسيس بوصف أم لا تكترث لولدها ، ونحن آخذون بوصف جان دي البرت
ملكة النافار وهي أم أيضاً ، ولكنها كانت مناقضة لسكاترين دي مدسيس
كل التناقض بالأمومة .

فبينما كلارين تبذل كل ما أوتيت من الذكاء والحيلة في سبيل تقويض سلطة
ابنها ، كانت ملكة النافار لا يشغلها في الوجود غير تأييد عرش ولدها وجعل
تاجه من اعظم التيجان .

ومن اجله خاضت معامع الحروب ، ووقفت فيها مواقف القواد الحاذقين
وخاطرت في سبيل مجده بالنفس والنفيس .

وهي انما جاءت الى هذا الجوهرى اليوم لتبيع ما بقي لديها من الجواهر
وتنفق على جيش ولدها هنري .

فلما بسطت الجواهر على المائدة ارتعش باردليان وابتسم اليهودي ، وبقيت
الملكة ثابتة لا يبدو على وجهها شيء من ملامح التأثر .

أما اليهودي فانه أخذ ينظم هذه الجواهر ويرتبها حسب قيمتها وأثمانها .
ثم جعل يفحصها فحصى العارف الخبير فيقطب قارة وبيتسم طوراً حتى
فرغ من فحصها . فجعل يقدر ثمنها ويكتب على ورقة ثمن كل جوهرة .

ولما انتهى من تقديره قال للملكة :

- إن هذه الجواهر يا سيدتي تساوي ثلاثمائة الف فرنك .

فأجابته الملكة قائلة : لقد أصبت بتقديرك .

- وإني أدفع لك مائتين وخمسين الفاً فإن النقد قليل في هذه الأيام .
رضيت .

- كيف تريد أن أدفع لك القيمة ؟

- كما دفعت في المرة السابقة .

- أتريدينه حوالة على أحد عملائي ؟

- نعم ، ولكنني لا أحب ان يكون الدفع في بوردو كما كان قبلاً .

- اختاري ، يا سيدتي المدينة التي ترغبينها ، فإن لي عملاء في جميع

المدن .

- اخترت مدينة سانت .

فلم يجيبها اليهودي ، بل أخذ ورقة فكتب عليها الحوالة ودفعتها إلى الملكة

فقرأتها ووضعها في جيبها .

وعند ذلك نهض اليهودي وقال لها :

- اني يا سيدتي رهين أمرك في جميع هذه الشؤون .

فارتعشت الملكة وتنهدت بالرغم عنها ، لأن هذه الجواهر كانت آخر ما

بقي لها ، وخرجت من منزله تتبعها اليس وبارداليان .

أما بارداليان ، فإنه تبعها حائراً مبهوتاً ، وهو لا يعلم أيعجب بذلك

اليهودي الذي دفع هذا المبلغ العظيم على سرعته بتقدير المجوهرات ، وهو

واثق انه لا يخطيء .

أم يعجب بتلك المرأة التي لم تنظر نظرة إلى تلك الجواهر الكريمة اللعانة

وارتضت ان تستبدلها بورقة عليها ختم وتوقيع بسيط .

وحده

فاضيه

متتدي

ليلاس

السفراء الثلاثة

خرجت الملكة من باريس من باب سانت مرتين المجاور لشارع كامبل الذي

كانت فيه .

وقد لقيت على مسافة مائتي خطوة من ذلك الباب مركبة كانت تنتظر

وهي مركبة سفر تجرها أربعة جياد قوية ولها سائقان .

فسارت الملكة اليها دون ان تفوه بكلمة ، فأمرت وصيفتها اليس ان

قصعد الى المركبة .

ثم التفتت إلى بارداليان وقالت له إنك لست يا سيدتي الشفالييه من

الذين يقتصر بشكرهم على الألسنة ، فإنك من أبطال العهد القديم ، وأنت

فوق كل مديح وثناء ، فأقتصر معك على كلمة الوداع ، وإذا ودعتك فإنما

أودع أحد اولئك الأبطال ، الذين كانوا يخوضون غمار الحروب مع

شارلمان العظيم .

ثم مدت له يدها فتناول بارداليان تلك اليد وقبلها بجلد الاحترام وهو

منذهل اشد الانذهال لما سمعه من فم الملكة .

وسارت المركبة بالملكة تنهب الأرض وبارداليان واقف مطرق إطراق

المفكر وهو يناجي نفسه فيقول :

أنا من أبطال العهد القديم .. أنا من أبطال شارلمان .. ولماذا لا

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلمّا تجاوزت سن الحداثة كنت قد ظفت جميع فرنسا من شرقها إلى مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الحشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكثرت لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لهطل الأمطار وترتاح لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر باردليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعده لك .

فدعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

- إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

- انت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك الحنون

ألين من ان يرتكب الهفوات .

- اصنع إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلاً جوار آفاق ناقت نفسي

إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن احتفظ بمنصي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ووعدني بضمفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكنني عولت منذ تلقيت الأمر بقضائها

ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .

- وبعد ذلك .

- وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فمصيت أمر الرئيس ، وأرجعت الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتني . فلم أجد بعد عصياني رئيسي سبيلاً إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة عشر عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك على العيش .

- من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت في خدمته ؟

- ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن أعلم إنك بسبب جرمي بت أشد فقراً من أيوب ، وهنأ ينتهي شبك بهذا الرجل ، المشهور بالصلاح والصبر .

والآن ، إصنع إلي ما أقوله لك واعرني سمعك لألقي عليك نصائحها لأنها كل ما ترثه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق باحد من الناس فليس بينهم من يسوى قيمة الجبل الذي يجب ان يشنق به .

إذا رأيت رجلاً مشرفاً على الفرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض في شأنك .

وإذا رأيت لصوصاً ينهبون رجلاً في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم وسر في طريق آخر .

وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحثك عن الشر الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعديني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

- نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

أكون منهم .

بل لماذا لا أظهر للعالم أجمع ، ان من يزرع حظاً من قوة البدن وشجاعة النفس وجب عليه ان يبذل تلك القوى في سبيل الفضيلة وخدمة أخيه الانسان ..

ولكنه حين ذكر الفضيلة تنبه وبرقت عيناه وقال ويح لنفسي ، الا ازال أخالف وصية ابي ، وهو الذي امرني ان احذر من نفسي ، وان احذر من الناس ..

فلأذهبن الآن الى الفندق عساي اجد فيه ما اتبلغ به من القوت ، فقد كاد يقتلني الجوع

وعند ذلك سار في طريق الفندق وهو يترنم بنشيد صيد كان كثير الشبوع في تلك الأيام ، لأن الملك شارل التاسع قد وضع لحنه فوصل إلى باريس حين كان الحراس آخذين بإقفال أبوابها .

وبعد ذلك بساعة كان جالساً حول مائدة وضع عليها طعام شهي أعدته له امرأة لاندري صاحب الفندق ، وقد تأنقت به خصيصاً كي تجعله مقدمة للصلح بينها وبين بارداليان ، ووقفت تخدمه وقد شممت عن ساعدين كالعاج .

غير ان بارداليان كان منهمكاً بالتهام الطيور المقلية ، وقناني الخمر التي كانت تحفرها . فأكل وشرب ، حتى امتلأ جوفه ، وذهب إلى سريره ليستريح بالرقاد من عناء ذلك اليوم ، وغادر لاندري يتنهد لفرط ما شربه من الخمر ، وامرأة لاندري تتأوه لأنه لم يمن عليها بنظرة رضى .

وفي اليوم التالي نهض متأخراً وأخذ رداءه تركه له أبوه فاتشح به وكان اول ما فعله اهتمامه بخياطة ما تمزق من ثيابه في معركة أمس .

ولا ندري أيعظم قدره في عيون القارئ لاهتمامه بترقيع ثيابه ،

بينما كانت الأطباء يهتمون بترقيع ما مزقه حسامه من جلود الناس ، ام ينظرون اليه بالازدراء والاستخفاف ، لاشتغاله بالابرة ، وهو من أهل السيف .
غير اننا نمثل مميشة الأبطال في عهد شارل التاسع ، وعلى القارئ ان يحكموا عليه بما يشاءون .

وقد كان جالساً عند النافذة وظهره إلى باب الغرفة ، فبينما هو يخيط ثوبه سمع قرعاً خفيفاً على الباب واذن للطارق بالدخول دون ان يتحرك من مكانه او يترك إبرته .

وعند ذلك فتح باب الغرفة وسمع بارداليان صوت صاحب الفندق يقول :
نعم إنه هنا يا سيدي البرنس فتفضل بالدخول .

والتفت بارداليان كي يرى من هذا الرجل الذي يدعوه صاحب الفندق بلقب الأمير ..

ورأى رجلاً على أتم ما يكون من مظاهر السيادة ، يلبس ملابس كبار النبلاء في ذلك العهد ، وقد زين ريشة قبعته بزمردة لم ير مثلها إلا بين جواهر ملكة نافار .

فلما رآه بارداليان دنا من الباب وقال له وإبرته لا تزال في يده : تفضل يا سيدي وادخل .

فأجاب الرجل بملء العظمة والجلال قائلاً إذهب ، وادع لي سيدك في الحال .

ونظر اليه بارداليان نظرة استكبار وقال له : ليس لي سيد ، فأنا سيد نفسي .

فغضب الرجل لهذا الجواب الغريب ، لأن كل إنسان ، في ذلك العهد ، كان له سيد يحتمي به ويلجأ اليه ، حتى الملك نفسه ، فقد كان سيده البابا .

ووقف هنيهة مبهوراً ، وهو يحدق ببارداليان ، حتى ظهر له من مخائل
عزيمته ما استدل منه انه يجبل عن مقام الخدم فقال له : الملك يا سيدي
الشفالييه بارداليان .

فابتسم وأجاب : لي الشرف ان أدعى بهذا الاسم .

فرفع الرجل قبعته وحياه بملء الاحترام قائلاً : إني قادم اليك يا سيدي
الشفالييه من قبل سمو الدوق دي كيز ، لأعرب لك عن احترامه إياك
وإعجابيه بك .

- ثق إني أبادله احتراماً باحترام وإعجاباً باعجاب .

- إن معركة الأمس يا سيدي قد أجلتك في النفوس ، ورفعتك إلى
أعلى مقام .

- أتريد بها معركة الجسر ؟

- وسقرط المنزل أيضاً ، فلا تلهج الألسن بغير هذا الحديث ، حتى
ان جان دورات ، شاعر الملك ، روى هذه الحادثة لجلالته حين نهوضه في
هذا الصباح .

- وماذا قال هذا الشاعر ؟

- قال إنك تستحق السجن في الباستيل ، لإقدامك على إنقاذ إمرأتين
مجرمتين كانتا تحاولان النجاة .

- وبماذا أجاب الملك ؟

- إنك لو كنت من رجال البلاط لعلت للفور ان الملك لم يجب
بحرف ، لأنه قليل الكلام . ومهما يكن من الأمر ، لقد أصبحت الآن في
عيون الناس شبيهاً لأشيل ، وهم يقصون حديثك كما يروون أحاديث
أبطال التاريخ .

- لا أنكر ذلك .

- وعلى الجملة يا سيدي ، إن مولاي الدوق دي كيز ، يسره أن

يظهر لك إعجابيه ببسالتك ، ودليل ذلك انه أرسلني اليك بهذا الخاتم
هدية ، بل تذكر منه فأرجوك ان تتكرم بقبوله ، كي لا تسيء إلى هذا
القائد الكبير .

فأخذ بارداليان الخاتم ووضع في إصبعه وقال : معاذ الله ان أرفض هذا
التذكار من مثل الدوق .

- أشكرك يا سيدي لقبول الهدية ولاحتفائك بي .

- بل أنا أشكر الدوق لهذا الخاتم النفيس ، وأشكرك لتفضلتك

بزيارتي .

ودار بينهما سياق الحديث على المجاملة وبارداليان ينظر معجباً إلى ملابس
هذا الرسول ولا يتألمك عن إظهار إعجابيه .

إلى ان قاطعه الرسول فجأة وقال : لنبحث الآن في ما أتيت لأجله
لأن مولانا ، الدوق دي كيز ، عازم على تجديد حاشيته لأسباب خطيرة ،
وأنا أبسط لك الاقتراح ، بملء الحرية والجلاء ، فهل تريد ان تكون
من أتباعه ؟

فابتسم بارداليان وقال :

- وأنا أجيئك بمثل حريتك وإخلاصك .

- ما هو جوابك ؟

- هو اني لا أكون إلا من أتباع نفسي .

- أهذا هو الجواب الذي يجب ان أنقله إلى مولاي الدوق ؟

- بل تزيد عليه ان لساني لا يفني حق امتناني لتعطفه علي وسأذهب اليه
وأظهر له ما يخالج قلبي من الامتنان .

فظهرت دلائل الارتياح على محيا رسول الدوق وقال في نفسه :

إنه بات لنا دون شك ، لكنه يريد ان يساوم الدوق على خدماته دون
ان يطلع على شروطه أحد .

وقد اكتفى بهذا الجواب الصريح فودع بارداليان وانصرف .
أما بارداليان فإنه شيعه إلى الباب بالاكرام والتبجيل .

ثم عاد إلى غرفته ، فجعل يناجي نفسه ويقول : أرى الدهر ابتسم لي وسالمتني الليالي ، وماذا عساي أطعم بأكثر من أن أكون في حاشية هذا الدوق العظيم ، وهو أعظم رجل في المملكة بعد الملك ، لاسيما وهو يدعوني اليه .

بل أية سعادة تفضل هذه السعادة ، وأي مستقبل خير من هذا المستقبل ، إني لا يمر بي بضعة أيام حتى تكون لي المنزلة الأولى بين رجال هذا البطل العارف قدر الأبطال ...
إذا لا يد لي من قبول الاقتراح ...

ولكن ما هذا الضعف الذي تولاني ، ويا ويح نفسي ، أنسيت وصية والدي ؟

ألم يقل لي لا تثق بأحد من الناس ؟ ...
كلا إني لا أقبل هذا الاقتراح .

ثم جعل يمشي في غرفته بخطوات مضطربة ، وقد مره انه وجد هذا التعليل ، كي ينقطع عن للتفكير بالدوق ، إلى النظر في هديته . فجعل يتأمل ذلك الخاتم الجميل ، وهو يتوهج في إصبعه كالنجم ، فبدأ بتثمينه .

فقال : إنه يساوي على الأقل مائة وعشرين ريالاً . بل إني قد أبيعته بمائة وخمسين .

وجعل يتأمله ، وكل ما زاده نظراً ، زاده ثمناً . حتى بلغت قيمته ثلاثمائة ريال .

وعند ذلك طرق باب غرفته ، فأدار الخاتم كي يخفي لماعه ، وانتظر دخول الطارق .

فدخل رجل متشح برداء كبير ، وهو يلبس ملابس بسيطة ، تشبه ملابس التجار ، وحياء بارداليان باحترام وقال : أنت هو الشفالييه بارداليان يا سيدي ؟

- هو بعينه لماذا تريد منه ؟

- سأخبرك بما أتيت لأجلك ، لكنني أحب ان أسألك قبل ذلك عن مولدك ، ففي أي يوم ولدت وفي أية ساعة وأي شهر وأي عام .

فنظر بارداليان إلى حسامه المعلق كأنه خشي ان يخرج من غمده ويعاقب هذا الرجل لفضوله .

ثم أجاب الرجل قائلاً : كلا يا سيدي وكل ما أعرفه اني أبلغ من العمر عشرين عاماً وقد ولدت في أيام التين .

فقال الرجل في نفسه : لا بأس ، فأستشير النجوم بشأنه بقدر ما تيسر .

ثم قال لباردليان الملك حر يا سيدي الشفالييه .
فابتسم باردليان وأجاب : من يحسر ، يا سيدي ، على الادعاء أنه حر ، حتى الملك نفسه ، فإنه لا يستطيع ان يخطو خطوة خارج اللوفر ...

وهذه الملكة كاترين التي يقولون عنها انها قالت من السيادة ما لم ينله الملك ، العله ظافرة بهذه الحرية ...

بل هذا الدوق دي كيز ومونغورانسي وغيرهما من كبار النبلاء اليس لكل منهم قيد يرصف به ويشير الى استعباده .

وبعد ، فإنك تسألني إذا كنت حراً ، فكنت كأذك تسألني إذا كنت صاحب ثروة وللسؤالين أجوبة تتعلق بحالة المسؤل .

مثال ذلك عن نفسي ، إني حين امتلك ريالاً ، أحسب نفسي غنياً كالأمراء ، وحين استطيع أن أغازل زجاجة الخمر ، أحسب إني بلغت

درجات النبيل .

وماذا تريد بالحرية ؟

انك إذا اردت بها إني أستطيع أن اقام عند الفجر واستيقظ عند الظهر واني أجول في الأسواق دون أن أخشى رقيباً ، وادخل إلى الخمارة أو إلى الكنيسة حين امشاء ، وأأكل واشرب حين اعطش واجوع ، واغازل من احببت من النساء ، وأطوف بها شوارع باريس في أية ساعة اردتها من الليل دون مهابة .

واهزأ بقطاع الطرق واسير إلى حيث تدفعني الأهواء ولا حاكم علي غير سلطان قلبي . . .

انك إذا كنت تعني الحرية بما ذكرته لك فانا حر بحمد الله .

وكان الرجل مصغياً أشد الاصفاء إلى كلامه ، فلما فرغ من حديثه مشى دون ان يجيبه الى مائدة فأخرج كيساً من تحت رداؤه فوضعه عليها وقال له :

إن هذا الكيس يحتوي على مائتي ريال

فدهش بارداليان وقال : مائتي ريال !

- وكل ريال ستة فرنكات .

- إنها تشبه الثروة .

- وهذه الثروة لك .

- إذا إسمح لي ان أضعها في محل أمين .

ثم أخذ بارداليان الكيس بيد ترتجف ووضعه في صندوق وبعد ان أقفله عاد إلى الرجل .

فقال له بملء السكينة : والآن أرجوك ان تقول لي يا سيدي لماذا أعطيتني هذا المال ؟

وكان يظن هذا الرجل انه امتلكه بهذه الهبة .

فلما رأى ما كان من سكينته وقلة اكترائه أيقن أنه المغلوب ولكنه ملك

نفسه وحاول ان يسترد سلطانه عليه .

فقال له : إني أعطيتك هذا المال لاشترى به حررتك .

فلم يظهر بارداليان شيئاً من علائم الدهشة او النفور بل قال له بملء السكينة إذا كان الأمر كذلك فإنك لا تزال مديناً لي بتسعمائة وتسعة وتسعين الفاً ومائتاً ريال .

فارتعش الرجل وقال : أيبلى ثمن حررتك مليون ريال ؟

- وذلك في العام فقط .

وكان هذا الرجل ريفي ريجياري الفلكي المشهور في ذلك العهد ، وصديق الملكة كاترين وشريكها بدسائسها وفتنها فشعر على دهائه انه لا قبل له بهذا البطل ونظر اليه نظرة إعجاب وقال :

أرى إنك تدير الكلام كما تدير الحسام ، وأنت شجاع للعقل واللسان كما أنت ثابت القلب والجنان .

فاحتفظ يا سيدي بحررتك إذا شئت ، غير انك برهنت لي الآن على شدة ذكائك وحسن أدبك ، كما برهنت أمس للناس أجمعين على شجاعة قلبك ومضاء حسامك .

وما جئتك إلا لأعرض عليك خدمة غرض نبيل تتولاه أعظم أميرة ، فهل تريد ان تخدم هذا الغرض النبيل ؟

- لندع الغرض ولنبحث عن الأميرة ، فمن عسى تكون ، العله مدام مرتنبانيه .

فظهرت على شفقي الفلكي علائم الاستخفاف .

فقال بارداليان : العله مدام دي نيمورس .

- لا تجهد نفسك في البحث يا بني واقتصر على العلم ان هذه الأميرة أعظم الأميرات قوة في فرنسا .

- لكن يجب ان أعرف على الأقل تلك الأميرة التي تعرض علي خدمتها .

(٩) بارداليان (ج ١)

— إنك مصيب فيما تقول فتعال إذاً في الساعة العاشرة من مساء غد إلى الجسر الخشي واصعد إلى أول منزل تجده عن يمين الجسر فاقرع بابه ثلاث مرات متوالية .

فارتعش باردليان إذ ذكر ذلك المنزل الذي رأى في نافذته وجه تلك المرأة المصفر فعزم للفور عزمًا تامًا وأجاب الرجل قائلاً : لقد رضيت وسأذهب إلى المكان المعين .

فقال له الفلكي : هذا كل ما أريده منك .

ثم انحنى أمامه مودعاً بجلء الاحترام وانصرف .

وبعد انصرافه جعل باردليان يفكر في هذه الأميرة التي وصفها الفلكي بقوله انها من أعظم أهل السلطة ، فقال في نفسه ثكلتني أمي ان لم تكن هذه الأميرة الملكة كاترين والدة الملك .

أما الغرض النبيل التي تريد أن اتولاه في خدمتها فسوف أعرفه بعد المقابلة وأما الآن فقد انصرف هذا الرجل وهو يعرفني دون ان أعرفه ولكن لا بأس فلأفحص تلك الريالات التي منحني اياها .

ثم أخذ الكيس من الصندوق فأفرغ ما فيه على المائدة وجعل يعد الريالات ويضعها عفوفاً عمودية بعضها إلى جنب بعض ، وهو ينظر اليها باسم الثغر . فرح القلب ، ويقول انها في الحقيقة مائتان ، وهي وهاجة لماعة لا أجد مثلها إلا في دار الضرب .

ووالله اني لست بحالم ، فاني أمسها بيدي واملاً منها جيوبي ..

وهذا الخاتم أيضاً ، فانه يوازي هذا المال او يزيد ، إذا ، لقد بت من الأغنياء .

ولكن مالي اضطرب امام هذا المال ، ألعلي خفت من الثروة ولم أكن أخاف من الفقر ؟

وفيما هو يفكر هذا التفكير وقد بدأ ينصرف إلى تبديد هذا المال في سبيل

ارضاء من يحب ، إذ قرع باب غرفته للمرة الثالثة ، فقام إلى الباب مندعراً وفتحه ولكنه لم يلبث أن رأى القادم حتى استحال زعره إلى دهشة . ذلك ان هذا الزائر الجديد كان يشبه الزائر الذي تقدمه شهاً عجيباً بمشيتته وخيلائه وتقاطيع وجهه واتقاد عينيه .

ولم يجد فرقاً بين الاثنين سوى أن الفلكي كان في الخامسة والاربعين من عمره والزائر الجديد لا يتجاوز الخامسة والعشرين .

ولكن هذا الشاب كانت تبدو عليه علائم الحزن وتدل نبرات صوته على كآبة خفية كامنة في نفسه .

فلما دخل الزائر ، جعل ينظر الى باردليان ، وباردليان ينظر اليه نظرة الفاحص .

ومن غرائب القلب في سرعة تأثره ، بل من عجائب امرار تلك النظرة الأولى ان هذين الشابين لم يكدا احدهما ينظر إلى الآخر حتى امتزج قلباهما كما يتزج النور بالنور وهو سر من امرار الطبيعة لا يعرف سيره إلا من يعرف سير الوداد والبغضاء .

وجملة القول ، ان هذه النظرات الأولى كانت رائد القلبين إلى الوداد ، فانحنى الزائر الجديد أمام الشفالييه وقال له : ألعلي يا سيدي بحضرة الشفالييه دي باردليان ؟

فأجابه باردليان برقة لم يتعودها قائلاً :

هو ذلك يا سيدي ، فهل تأذن لي أن أسألك عن اسم الذي شرفني بهذه الزيارة في غرفتي الحقيمة ؟

فارتعش الزائر لهذا السؤال وقال له : لقد أصبت يا سيدي بسؤالك ، فان آداب الزيارات تقضي علي بأن أذكر لك اسمي .

وكأنما باردليان قد لاحظ انه يريد كتمان اسمه فقال له : أسألك العفو يا سيدي فاني ما طلبت اليك معرفة اسمك إلا لما شعرت به من الميل اليك ، أما

إذا كنت تريد كتابته فاني من اعوانك على هذا الكتابان .

- كلا يا سيدي الشفالييه ، فليس اسمي سرأ اريد كتابته ، واني ادعى ديودات .

ونعم ، اني لا ادعى بغير هذا الاسم الفرد ، وهو يفيد باللاتينية ، معنى اللقيط ، فاني وجدت عند باب كنيسة ، فعثرت بي امرأة فالتقطتني وربتني فكانت لي خيراً من الأمهات .

هذا هو اسمي وهذا تاريخه واني اذكر هذا التاريخ في كل مكان أملاً بان يتصل بمن نبذني فيندم على ما رماني به من الشقاء .

وكان الزائر يتكلم بحياء وحرية تشفان عن أدب نفسه فأثرت لهجته الحزينة على بارداليان ، وأراد أن يخفي تأثره بالحديث فقال له ومن هي هذه المرأة التي ربته كما تقول ؟

- إنها ملكة النافار .

- أهي مدام دي البريت ؟

- هي بعينها ، وهي التي عهدت الي بالمهمة التي تشرفت من أجلها بزيارتك .

- بل أنت الذي شرفني بزيارتك وأرجو أن تشرفني بصداقتك بمصافحة يدي التي أمدتها اليك بملء الإخلاص .

فقد ديودات يده فصافح بارداليان وهو يقول : ألا تحتقرني بعد أن علمت أني من اللقطاء ؟

- بل أجلك واحترامك لاسيما وقد اعترفت بهذه الذلة التي إذا عدت نقيصة ، فإنما تبعتها على سواك لا عليك ، وأي ذنب جنيته فيحتقرك العاقلون بل كيف لا أحترمك وأنا أراك طويلاً نجاد السيف ، ومخائيل الشهامة تجول بين عينيك .

- ثق ، أيها الشفالييه ، ان هذه هي المرة الأولى التي عرف قلبي فيها

حقيقة السرور ، فقد تبينت من لهجتك وعينيك مروءة وكرماً لا أستطيع وصفها سوى بأذك بت معهما فوق جميع الذين عرفتهم من الأسياد والأمراء .

- ان محادثة تبدأ على هذا النمط يحمل إنهاؤها على المائدة ، فاهم معي أيها الصديق فإن الظهر قد حان .

- أشكرك من صميم القلب أيها الشفالييه فقد عرفت بك حلاوة الصداقة .

- ومن شروطها أيها الصديق أن لا تناديني حين نجتمع إلا باسمي دون اللقب ، كما أتديك ، فأنا أدعوك ديودات وأنت تدعوني جان .

وعند ذلك نادى بارداليان صاحب الفندق فأمرع إلى تلبيتيه ، ورأى الريالات مرصوفة على المائدة في غرفته فبرقت عيناه ووقف بحضرة بارداليان وقوف الخدم فأمره بارداليان أن يعد لها طعاماً شهيماً وأن يتأنق به بحيث يكون كطعام أبناء الملوك .

فارتعش ديودات حين سمع هذه الجملة الأخيرة وخرج صاحب الفندق لتنفيذ أوامر الشفالييه .

وبعد ربع ساعة كان الاثنان على المائدة فبدأ ديودات الحديث فقال : - إنك فتنتني أيها الصديق بكرم أخلاقك وأدب نفسك حتى كدت أن أنسى المهمة التي جئت اليك من أجلها .

فقال الشفالييه : إنني أعرف هذه المهمة .

- كيف تعرفها ؟

نعم ، فإن ملكة النافار أرسلتك إلي كي تشكرني باسمها على دفاعي عنها أمس ، وكى تجدد ما اقترحتة علي من دخولي في خدمتها وتقديم لي هدية فاخرة ، اليس كذلك أيها الصديق ؟

- هو ما تقول ، ولكن كيف عرفت ؟

- إن الأمر بسيط فقد جاءني في هذا الصباح رسول من قبل أحد العظماء

فأعطاني خاتماً ثمناً من الماس واقترح علي أن أنتظم في خدمة مولاه ، ثم جاءني بعده رسول آخر فأعطاني مائتي ريال وقال لي ان أميرة عظيمة تريد أن اكون من رجال حاشيتها ، ثم جئت أنت من قبل ملكة النافار فقلت في نفسي لا بد ان تكون مهمتك كمهمة الرسولين السابقين .

... لقد أصبت أهما الصديق ، وهذه هي الهدية .

ثم ناوله خاتماً من أنفس أنواع الياقوت .

فأخذه الشفالييه وقال له : هذه الهدية ، فلننظر في بقية المهمة .

... ان جلالة الملكة عهدت إلي أن أخبرك أنها أخرجت هذه الياقوتة من كيس لا بد أن تكون قد رأيتته وهي لا تنسى أنها مدينة لك ، وأما انتظامك في سلك جيشها فذلك منوط بك حين تريد .

... إذا لقد ذهبت الى الملكة ؟

لم أذهب اليها ، بل هي أتت إلي فاني كنت انتظرها في سانت جرمين وقد سافرت بعد ان عهدت إلي بهذه المهمة التي شرفتنني بصداقتك .

... اسمح لي أهما الصديق ان أسالك سؤالاً آخر ، ألم تر حين صعودك إلى غرفتي رجلاً متشعاً برداء كبير وهو في سن الكهول ؟

... كلا لم أر أحداً .

... ومتى عزمت على السفر ؟

فقطب ديودات حاجبيه وقال : اني لا أسافر لأن ملكة النافار عهدت الي بمهمات يقتضي لقضاءها بعض الوقت ، ثم انه يجب علي الاهتمام أيضاً بشؤوني الخاصة .

... إذا كان الأمر كذلك فإنك تقيم معي في هذا الفندق .

... أشكرك كل الشكر فإن أحدهم ينتظرنني .. ولكن ماذا أقول ، اني أرى لساني قد انطلق في محادثتك حتى اني لا أجد ما يصدني عن الإباحة لك بأمراري فاعلم ان دي فاليني يقيم الآن سرراً في باريس .

... أهو صهر الأميرال كوليني ؟

... نعم ، وهو مقيم في قصر الاميرال في شارع بتهيزي ، فإذا أردت أن تراني تجديني في ذاك القصر ، وإنك قد تراه خالياً مقفراً بالظاهر ، وإنك إنك إذا قرعت الباب ثلاث مرات متوالية يفتح لك راحة فتقول عند ذلك كلمة المرور وهي (جارناك ومونكوتور) فيفتح الباب .

... أشكرك أهما الصديق لحسن ظنك بي ، ولكن أتعلم ما يقال بشأن

فاليني ؟

... وماذا عسى يقولون عنه سوى انه فقير لا ثروة له غير عقله وحسامه وأن الأميرال أخطأ بتزويج ابنته من رجل لا ثروة له .

... نعم ويقولون أيضاً ان الخطاب قد ازدحموا على ابنته وانه قبل زواجها بلبلة جاءه رجل عظيم فأعرب له عن حبه لأبنته وعن رغبته بمصاهرته .

... وهذا الرجل العظيم هو الدوق هنري دي كيز ، فإنه جاء الأميرال وتوسل اليه أن يزوجه ابنته ، فأجابه الأميرال ، ان من كان مثله لا ينكث عهداً ، وانه قد وعد فاليني فلا سبيل إلى الرجعة ، لاسيما وان الخطيبين متحابان ، فخرج الدوق قانطاً ، وتزوج فاليني بنت الأميرال في اليوم التالي ، أما الدوق فقد حمله اليأس على الزواج بكاترين دي كليف .

... نعم ، وهي تحب جميع الناس ما خلا زوجها .

... ولها عشيق كما يقال ؟

... نعم ، وهو يدعى سانت ماجرين .

... الملك تعرفه ؟

... لقد عرفته اليوم ، واسمح لي أهما الصديق أن أخبرك بنبأ تجهله وهو أن الدوق دي كيز الآن في باريس .

... الملك واثق مما تقول ؟

... كل الثقة ، فقد رأيتته أمس بعيني وسمعت الشعب يهتف له .

فتقلد ديودات حسامه مسرعاً واتشح بمطفه ، فودع صديقه وقد رجع
اليه الانقباض .

- متى اراك ؟

- متى شئت في قصر الأميرال ولا تنس كلمة المرور .

وعند ذلك افترقا فذهب ديودات في شأنه ، وصعد بارداليان إلى غرفته ،
فأخذ قبضة من الريالات وخرج بها فاشتري خير الملابس التي كان يحلم بها ،
ثم ذهب الى الجوهري الذي اشترى جواهر الملكة ليبيعه خاتم الدوق دي
كيز ، أما ياقوتة الملكة فقد زين بها قبعته .

- ١٦ -

حفلة غريبة

لم يعد بارداليان إلى الفندق إلا بعد أن توارت الشمس في حجابها ، فكان
يمشي مزدهياً مختالاً بشوبه الجديد ، وبما مر به في ذلك اليوم من الحوادث
الداعية إلى المباهاة ، فإن الملوك وكبار الأمراء أرسلوا يخطبون وده ويتزاحون
على استخدام حسامه .

وقد وصل الى البيت الذي تقيم فيه حنة ورفع عينيه الى قلك النافذة التي
طالما أطلت منها لويزا إطلال البدر من خلال الغمام ، وتمنى لو انه خسر نصف
ما امتلك في ذلك اليوم من مال بشرط ان تبرز له من النافذة وتراه بشوبه
الجميل وريشة قبعته التي تناطح السحاب .

١٣٦

وحدده قاضيه
منتدى ليلاس

ولكنه وجد النافذة مقفلة فتنهد والتفت إلى ناحية الفندق فرأى بالقرب
منه ثلاثة رجال تدل ملابسهم على انهم من الأشراف وخيل له انهم يفحصون
منزل لويزا إذ رأهم ينظرون اليه بإمعان .

ثم سمع احدهم يقول لأحد رفيقيه : أهذا هو المنزل يا مورفر ؟
فأجابه رفيقه : هو بعينه يا كاليس وان الفتاة تقيم في الدور الأول منه ،
وقد استأجرت الدور الثاني في هذا الصباح .
فقال كاليس : اني لأعجب لاهتمام سموه بهذه الفتاة .

- ذلك ان سموه شديد الاتضاع ثم انه يرى ان عرش الغرام لا يرقى اليه
على سلم الانساب .

- بل هو كالحوت لا يرويه شيئاً يلهمه ويصبح ظمآن وفي فمه البحر .
وهنا بدرت نكتة من مورفر لم يسمعها بارداليان فضحك الاثنان ضحكاً
عالياً وافترق عنهما الثالث قائلاً الى اللقاء هذه الليلة .

وبينا الاثنان يحاولان الانصراف اقتداء به اقترب منهما بارداليان فقال لهما
وقبعته بيده : أياذنان لي سيدي ان أسألها عما ينظران اليه في هذا المنزل ؟
فنظر كل من الاثنين الى الآخر فظفرا انذهال ، ثم أجابه كاليس بمظمة
قائلاً : لماذا تسألنا هذا السؤال يا سيدي .

- ذلك لأن المنزل منزلي .

وكان وجه بارداليان قد اصفر قليلاً من الغضب ، ولكن الرجلين لم يريا
هذا الاصفار ، لاسيما وانه كان يحدثهما بملء الرقة والأدب .
فقال له كاليس : العلك حسبت اننا نريد شراء هذا البيت ؟

- ان منزلي غير معروض للبيع .

- إذا ماذا تريد ؟

- أريد أن أسبغكم إلى أمر لم تفتنوا له ، وهو أنكم نظرتم إلى منزلي
وضحكتم ، ولا أحب أن ينظر الناس إلى منزلي ويضحكون .

١٣٧

فاصفر وجه كاليس من الغضب وقال له : أنت لا تريد .

وأخذ مورفر يد رفيقه وقال له : هلم بنا فان الرجل مجنون كما يظهر .
فأجابه باردليان دون أن يظهر عليه شيء من علائم التأثير ، لست
مجنوناً يا سيدي كما توهمت ، ولكنني أكره من تدفعه الوقاحة فينظر إلى ما لا
يجب أن ينظره .

- إنك تقضي على نفسك بنفسك فإنك تدعوني إلى قطع أذنيك

- بل إني أعاقب السفهاء فقد تعودت معاقبة من يضحكون أمامي إذا
كان ضحكهم لا يروق لي ، فاذهبوا واضحكوا في غير هذا المكان .

فأجابه كاليس : وقد استشف من قوله أنه يدعوه إلى المبارزة ، إلى أين
تريد أن نذهب فنضحك ؟

- إلى الغابات .

- حسناً ، فمتى ؟

- الآن إذا أردت .

كلا ، ولكن في الساعة السابعة من صباح غد تجدني مع صديقي في المكان
الذي عينته فاجتهد أن تضحك الليلة كثيراً لأنك لن تضحك بعدها .
فأخنى باردليان أمامهما وقال : سأفعل ما تريدان .

ثم تركهما وذهب إلى قاعة المائدة وهو يفكر في أمر هذين الرجلين ،
والسبب في ضحكهما ونظرهما إلى نافذة منزل لويزا فيقول ترى ما عسى أن
يكون قصد هذين الرجلين ، وما شأنهما في مراقبة هذا المنزل العلهما يريدان
شراً بلويزا : والله إذا كان ذلك مرادهما مزقت قلوبهما بهذا الحسام .

وعند ذلك يحمر وجهه وتفتخ أوداجه حتى يتمثل له أنهما قابضان على
الفتاة يريدان اختطافها من بيتها والعبث بها ، فيضرب المائدة بيده الحديدية
بحيث ترتج وتسقط عنها الصحون ، ويتراكم الخدم فيفطن لنفسه ويهدأ تأثر
غضبه فيقول في نفسه : كلا ، إني مسترسل في الأوهام ، وان لويزا لا تخرج

من المنزل ولا تشرف من النافذة إلا في القليل النادر ، فلا بد أن يكون
الرجلين غرض آخر .

ثم ينطلق في مهامه التفكير وتعيه أقداح الخمر على التعقل ، فيسكن
ويطمئن ويعود إلى مراقبة زوار الفندق بعينه النقادة ، فقد كانت المراقبة
سجية فيه .

وكان يحمله على الانصراف إلى المراقبة ، كثرة توافد الزوار على الفندق في
تلك الليلة ، وما كان يحده من اهتمام الخدم في أعداد مائدة في قاعة مجاورة .
فنادى رئيس الخدم وقال له : ما هذا الاهتمام الخاص بتلك المائدة ، أقدم
اليكم ضيوف أخصاء ؟

- هو ذاك يا سيدي ، واني فرح جداً بهؤلاء الضيوف .

- ولماذا الفرح ؟

- أولاً لأن ضيوف الليلة من أكابر الشعراء ، وهم مفرطون في الكرم
يشربون فلا يشفقون على الخوابي ولا يحرمونني مما يشربون .
- إذا ضيوفكم من الشعراء .

- نعم يا سيدي وهم يجتمعون في أول كل شهر ، فيتناشدون من نغانس
الأشعار ما تطيب له نفسي ، لولا انصرافها بملذاتها إلى الشراب .

- أهذا هو كل السبب في سرورك ؟

- كلا ، بل يوجد سبب آخر وهو قدوم الأخ تهيون .

- وما شأن هذا الراهب في هذه الحفلة ، أعله أيضاً من كبار الشعراء ؟

- كلا يا سيدي ... أرجوك أن تعذرني فاني أرى قبعة حمراء

ثم تركه قبل أن يتم جملته وانصرف مسرعاً إلى استقبال فارس كان لابساً
قبعة عليها ريشة حمراء

وقد دخل هذا الفارس إلى القاعة وهو ملتف برداء كبير يستر وجهه
إلى الأنف

فانكر بارداليان هذه المبالغة بالتستر وامعن النظر في وجه الداخلى فعرف
انه المسيو دي كوسيني رئيس حرس الملك شارل التاسع ، أي أعظم رجل
عسكري في اللوفر .

وقد دهش بارداليان لقدمه ، وأسرع رئيس الخدم إلى استقباله فقال
في نفسه : إذا كانت الحلقة خاصة بالشعراء ، فما شأن هذا الرجل فيها وهو من
رجال السيف .

بل ما غاية هؤلاء الشعراء انفسهم من هذا الاجتماع ، وما بال صاحب
الفندق تخلف عن خدمتهم بنفسه وعهد بها إلى سواه وهم من عليبة القوم
وأفاضل الناس .

ان في الأمر سرأ دون شك ، ولا بد لي من اكتشاف هذا السر .

وأخذ عند ذلك بمراقبة الرجلين .

أما رئيس الخدم فانه سار برئيس الحرس الى القاعة التي كانت يعد الخدم
فيها المائدة فقال له : هنا يا سيدي ستكون مأدبة الشعراء .

وقد قال له هذا القول وهو يحدق في وجهه رجاء أن يعرفه .

غير ان رئيس الحرس لم يحفل بقوله فقال سر بي إلى أبعس من

هذا المكان .

فسار به الى قاعة كبيرة لم يكن فيها أحد من الناس ، ولكن كان فيها

خمس عشرة كرسيًا .

وعلى يسار هذه القاعة غرفة سرية ، فدخل رئيس الحرس اليها وقال له :

ما هذا الباب الذي أراه في الغرفة

أجاب انه يشرف يا سيدي على الرواق الكائنة فيه القاعات الأربع ، وهو

يشرف أيضاً على الشارع

... ألا يمكن لأحد أن يدخل من هذا الباب ؟

فابتسم رئيس الخدم وقال . ألا ترى يا سيدي هذا المزلاج الحديدي العظيم

حسناً وأين يقيم الراهب تهيوت .

أجاب : أنه يتولى حراسة باب القاعة الكبرى ، فلا يستطيع أحد الدخول

بجيت تتناشدون اشعاركم دون أن يسمعها أحد سواكم .

فظهرت علائم الرضى على وجه رئيس الحرس ، وخرج من الغرفة السرية

فتوارى عن الانظار بدخوله إلى إحدى القاعات

وكان بارداليان يراقب كل ما جرى ، فعزم عزمًا أكيداً على أن يكتشف

هذا السر الذي يحمله رئيس الخدم دون شك ، فأسرع الى القاعة المصفوفة فيها

الكراسي ، ودخل منها الى الغرفة السرية التي دخل اليها قبله رئيس الحرس .

وكان لهذه الغرفة بابان أحدهما يشرف على القاعة التي أعدت لاجتماع السفراء

أو المتأمرين .

وفي وسط هذه الغرفة المظلمة التي لا أثار فيها ، إلا من نسج العنكبوت

كان يوجد باب يفتح على سلم ينفذ منه الى اقبية الفندق ، فنزل بارداليان الى

تلك الأقبية ففحصها فحصاً دقيقاً ، ثم عاد فترك بابها مفتوحاً ، وأقفل الباب

المشرف على القاعة ، وجعل ينظر من ثقب ذلك الباب إلى ما يجري في القاعة

وقد تحولت كل حواسه إلى آذان .

ولندعه الآن في مراقبته وندخل بالقراء الى تلك القاعة المتسعة التي كان

يراقب ما يحدث فيها .

في الساعة التاسعة من تلك الليلة ، دخل الى الفندق ثلاثة رجال متشعبين

بأرديتهم المتسعة وعلى قبعاتهم ريش أحمر .

فأسرع لوبين رئيس الخدم إلى استقبالهم وادخلهم الى قاعة الطعام الخاصة .

وبعد عشر دقائق جاء رجلان ، ثم جاء ثلاثة أيضاً ، وكلهم قد وضعوا

الريش الأحمر على قبعاتهم ، فكان لوبين يدخل بكل قادم منهم الى

تلك القاعة .

وبعد هنيهة أقبل الراهب تيهوت ، فأسرع لوبين اليه وقال له : انهم

حضرُوا وهم في القاعة .

فقال الراهب : إذن اصنع إلي فان الأمر خطير ، وان هؤلاء الشعراء الذين رأيتهم ليسوا من قومنا ، بل هم أجانب وقد جاؤا لينافسوا بأشعارهم ويزاحموننا بحق السبق في القريض .

فأجابهُ لوبين : ولكن كيف اتفق أيها الأخ أن تكون مع هؤلاء الشعراء وما أنت من أهل الشعر ؟

فقطب الراهب جبينه وقال له يحفاه : أعلم أنه إذا أذنت لك رئيس ديرنا ان تبرح الدير وتختلط مع العوام فهو لا يأذن لك ان تكون من أهل الفضول ، فعليك ان تنقل الينا كل ما يحدث ولا يحق لك ان تسأل عن شيء .
- ليكن ما تريد يا سيدي فسألزم الصمت .

- وحسناً تفعل أو نرجعك إلى الدير .

- ويسح لنفسي فاني أوتر ان أعيش العمر أبكم على ان أعود إلى ذلك السجن .

- وذلك موكل اليك فاحذر العودة إلى الفضول واذهب فقف حارساً عند مدخل الرواق المؤدي إلى الغرفة السوداء ، فإذا أراد أحد الدخول فامنعه ، وإذا أصر على الدخول عنوة فاستغث نجب نداءك .

فلم يجد لوبين بدأ من الامتثال ، فذهب منقبض الصدر وبقي الراهب عند باب القاعة وهو يقول في نفسه : شككتني أمي ان كنت أعرف الغرض من هذا الاجتماع السري ، ولكنني أمرت بحراسة القاعة كما أمرت لوبين بحراسة الرواق وأنا وإياه لا نعلم من الأمر شيئاً .

وفي الساعة التاسعة والنصف ، قدم أشهر شعراء باريس في ذلك العهد ، وهم ستة فدخلوا إلى قاعة المائدة ، وبدأ عميدهم الكلام فاخبر رصفاؤه بأمر الضيوف الذين قدموا لحضور حفلتهم السرية ، وانهم جميعهم من أعظم النبلاء . فاعترضه أحدهم قائلاً : كيف ساغ لهم حضور مجتمعتنا ، ألا تخشى

افتضاح أمرنا .

بل سيكونون خير عون على تبرئتنا ، فليس بينهم غير الأمير والنبيل ووجودهم بيننا يثبت حسن قصدنا إذا ذاع أمر هذا الاجتماع .

وفوق ذلك فهم مسافرون الليلة بعد الحفلة ، فإذا رضيتم أن يحضروها فلندخل اليهم قبل الطعام ، وإذا كانت أراؤكم متفرقة فلنقترع شأننا في كل خلاف .

فسأله سائل عن أسماء أولئك الزائرين .

فأجابهُ : إنهم متنكرون وسيحضرون الحفلة والبرقع على وجوههم .
- ولكنكم ستقرأون أسماءهم في محضر الجلسة غداً .

وبعد جدال قصير وافق الجميع على القبول ، فدخل الشعراء الستة إلى تلك للقاعة ، وكان فيها تسعة رجال مستترين بالبرقع ، لا يبدو من خلالها غير عيونهم وهم جازعون كأنهم ينتظرون فراغ الشعراء من حفلتهم كي يبحثوا في الشؤون التي قدموا للمباحثة فيها .

أما الشعراء فانهم حين دخولهم إلى القاعة اتشح كل منهم برداء كثير الألوان ، ووضع على رأسه شارة سوداء .

وكان في وسط القاعة هيكل يشبه هياكل الوثنيين ، وعند اسفله تيس حي ربط رباط غير متين ، وأمامه شيء من العشب لا يستطيع الوصول إليه وهو يرمقه بعين تدل على استحكام الجوع منه .

ثم جملوا يبخرون التيس والهيكل ، وبطوفون حولها وهم ينشدون الأناشيد على طريقة عباد الأوثان .

حتى إذا فرغوا من أناشيدهم وقف عميدهم وتلا خطاباً ناجي فيه آلهة الحرية والاحراج والغابات ، وجعل يظهر مظالم الملك وعسف رجال الدين ورضوخ الشعب تحت نير الظلم والاستعباد مستطرداً من ذلك إلى الحض على الثورة وكسر تلك القيود ، وان الشعب لم تعد تعوزه غير الإرادة فيهب هبته

ويطلق لنفسه السراح من تلك الاصفاد .

وبعد ان ذكر الداء والدواء نظر الى ذلك التيس المربوط وأمامه العشب لا يقدر على الوصول اليه قال : لا أرى مثلكم إلا مثل هذا التيس ، فانه إذا وخز وخزة شديدة أسالت دمه هبت فيه قوة أعانته على قطع الرباط والبلوغ الى ذلك العشب .

وكذلك انتم معشر المظلومين والبؤساء فاذا تار بكم زعماؤكم وسالت قطرات من دمائكم ظهرت فيكم تلك القوة الكامنة فتلتم عرش الظالم وبلغتم ما تريدون من الحرية .

وعند ذلك استل مدية وهجم بها على التيس فطعن بها عنقه طعنة اسالت دمه فلما أحس التيس بألم الطعنة نفر وشد على رباطه فقطعه واندفع إلى ذلك العشب بأكل منه غير مكترث لدمه السائل .

فتطلع الخطيب عند ذلك إلى اخوانه الشعراء وقال لهم : ليست فيسود الناس أشد من رباط هذا التيس ، وليست قوتهم اضعف من قوته ، فغزوم بخناجر اقوالكم وعلوهم كيف يثورون فيعرف كل حده ويقف عنده ويعلم الملك ورجال الدين ان ايدي الشعب فوق ايديهم العاتية .

وكان يخاطب الشعراء دون ان يلتفت الى بقية الحاضرين ، فلما أتم خطبته صفقوا له تصفيقاً شديداً فمادوا الى ما كانوا عليه من الطواف حول الهيكل وهم يندشون انشودة ملؤها الطعن برجال الدين .

حتى اذا اتوا الطواف خرجوا من تلك القاعة إلى قاعة الطعام دون أن يلتفتوا إلى الضيوف المتنكرين ، فلم تمر هنيهة حتى علت اصوات ضحكهم بين رنين الأقداح .

وكان بارداليان يتطلع من ثقب الباب ويسمع كل ما يجري فدهش ، ولم يفهم شيئاً من استمرار تلك الصلاة والأناشيد والطواف حول الهيكل وتنكر الزائرين دون الشعراء وعدم مبالاة الشعراء بالزائرين .

الى أن بات الزائرون وحدهم وكشفوا البراقع عن وجوههم بعد أن خلا المكان ^{٣٣} فزادت دهشة بارداليان إذ عرف اكثر اولئك المتنكرين فقد كان اول من كشف القناع منهم الأسقف سوربين وهو رئيس اساقفة باريس في ذلك المهد فانه كشف قناعه مغضباً وقال :

أيحضر مثلي هذه الحفلة المنكرة وليس فيها غير البدع والتجديف بالدين والطعن برجاله ، اني إذا من الأغرار وقد كان يجب علينا ان نجتمع في غير هذا المكان الذي دنسه الكفر .

فكشف رجل آخر قناعه واجابه قائلاً :

هون عليك يا نيافة الأسقف فاننا لو خيرنا لاخترنا ، ولو وجدنا اصلح من هذا المكان للاجتماع به لما جئنا به ولكننا بتنا في موقف شديد وقد بثت حولنا العيون والأرصاد ، فلو خلونا حتى في منزلك لما امنا ان نهاجم فجأة ونساق غنوة الى الباستيل .

وكان هذا المتكلم كوسين رئيس الحرس الخاص في بلاط الملك .

فاكبر بارداليان أمر خيانتة ، ولم يكذب ثوب من دهشته بعد سماع حديث الرئيس ، حتى رأى الدوق هنري دي كيز ، وقريبه الكردينال دي لورين .

فالتفت الكردينال الى الأسقف وقال له لندع الآن أمر هؤلاء الشعراء وما جأروا به من المبادئ فسينال كل عقابه ولننظر في شؤوننا .

ثم التفت الى رئيس الحرس وقال له : هل فحصت الأبواب يا كوسين ؟ - نعم يا سيدي وأنا ضمين الأمان .

فخاطب الدوق دي كيز عند ذلك جميع الحاضرين قائلاً : لنبعث الآن في ما أتينا لأجله . وأنت يا سيدي الأسقف خفف روعك فسيكون ما تريد ان يكون .

ومتى اقتربت الساعة وتولى عرش فرنسا من يجب أن يتولاه يبطل الكفر
من هذه البلاد ولا يجسر رجل أن يفكر بما جاهر به هذا الشاعر .

فلنبحث الآن فاني مستعد للبحث .

فتطلع الجميع الى الدوق بنظرة دلت على الاحترام الشديد ، وبدأ الدوق
الحديث ، فسأل قريبه الكردينال :

ماذا صنعت أنت ايها الخال العزيز ؟

فاجابه الكردينال قائلاً :

اني فتشت صناديق الأديرة تفتيشاً عاماً فوجدتها مكتنزة بالأموال وكرهت
أن تفسد كثرة المال أخلاق الرهبان فاخذت منهم فضول المال وهي كافية
للمشروع كافة نجاحه .

فاجابه الدوق : لا ريب انك من اكبر علماء الاقتصاد .

وأنت يا حضرة مارشال دي كافان : ماذا فعلت ؟

فاجابه المارشال بل الايجاز : لدي الآن ستة آلاف فارس متأهبون
للزحف .

- وأنت يا مارشال دي دامفيل ماذا فعلت ؟

فالتفت بارداليان فرأى ان هذا المارشال هو نفس الرجل الذي انقذه من
قطاع الطرق فوهبه جواده كالور ، أي هنري دي مونغورانسي .

أما هنري دي مونغورانسي صاحب تلك الجناية الهائلة التي عرفها القراء
في بدء هذه الرواية ، فقد أجاب الدوق قائلاً :

لدي يا سيدي أربعة آلاف محارب مسلحين بالبنادق وثلاثة آلاف فارس ،
ولكنني أطلب النظر في الشروط .

فقال له الدوق : لقد عرفنا شروطك فهي سجن أخيك فرنسوا وتعيينك
في مكانه رئيساً لأسرة مونغورانسي وتقليدك منصب أبيك وهو امارة الجيوش ،
أليس كذلك ؟

فانحنى هنري اشارة الى المصادقة ، وتطلع بارداليان اليه فرأى بارقاً نارياً
من الحقد قد نفذ من عينيه .

وعاد الدوق الى سؤال الحضور فقال : وأنت يا موسيو كيتالين ؟

- أما انا فاني بصفتي مدير سجن الباستيل فعلي ان احتفظ بذلك السجن
العظيم ، وعليكم ان تسلموني اياه على اني أتعهد ان لا ادعه يخرج من السجن
إلا الى المدفن .

فقال بارداليان في نفسه والعرق ينصب من جبينه : ترى من عساه يكون
هذا السجن العظيم غير الملك نفسه .

والتفت الدوق إلى كوسين فقال له . وأنت بماذا تتعهد ؟

- إني أتعهد بأن يكون حرس اللوفر أطوع لي من البنات ، وأنتي
لدي أول أمر يصدر الي منكم ، أقبض على ذلك السجن وأحمه ببركبة
إلى الباستيل .

فقال الدوق : وأنت يا مارسيل ؟

فوقف مارسيل وهو رجل ضخم الجثة هائل الخلفة فقال :

- إني شيخ مشايخ الحارات ، وان جميع العامة يمثلون لي من الباستيل
إلى اللوفر .

- وأنت يا حضرة الأسقف ؟

فاجابه رئيس الأساقفة قائلاً :

- إني سأبدأ غداً باصدار الأوامر إلى جميع القسس في جميع الكنائس
فيحملون على شارل حملات منكرة ويلقبونه بحامي الكفار ، ومؤيد
الكفر والبدع .

فأطرق الدوق دي كيز مفكراً كأنه يتردد قبل الاندفاع في هذه
المؤامرة الهائلة .

وكان الجميع يحترمون سكوتهم إلى أن قطع مارشال دي كافان خيط

تصوره فقال له : وماذا نصنع بالدوق أنجو والدوق النسون ؟

فارتعش الدوق دي كيز وقال : أخو الملك ؟

وقال رئيس الأساقفة : إننا نقطع رأس الحية ونتبع بها الذنب .

فوقف الدوق عند ذلك وقال : لقد كفى ما فعلناه اليوم أيها السادة ،
لقد اجتمعنا وعرفنا على ماذا نعتمد للبلوغ إلى غايتنا العظمى فاعتمدوا علي
وثقوا بي .

وليكن اعتمادكم علي في نجاح الغاية وثقتكم بي في تنفيذ ما أربكم علي ما
وعدتكم به ، فما أنا من أهل النكث بالعهود وسينال كل منكم ما يبتغيه ،
فاعلموا ان الساعة الرهيبة قد دنت وسترد اليكم أوامري فتعملون بها ، أما
الآن فلنفترق كي لا نشير الظنون .

فوقفوا جميعهم وجعل كل منهم يدنو من الدوق فيحويه تحية الملوك كأنه
قد استولى على العرش ويقبل يده بملء الاحترام .

ولما فرغوا من ذلك كان الدوق والكردينال أول المنصرفين فخرجوا من
الغرفة السوداء المقيم فيها بارداليان .

ولكن بارداليان كان قد أسرع في النزول إلى الأقبية .

وخرج بعد الدوق رئيس حرس اللوفر ورئيس الأساقفة والمارشال
دي تافان .

ثم تلاهم شيخ المشايخ ومدير الباستيل .

ثم انطلق في أثرهما هنري دي مونمورانسي . وقد خرج وحده .

ولما انصرف الجميع رجع بارداليان إلى الغرفة وهو مصفر الوجه من هول
ما رأى وسمع .

لقد أوقفته الصدفة على سر هائل فجعل يرتجف لهذا السر خوفاً وهو لا
يخاف كرات المدافع .

فإن هذا البطل الذي لقي صدمات شعب برمته غير جازع واستقبل

الموت تحت أنقاض ذلك المنزل الذي هدمه وهو باسم ، فرق وجزع لهذا السر
العظيم الذي تملك به أولئك المتآمرين فباتت حياتهم بيده أو تملكوه فباتت
حياته بأيديهم . فإن الدوق دي كيز إذا عرف أن بارداليان وقف على سر
المؤامرة قتله بلا ريب .

ولم يكن بارداليان يهرب الموت ولكنه كان يخشى المكائد ، فقد
تمثل له ان الدوق وقف على أمره ، وانه يرى في كل زاوية رجالاً كامنين
له ، وانه يجد السم في الخبز الذي يأكله والشراب الذي يشربه ، فلم يعد
يستطع أن يعيش عيشته السابقة ، لأن الموت كامن له بالمرصاد ، ولا يعلم أين
هو فيلقاه .

ثم تمثل له ان الدوق والمتآمرين قد لا يعلمون بشيء من أمره وفي هذه
الحالة ماذا يجب أن يعمل ؟

أبكتني بالوقوف وقفة المتفرج على هذه المؤامرة الشائنة .

كلا . لأن نفسه العظيمة كبرت عن هذه الجريمة الشنعاء ، فإن بارداليان
لم يكن يجب الملك ، بل انه لم يكن يعرفه ، ولكنه قال في نفسه : ان هذا
الملك ملكي فلا أسكت عن المؤامرة مهما كان من إسائه إلى الشعب .

وقد تمنع ملياً في أمر هؤلاء المتآمرين ثم قال :

- ويح لهؤلاء الجاحدين إن كلا منهم مدين لهذا الملك الذي يريدون خلعه
بمنصبه وجاهه ، من الدوق دي كيز إلى الكردينال إلى المارشال مونمورانسي
إلى مدير الباستيل ، ولو كان في نفوسهم ذرة من الشرف لما أقدموا على هذه
الجريمة المنكرة وجحدوا فضل مولاهم .

ومع ذلك فماذا أصنع ؟ أبوح بسرهم للملك ؟ معاذ الله أن أفعل هذا
الفعل الشنيع ، وأنزل نفسي منزلة الوشاة وأسافل الجواسيس ، إذن ماذا
أصنع ؟

وقد مرت هذه التصورات في خاطر بارداليان بسرعة البرق ، ثم هز

كتفيه شأنه حين تشكل عليه الأمور فستر وجهه بردائه وخرج من الغرفة إلى الرواق .

وكان لوبين لا يزال واقفاً على الباب وقد حاول أن يقفله بعد خروج مونغورانسي ليقينه ان جميع المتآمرين قد انصرفوا ولم يبق منهم أحد .

ولما رأى بارداليان قادماً وقد ستر وجهه بردائه اكبر وجوده في ذلك المكان وتحول ذهوله إلى رعب فقال له بلهجة المنذعر : ماذا تفعل هنا؟ ومن أين أتيت؟

غير أن بارداليان لم يمهله أن يتم سؤاله فصدمه صدمة شديدة القته على الأرض ووثب مسرعاً إلى الشارع قبل أن يعرفه لوبين .

وحده

فأضيقه

منتندى

أبلاس

جراة بارداليان

كانت أبواب الفندق الذي خرج بارداليان من بابه السري مقفلة في تلك الساعة وكذلك المخازن المحيطة به .

وكان جميع سكان ذلك الشارع نياماً وقد أقفلت نوافذ المنازل ، وأفقر الشارع من المارة فعم السكون وساد السكوت .

وكانت باريس التي يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاثة ملايين لا تحتوي على أكثر من مائتي ألف نسمة ، وهي اليوم عاصمة العواصم ، وأم المدائن ، ولكنها كانت في ذلك الحين تشبه القرى في هذه الأيام ، وهي كثيرة الوحول مخربة

الشوارع قدرة الأزقة ، إذا أظلم الليل أسرع الناس إلى بيوتهم ولم يبق في الشوارع غير اللصوص وقطاع الطرق ، فمن اضطر إلى الخروج من منزله في الليل كان من أهل الجراءة والاقدام أو خرج في موكب من الحراس .

فلما برح هنري دي مونغورانسي الفندق سار غير هيباب في شارع سانت دانيس ، حتى إذا توسط الشارع سمع لفظاً ورقع أقدام فقال في نفسه لا شك انهم من اللصوص . فجرد خنجره ووقف متأهباً مختبئاً في زقاق إلى أن يمر القادمون .

ولكنه لم يطل وقوفه حتى سمع من لهجة أولئك القادمين وارتفاع أصواتهم بالحديث ما استدل منه انهم غير لصوص فالتف بردائه متسراً وجعل يصفي إلى ما يتحدثون عنه حين مرورهم به ، فسمع أحدهم يقول لرفاقه : لا تعجبوا أيها السادة ، ولا تضحكوا فإن لهذه المرأة اسماً .

فارتعد مونغورانسي وقال : ماذا اسمع ان هذا الصوت صوت الدوق دي أنجو .

ثم سمع أحد رفاقه يسأله قائلاً : ما اسم هذه المرأة يا سمو الدوق ؟
- إنهم يلقبونها في شارع سانت دانيس ، بالمرأة السوداء ويدعونها السيدة حنة .

- ما هذا الاسم ، انه يدعو الى التشاؤم .

- ربما ، ولكني لا أبالي باسم المرأة ما زالت ابنتها حسناء ، وأية فتاة أجمل من لويزا ، فإن عيني لم تقع على أبداع منها وسترون ما رأيت ، فاني أريد ..

وهنا ضاع صوت الدوق بالهواء فلم يعد يسمع هنري دي مونغورانسي شيئاً أو اكتفى بما سمع ، فإنه لم يكذب يسمع اسم حنة ولويزا ، حتى اختلج قلبه وارتعشت أعضاؤه ، فانطلق في أثر الدوق دي أنجو ورفاقه دون ترو ، فإن هذين الاسمين قد صعقاه وذكراه وجداه القديم ، فهاج غرامه في صدره هياج

البراكين وجعل يقول في نفسه :

ترى من عسى أن تكون حنة وابنتها لوزا ، إن لم تكن هي ؟
ولذلك عول على أن يعرف الحقيقة ولو افضى به الأمر إلى سؤال الدوق
أخي الملك .

ومشى في أثر الدوق ورفاقه وكانوا قد تقدموه فلحقهم على قيد بضع
خطوات ، وجعل يسير وراءهم وهو يقول : ما هذا الغرام القاتل ، أمير بي
سنة عشر عاماً لا أراها ، ثم اذا ذكر امامي اسمها رجعت غرامي القديم إلى
شد ما كان عليه .

ثم اضطربت أفكاره وامتزج غرامه بالخوف فقال : لكن اذا كانت هي
بعينها ، وكانت مقيمة في باريس مع ابنتها ، ثم اذا علم أخي فرنسوا بوجودها
وأعانتته الصدفة على الاجتماع بها ، وعرف خيانتني ، فماذا يكون من أمري
معه .. انه يتصدى لي كما تصدى لي في غابات الكستنا ويناقشني الحساب ،
فماذا أقول ومن يكون ترجماني غير السيف .

وهنا مسح العرق الذي كان ينصب من جبينه ، وضحك ضحكاً هائلاً
وأبرقت عيناه ببارق دل على ما تهيج في قلبه من براكين الحقد والانتقام ،
فقال : كلا انني لا انتظر أن يستولي الدوق هنري دي كيز على عرش فرنسا
كي أغدو رئيساً لأسرة مونمورانسي ، لقد طالت حياة أخي فرنسوا فليمت إذ
لم يبق بد من موته .

وعند ذلك رأى الدوق ورفاقه قد وقفوا عند منزل هنري ، فاستند هنري
مونمورانسي على الجدار ، وجعل ينظر ما يفعلون ويسمع ما يقولون ، فسمع
الدوق أنجو يقول : اين المفتاح يا مورفر ؟

... انه معي يا مولاي

... إذا هاته وتقدموا معي إلى الباب .

فقال هنري في نفسه : لا بد لي أن أعلم ما يصنعون .

ثم خرج من مخبأه وهم أن يتقدم ولكنه اضطرت إلى التوقف فجأة ذلك انه
رأى رجلاً برز لهم عند باب المنزل وبأدرهم قائلاً بملء السكينة : قسماً
بييلاطس وباراباس انكم أيها السادة تكرهونني على مخالفة والدي فلتسقط
تبعة هذا العصيان على رؤوسكم .

فتراجع الدوق دي أنجو منذهلاً وهو يقول : من هذا المجهنون ،
وكيف أتى ؟

وقال موجيرون : انه الرجل الذي لقيناه منذ حين . ثم خاطب الرجل
قائلاً : أراك أصبحت حارساً على باب منزلك لا تفارقه .

فأجابه بارداليان قائلاً : هو ذاك فاني أحرسه في النهار لمعاقبة السفهاء
الذين يضحكون مستهزئين .

فقال له كاليبس : وفي الليل ؟

- لوقايتيه من اللصوص

فهاج غضب الدوق وقال له : كفى أيها المهزار فاذهب من هنا .

فالتفت بارداليان إلى موجيرون وكاليبس وبقية العصابة فقال لهم
أرجوكم ان تمنعوا خادمتكم عن المداخلة في شؤوننا أو أؤدبه ابلغ تأديب .
فارتعد رجال العصابة غيظاً وقالوا : ويحك أيها الشقي اننا لا نمهلك إلى
الغد فنقتلك بل يجب أن تموت الآن .

فاستل بارداليان حسامه ، وهجم مورفر عليه من غير ان يفوه
بكلمة ، ولكنه لم يلبث ان تقدم حتى صاح صيحة ألم ، لأن بارداليان ضربه
بحسامه كشحاً ، فوقع على وجه مورفر وقع سوط من الفولاذ وجرحه
جرحاً كبيراً .

ثم رجعت إلى موقفه وهو يقول انكم أبيتم تأجيل المبارزة إلى الصباح ،
فليكن ما تريدون .

لكن ما عسى يقول أبي إذ وجدني في هذا الموقف . انه يلومني بلا

ريب فلتسقط عليكم تبعه اللوم .

وعند ذلك هجم عليه موجيرون وهو يرغي ويزبد كالجمال فضربه بارداليان على يده ضربة اطارت حسامه .

فهجم كاليس بدوره ، لكن الدوق قال بلهجة الامر توقف يا كاليس .

ثم حل بينه وبين بارداليان واقترب منه وهو من غير سلاح .

فأسند بارداليان رأس حسامه على جزمته ووقف ينتظر ما يريد أن يقوله الدوق .

واما الدوق فقد قال له : انني اعترف لك بالبسالة والجرأة النادرة ، ولكنك قلت منذ هنيهة قولاً ستكون عليه من النادمين حين تعرف من الذي يخاطبك .

فأجابه : لا أنكر انني اسأت اليك بوضعك في منزلة الخدم ، لذلك أعتذر عن تلك الاساءة .

- وانا قبلت اعتذارك ، أما وقد زال بيننا سوء التفاهم فلا بد لي أن أقول لك بإخلاص ان لي شأناً في هذا المنزل .

- ولماذا لم تسرع بهذا القول يا سيدي ؟ فقل اي شأن لك فيه ؟

- شأن غرام .

- الحق انني لم أكن مرتاباً في صحة ما تقول .

- اذا استدعنا وشأننا وتذهب في شأنك .

فأجابه بارداليان بسكينة : كلا !

- احذر عاقبة هذا العناد فقد اشتهر عن الملك انه قليل الصبر ، ولكن

صبر اخيه اقل .

وقد صرح الدوق هذا التصريح وحاول ان يتعالى اظهاراً لعظمته فانه

كان قصير القامة حتى ان رأسه لم يبلغ كتف بارداليان .

اما بارداليان فانه تظاهر انه لم يعرف ان الذي يكلمه هو اخو الملك ،

فأجابه بلهجة بساطة قائلاً :

يسوؤني يا سيدي ، على ما شرفتنني به من صداقتك الحديثة ،

ان اضطر الى رقص طلبك ، فألتبس منك باسم هذه الصداقة ، ان لا

تلج بالسؤال .

فأصفر وجه الدوق من الغضب ورفع يده يحاول صفع بارداليان .

ولكنه شعر في الوقت نفسه أن رأس سيف بارداليان قد بلغ إلى عنقه

فهاج رفاق الدوق هياج المجانين ، وركضوا إلى مولايم فأبعده وحالوا

بينه وبين بارداليان ، وعند ذلك قال كاليس ، لنهجم على هذا الوقح فلم يبق

يد من قتله .

غير أن الدوق منعهم عن الهجوم وقال لهم بصوت يتهدج من الغضب

والخجل : أرجعوا فلا حيلة لنا اليوم مع هذا الرجل فان موجيرون جريح

وكذلك مورفر ، فاهل بنا نذهب الآن وسنعود ونكون كثيرين

ثم التفت إلى بارداليان وهو ينظر نظراً المحترس وقال له إلى اللقاء

وستردك اخباري .

فأجابه بارداليان مبتسماً أرجو أن تكون حسنة .

وبعد هنيهة توارت العصابة عن ا نظار ، فوقف بارداليان نحو ساعة لا

يفارق الباب ، وهو يخشى أن يعود الدوق كما انذر .

فلما مضت ساعة ولم يعد أيقن أنه غير عائد تلك الليلة ، ففتح باب الفندق

وصعد إلى غرفته .

وهناك فتح النافذة وأقام ساعة أيضاً يراقب الشارع فلم ير بشراً .

وكانت نافذة غرفة لويزا مقفلة وهي نائمة دون شك .

أما بارداليان فإنه أوشك أن يندم على ما فعل ، فإنه عرف أخا الملك

حق العرفان ، وأدرك خطورة موقفه الحرج لا سيما وأن الدوق دي أنجو ،

وهو ولي العهد ، كان محبوباً في ذلك الزمن من الشعب ، فإنه أبلى في حروب

الهُوكينوت الكبرى بلاء حسناً ، وأظهر من الحنكة والبسالة ما كلفه
بأ كليل الفخر .

وقد أدرك بارداليان أنه بات في أشد حالات الخطر ، فإن الدوق إذا لم
يعرفه اليوم فلا بد أن يعرفه غداً لاشتهار أمره بين الناس بعد تلك المعركة
التي قاوم فيها الشعب دفاعاً عن ملكة نافار . فقال في نفسه : لا شك اني
ارتكبت خطأ لا يفتقر ، فان الدوق إذا عرفني بث لا محالة من الهالكين .
وأية فائدة لي من التعرض لهؤلاء الأشراف . ابلغ من جرأتي وقحتي أن
لا احترم شقيق جلالة الملك ...؟

ويح لنفسي لقد ذهب مني كل شعور حي ، وفقدت كل عاطفة احترام
وخالفت أبي في كل ما أوصاني به ، فأني عقاب يفيي مجرمتي بعد هذا ؟
وبعد ، فأني دليل صريح وجدته يدل على ان الدوق كان ينوي اختطاف
لويزا ، وهذا البيت كثير السكان مزدحم بالنساء والفتيات . ألا يمكن أن
يكون مطعمه إلى غير من أحب .

وبعد أن شتم نفسه اقبح شتم حكم أن للاقدار بدأ في شؤونه تديره كما نشاء
لا كما يريد ، وعزم عزمًا أكيداً في تلك الساعة على أن ينهج حسب وصية أبيه
وان لا يخالفها في شيء .

ولم يكن بارداليان من أهل البلاهة ، ولم يكن بسيط القلب كما كان يبدو
من بعض اعماله ، فانه كان يتكلف البساطة تكلفاً حين يحتاج اليها .

ولكنه كان في عصر رخصت فيه النفوس وبات المجد كل المجد فيه للسيوف
والشريف من بلغ بالحسام والأقدام ما يبلغه الناس اليوم بالحيلة والسياسة ،
فكان الناس يهاجمون ويدافعون غير مكترئين للأسباب .

ولذلك كان يود بمثل رضاه ان يعمل حسب وصية أبيه . غير أن الشباب
ومقتضيات ذلك العصر كاتا يدفعانه إلى العصيان ، فيندفع في كل مأزق ويلقي
بنفسه في كل تيار ، فاذا خرج من تلك المضايق ذكر وصية أبيه وندم حين

لا ينفع الندم .

وآخر ما نقوله في وصف هذا البطل انه لم يكن يعرض نفسه كل حين
للموت ابتغاء مجد أو انتصار لغرض نبيل ، بل كان يقاتل لانه يلذ له القتال .

وأخيراً قال في نفسه ان مثل الدوق دانجو على جلال قدره وسمو مكانته
لا يليق به ان يتداني إلى اختطاف بنات لا نصير لهن ، فهو قد نال ما يستحقه
من العقاب .

ثم مرز كتفيه كأنه قد وجد عزاء بهذه النتيجة ، ولكنه عاهد نفسه ان
ينهج في المستقبل الحكمة وان يحافظ على وصية أبيه بقدر الامكان .

وعند ذلك تذكر انه اتفق مع موجيرون وكاليس على المبارزة في الصباح
فقال في نفسه : اني جرحت أحدهما جرحاً بالغاً ، وسأبحث عن فرصة صالحة
للتنكيل بالآخر ، وأما ذهابي إلى اللقاء فهو غرور محض لا يقدم عليه عاقل
فاني لا أجد هذين المتبارزين ، بل أجد جميع أعوان الدوق فينهبون جسمي
بسيوفهم ، وإذا ابقوا علي ذهبوا بي إلى الباستيل .

ولما بلغ إلى هذا الحل المأمون بعد طول الاجهاد والتفكير ، اطمأن
وارتضى ونام نوماً هادئاً وهو يحلم بلويزا .

ولنعد الآن إلى هنري دي مونرانشي ، فقد تركناه مختبئاً في عطفة الزقاق
يراقب ما يحدث ، فرأى وسمع كل ما جرى دون ان يعرف بارداليان ، فانه
لم يره غير مرة واحدة في ظلام الليل منذ بضعة أشهر .

وقد لبث واقفاً في مكانه فرأى تداخل بارداليان وذهاب الدوق مع رفاقه
ودخول بارداليان إلى الفندق .

فلما وثق أن الشارع بات خالياً خاوياً خرج من الزقاق وذهب فوقف
بأزاء ذلك المنزل الذي كان الدوق يحاول الدخول اليه .

وهنا عاد الى سؤال نفسه يقول :

من هي حنة وابنتها لويزا . . انها هي دون ريب ، فان الاتفاق قد يكون

باسم لا باسمين . انها هي دون ريب ، ولكن يجب أن أؤكد وسأعود في
النهار .. ولكن الدوق قد يخطفها مع ابنتها قبل عودتي .. إذا لا بد لي من
البقاء هنا إلى أن أقف على الحقيقة .

وكانت عيناه شاخصتين إلى المنزل والافكار المضطربة تجول في خاطره
فتتمثل له تلك الليلة التي ارتكب فيها جريمة الهائلة .

فبينما تهيج تلك الذكرى غرامه القديم يفكر باخيه فتتهيج أحقاد
وتضطرب أفكاره اضطراب الرياح حين العاصفة ، وتقلب تلبد القيوم
السوداء ، ثم تحتك بعضها ببعض فتقده ناراً يخرج من عينيه خروج البرق من
خلال القيوم .

وقد مضى الليل وهو في موقفه وطلع النهار ، وأخذت الدكاكين تفتح
أبوابها والناس يمرون في الشارع ويستغربون وقوف هذا الرجل قرب ذلك
البيت ، فاذا دفع الفضول أحدهم إلى الدنو منه بغية سؤاله نظر إليه نظرة
منكرة ماؤها الوعيد فابتعد .

ولبت هنري دي مونت مورانسي في موقفه حق تعالى النار وفتحت نافذة في
أعلى المنزل وبرز منها رأس امرأة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ،
فان هذا العاشق القديم والأخ المنتقم الخائن صاح صيحة دهش إذ عرف ان
هذه المرأة حنة دي بيانس زوجة أخيه .

وحده قاضيه متندى ليلاس

كاترين دي مديسيس

في الساعة التاسعة من المساء كانت كاترين دي مديسيس وريجياري الفلسي
ينتظران قدوم الشفالييه بارداليان في ذلك المنزل الكائن على الجسر الخشي
حسب اتفاق الفلسي وبارداليان كما يذكر القراء .

وكانت الملكة جالسة حول مائدة وهي منهمكة في الكتابة ، بينما كان
الفلسي يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات بطيئة وهو ينظر من حين إلى
حين إلى ما تكتبه الملكة .

ولم ينظر إلى الكتابة خلصة ، بل ينظر كمن يحق له الاطلاع على أسرار
أم الملك في الظاهر والملكة الحقيقية في الباطن .

وكانت الملكة قد كتبت كثيراً من الرسائل وختمتها وهي مع ذلك لا
تزال تكتب ، فلا تسكاد تفرغ من كتاب حتى تبدأ سواه .

والغريب في هذه الملكة انها كانت تشبه بسرعة خاطرها كبار المتمرنين
من الكتاب ، فلا تقف عند تعبير ولا تكتب كلمة لغو ولا تمحو حرفاً ولا
تفكر قبل الانشاء كأنما أفكارها مخزونة بذلك القلم .

فبعد أن فرغت من كتاب كبير كتبه إلى ابنتها ملكة اسبانيا بينت لها
فيه حالة الاحزاب الدينية في فرنسا ، وطلبت اليها ان تقنع زوجها ملك
اسبانيا بالمدخلة ، كتبت الى المهندس فيليب ديلورم الخاص بها ترشده

ارشادات يقصر عنها كبار المهندسين عن قصر التويلري .

ثم كتبت إلى كوليني وهو من كبار زعماء الهوكينوت كتاباً رقيقاً كي تؤكد له ان معاهدة الصلح ستكون مرعية ثابتة . ثم كتبت كتاباً إلى البابا ، وآخر إلى رئيس التشريعات تأمره باعداد حفلة .

وكانت بين كل كتاب وآخر تنظر إلى الفلكي وتقول له : أياي هذا الشاب ؟

فيجيبها : أنه يأتي دون ريب ، فهو فقير ولا عضد له فلا يضيع مثل هذه الفرصة .

- أنه باسل كثير الأقدام ، لم أر أشد منه جرأة ولا انفذ منه حساماً

- هو ذاك ، لقد أصبت في وصفه ، ولكن بأية مهمة تريد ان تستخدميه ؟

فوضعت الملكة القلم على المائدة ونظرت الى الفلكي نظرة معنوية فقالت : إني محتاجة إلى الرجال الأشداء يا رينيه ، ولا سيما من كان منهم مثل هذا البطل .

- ولكن لدينا مورفر .

- صدقت ، غير أن مورفر بات يقلقني ، فانه يعرف الكثير من أموري وفوق ذلك فقد جرح أمس بمبارزة ، لأن يده قد ارتجفت ، وقد تحدث حادثة مفاجئة في دقيقة هائلة يتوقف فيها مستقبل مملكة بأسرها على سيف رجل ، فاذا اضطرب ذلك السيف لحظة في يد ذلك الرجل قضي على تلك المملكة .

أما هذا الفتى الذي ننتظره فان يده لا تضطرب يا رينيه .

- وسيكون لنا يا كاترين فاطماني .

فختمت الملكة الكتاب الأخير الذي كتبتة وغيرت الحديث فقالت له :

أعرفت يا رينيه ان القصر الذي بنيته لك قد تم ، وقد أعطوني اليوم مفاتيحه ؟ ..

لقد شاهدته ، يا ملكتي العزيزة من الخارج ، وهو من أجمل القصور

- وماذا تقول في ذلك البرج الذي بنيته لك في قمته ؟

- أقول انه لم يشد مثله الى الآن في باريس ، وإنه جاء طبقاً لما أتمناه ،

فهو خير مرصد يدني مني الكواكب التي جعلها الله كتاباً مفتوحاً فوق رؤوسنا ، يقرأ فيه من يعرف غوامض أسرارها ، ما سطر للانسان في لوح المقدور .

وعادت الملكة إلى حديثها ، فقالت له : أنت واثق من قدوم هذا الفتى ؟

- كل الثقة . . . ولكن ما لي أراك قلقة إلى هذا الحد ؟ وما هذا

التعلق بهذا الفتى ؟ .. اليس لديك ما يشبه الجيش من أبطال الأشراف ، وحاذقات النساء ؟

- نعم يا رينيه ، إن لدي مائة وخمسين فتاة حسناء أستغويهن مائة وخمسين عدواً فأعلم ما يضمرون لي من الكيد . . .

نعم إني بثت جواسيسي في قصور الدوق دي كيز وملكة النافار ، فصرت أعلم مقاصد من يريد الفتك بي فأكون أسبق إلى الفتك به ، وأصبح قاتلة بعد ان أكون مقتولة .

نعم . . . ان لدي جيشاً من الأبطال النبلاء ، أحكم بهم باريس واللوفر . . . نعم ، إن لي كل ذلك ، وهي قوة هائلة ، ولكنني لا أزال حذرة يا رينيه .

- ومما تحذرين ؟

فوضعت الملكة رأسها المصفر بين يديها ، ثم عادت إلى ما كانت عليه ،

فنظرت إلى الفلكي نظرة النسر ، وقالت له بصوت أجش : إني عندما أتيت إلى فرنسا كان لي من العمر أربعة عشر عاماً وأنا الآن في الخمسين ، فكيف تكون المدة التي قضيتها ؟
فاندهل رينيه لسؤالها وقال : ستة وثلاثين عاماً .

— إذا ، أعلم اني قضيت هذا العمر الطويل بعذاب لا يصبر عليه سواي ، ولا يطيق احتماله بشر ، والناس يحسبون إني أتنعم بنعم الملك فكنت محتقرة مهانة مكروهة وقد بلغ بهم الكره انهم أنزلوني منزلة الخدم ، ولا جرم فقد بدأ هذا الكره ليلة زفاني .

فقاطعها رينيه قائلاً : كاترين ما هذه التذكريات المؤلمة ؟

فأجابته بصوت أبح : إني أعيد هذه الذكرى لأنها تجدد ما كادت تدفنه الأيام من الحقد ...

نعم إن إهانتي بدأت ليلة زفاني ولو عشت مائة عام أيضاً لما نسيت تلك الليلة حين أوصلني زوجي ولي عهد فرنسا الأول إلى غرفتي بعد الزفاف فأنحني أمامي وانصرف دون ان يفوه بكلمة

وقد فعل مثل ذلك في الليلة الثانية وما تلاها من الليالي ، ولما استوى هذا الزوج على عرش فرنسا لم أكن أنا الملكة بل كانت الملكة الحقيقية حظيته ديانا دي بواتييه .

ثم تعاقبت الأيام ودرجت الليالي وهو يصليني بنار الوحدة إلى ان علمت يوماً انه يريد طلاقي ، فجزعت جزعاً شديداً وناديت كاهني واعترفت له وسألته عن السبب الذي يدعو الملك إلى طلاقي .

أتعلم يا رينيه بماذا أجاب ؟ .. أجابني أن الملك يدعي أنني شؤم على العائلة .

فاصفر وجه الفلكي وأخذ كرسيًا فجلس أمامها .

وعادت الملكة إلى حديثها وقالت : إني كنت شؤماً على العائلة. أسمع

إني كنت أميت كل من تمسه يدي كما كان يقول الملك هنري الثاني . ويظهر أنه كان مصيباً يا رينيه فيما يقول : لانه بعد ان شفعت بي خليلته نفسها ديانا دي بواتييه ، رجع عن طلاقي ، وبعد ان شفعت بي القسيس رضي أن يجعلني زوجة حقيقية ، وبعد ان ولدت له البنين ، أعرفت ما أصيب به هؤلاء البنون ؟ ..

إن فرنسوات مات وهو في العشرين من عمره بعد ان حكم عاماً واحداً وكانت وفاته بعلّة في الأذن لم يعرف أصلها إلى الآن غير ان امبرواز باريه قال لي انه مات بالانحلال .

وهنا توقفت كاترين هنيهة فمسحت حبينها ، ثم عادت إلى الحديث فقالت بصوت أجش :

— أنظر إلى ولدي شارل إنه يصاب كل حين بنوبات عصبية هائلة حتى إني بت أخشى ان تفضي به هذه النوبات إلى الجنون والانحلال القوي العقلية كما أصيب أخوه فرنسوا بالانحلال القوي الجسدية .

ثم انظر إلى الدوق دي النسون ولدي الأصغر ، ألا ترى في ملامح وجهه ما يدل على سوء المصير ؟

إذا لا يبقى من بني غير الدوق دي انجو (وهنا رق صوتها وتهدج حنوياً) فهو قوي نشيط ليس كذلك ؟

نعم ، انه كذلك .. ولكني ربيته وخبرته ، فهو لا يستطيع أن يجمع فكركين .

ثم وقفت وقالت : إن فرنسوات وشارل مقضي عليه بالموت وهنري سيرقى إلى العرش قريباً دون شك ويضع على رأسه الضعيف ذلك التاج الثقيل الذي لا بد ان يسحقه .

ويظهر لك مما تقدم ، انه يجب ان أكون شديدة قوية لأحمل هذا العبء الثقيل ، عبء إدارة المملكة ، بينما ملكها يكون متشاكلاً عنها

بلاهي الصبي .

ثم مشيت في الغرفة بخطوات غير موزونة ، وعادت الى الفلكي فقالت :
نعم ، لا بد لي من إدارة المملكة كي لا تبقى تحت رحمة أميرات كيز وكولينبي
ومونغور نسي .

إن الدوق دي كيز يارينييه بلغت به الجراءة يوماً انه أخذ مفاتيح قصر
الملك ، فكنت أنا شبه أسيرة في البلاط وان كولينبي لا هم له إلا أن ينقل الملك
من أسيرة بوربون وإن كثيرين غيرهما يحاولون تمزيق هذه المملكة وأنا أذرد عنها
دفاعاً عن حقوق ولدي .
- أي ولد تعنين ؟

- ولدي الدوق انجو الذي سيملك قريباً فهو وحده الذي يحبني ويعرفني
حق العرفان .

فأطرق رينييه برأسه وقال بصوت خافت كأنه خشي ان يسمع والآخر
يا سيدتي ، إنك لم تذكره بحرف ؟
فارتعشت الملكة وقالت له : أي ولد آخر تعني ؟ . وماذا تريد
بهذا القول ؟

ثم نظرت اليه نظرة هائلة لم يطق احتمالها وقالت : أراك كأنك فقدت
الصواب ، إحذر بعد الآن ان تعود إلى مثل هذا السؤال .

- صدقت ، ولكني لا أجد بدأ من الكلام . لا تخشي يا سيدتي إذ ليس من
يسمعنا فقد اتخذت الاحتياطات ولا يوجد سوانا في هذا المنزل وإذا كنت قد
عولت على الكلام فليس لأن هذا السر أرهقني وقضى علي بالهم الملازم ولكني
سألت النجوم وأجابتنني .

فقطبت كاترين حاجبيها وقد وجف قلبها ، لأن هذه المرأة التي لم تكن
تخاف الآثام ولا ترتعش للجريمة كانت ترتعد خوفاً من النجوم .
وكانما رينييه الفلكي كان واثقاً من أنها ستصفي اليه بعد ان أنذرهما بالنجوم

واندفع في حديثه قائلاً :

- إنك تنامين يا كاترين ملء جفنيك لالتحسين لشيء حساباً ، ولا تفتكرين
بذلك الولد الآخر .

أما أنا إني لم أعرف الرقاد منذ عهد بعيد ، وإذا أنهكني التعب وغفت
عيني تمثل لي حلم واحد هائل لا ينفك يعاودني كلما غفوت وأرى الأشباح نفسها
تحيطني وتجلس علي سريري .

إني أرى كلما غفوت رجلاً خارجاً من قصر في ليلة حالكة الأديم ، وأرى
العشيقة التي ولدته تشير اليه بيدها إشارة قاضية لا رحمة فيها .

ثم أرى هذا الرجل يبكي ويلتمس ويستشفع فلا يجد شفيماً ولا يجاب له
ملتمس لأن العشيقة قضت عليه القضاء المبرم .

يخرج هذا الرجل من القصر وقد لف بردائه الطويل طفلاً حياً يبكي ويصيح
كأنه يلتمس العفو ببكائه .

ولكن الرجل كان يصم أذنيه وقد تحجر فؤاده وبات نذلاً جباناً لأنه خاف
تلك المرأة .

وانطلق بذلك الطفل والقاء على سلم الكنيسة ، ثم انصرف .

فعبست كاترين وقالت له بصوت أجش : لكنك نسيت امرأاً يا رينييه
بعودتك إلى ذكر الأشباح .

- كلا إني لم أنس شيئاً وحبذا لو تمكنت من النسيان .

وأنت تريدني اني قبل ان ذهبت بالطفل ، ووضعتني على سلم الكنيسة ،
وضعت في فمه نقطة من ذلك السائل الهائل الأبيض ... اليس هذا
الذي تعنينه ؟

دون شك ، لأن الطفل لا يستطيع ان يعيش بعد تجرع ذاك السم
أكثر من شهرين

وقد كنت في ذلك العهد شجاعاً قاسي القلب يا رينييه ، فما ندمت لأني

أحببتك لأنك قد أيدت ذلك البرهان الذي يثبت تهتك الملكة وغوايتها ،
ولكن أية فائدة من العودة إلى مثل هذه الذكرى .

نعم إني أحببتك ، لقد جئتني في عهد كان زوجي الملك يكرهني فيه على
احترام خليلته ، وكان أشرف البلاط لا يكثرثون لي كأني لم أكن امرأة ملكهم
حتى ان الخدم أنفسهم كانوا في ذلك العهد لا يصدعون بأمر أصدره إلا متى
أيدت خلية الملك هذا الأمر .

نعم إني حين عرفتك كنت مهانة محتقرة ذليلة قانطة ، فرأيت في عينيك
بارقاً يدل على الرحمة ، فمشى كلانا الى الآخر فكنا نقضي النهار بالحديث عن
فلورنسا ونحيمي الليل بالبحث عن النجوم .

ثم انك علمتني مهنتك فعرفت أسرار الفلك ، وعلمتني فظائع بورجيا فعرفت
أسرار السموم ، وبت بفضلك أملك الحياة والموت ، وأصبحت قادرة على
الانتقام كما أشاء ، فأضع الموت الزؤام في فص خاتم وفي عطر زهرة وورقة
كتاب بحيث بت أشد هولاً من بورجيا وأسرتة الهائلة

ومن ذلك العهد بدأ دور انتقامي ، بل دور هنائي يارينييه ، وكان
ذاك بفضلك ، فجازيتك بما اشتبهت ، وكنت والد ذاك الطفل الذي
تذكره الآن .

وكانت كلترين تبوح بهذه الأسرار الشائنة وتتكلم بصوت منخفض كأنها
تكلم نفسها او كأنها خجلت من نفسها .

ثم عادت إلى الحديث بعد ان مسحت جبينها فقالت
- أما الآن وقد بت الملكة المطلقة الأمر ، وانتقمت من أعدائي بما أوحاه
إلي الحقد الدفين وعولت على ان أبني على أنقاض المملكة الحاضرة مملكة عظيمة
تدمش العالم بأسره أراك تحدثني بأمور الماضي

واعلم يارينييه ان ما مضى فات ، ولا عبرة إلا في الغد ، فلماذا تحدثني
بهذا الطفل ؟

إنه لا شك التقطته يد مشفقة عن سلم الكنيسة حيث وضعته ، وهو دون
شك قد مات بعد التقاطه بشهرين بفضل ذلك السم الذي سقيته إياه فزج في
هاوية الأبدية وهو لا يعود .

فأخذ الفلكي يد الملكة بعنف وقال : وإذا كنت قد أخطأت ؟

فارتعدت الملكة وقالت كيف ذلك ؟

- إذا كانت النقطة التي سقيته إياها غير كافية لقتله فنجا باعجوبة من السماء
ولا يزال في قيد الحياة !
- يا لهول ما أسمع ، أيمكن ذلك ان يكون ؟

- إصفي إلي يا كلترين ... إني كنت أستشير النجوم في كل ليلة فكنت
أعلم منها ان الغلام لا يزال حياً يرزق .

ركنت في كل مرة أحسب نفسي منخدعاً ولكني كنت أجد في كل ليلة
ذات الجواب ، وهو ان الغلام حي .

فجعل العرق البارد ينصب من جبين الملكة وهي تكرر قولها : يا للهول
يا للهول !

وعاد الفلكي الى الحديث فقال :

- إني لم أكن أخبرك بشيء من ذلك وكنت أحتمل وحدي عناء ذلك الرعب
والتقريع . غير ان السكوت الآن يا ملكتي يعد جريمة ، ولم أكن في
خدمتك من الخائنين .

كانت هذه الملكة من أشد الناس مقدرة على إخفاء مؤثراتها والصبر على
شدائد الأمور وإظهار السكينة على وجهها ، في حين ان البراكين تشور في
قلبها فكانت سكينتها وعزمها الأكيد حين ملاقاته الخطر أشد خطراً
من سمومها .

ولما فرغ الفلكي من حديثه عادت الى سكينتها العادية ، وقالت له
بجل البرود :

- حسناً لنفترض ان الغلام حي فماذا تضرني حياته ... انه يعيش ولكنه لا يستطيع أن يعلم حقيقة مولده ...
انه يعيش ولكنه يعيش عيش اللقطاء في شارع مجهول فلا نحن نعلم اين يقم ولا هو يعرف اسم امه .

- كاترين كفاك تجلداً لأن الغلام في باريس وقد رأيت
وعادت الملكة الى الاضطراب ، وقالت : أنت رأيت ؟. اين اين ؟
- لقد قلت لك في باريس .
- ولكن متى ؟.. تكلم .

- أمس .. إنما يجب ، قبل كل شيء ، ان تعرفي اسم المرأة التي التقطته وربته .
- من هي ؟
- هي حنة دي البريت ملكة النافار .

فانقض هذا الاسم عليها انقضاض الصاعقة وقالت : يا للهول ولدي حي ..
أيكون برهان جريمي بيد ألد أعدائي وأنا غافلة .
- لكنها تجهل هون شك انه ولدك .

- أسكت وكفى ، لأن ملكة النافار لم تلتقط هذا الطفل الا وهي تعلم انه ولدي .. . اني أجهل كيف اتصل بها هذا السر ولكنني واثقة انها واقفة عليه .
وانت ترى الآن انه لم يبق بد من موتها لان عداونا الآن لم يعد قاصراً على تنازع أسرتنا المملكة ، بل أصبح عداً شخصياً لا بد لواحد منا أن يلقي حتفه فيه .

والآن ، قل لي بالتفصيل متى وكيف رأيت ؟ وكيف عرفت هذه الامور ؟
- عرفتها أمس ... حين انصرافي من عند ذلك الرجل الذي

أرسلني اليه .
- تريد به باردليان الذي انقذ ملكة النافار

- هو ذاك يا سيدتي ، لاني حين خروجي من غرفته رأيت رجلاً داخلاً اليها ، فما كدت ألمح حتى شعرت ان الدم جمد في عروقي ، وخلت كأنما شعر رأسي قد وقف .
وان هذا الرجل كان يشبهني شهاً عجباً حينما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، بل حين رأيت خلت إني أنظر إلى مرآتي ، وقد عدت إلى عهد الشباب .

ثم وضع الفلكي يده على عينيهِ كأنه يحاول طرد خيال مر به فقالت له الملكة : إمض في حديثك .
فأجاب : إن أول عاطفة شعرت بها إني خلت نفسي من المجانين ، ثم خطر لي أن أستر وجهي كي لا يراني ، لأنه لو رأي لشعر دون شك بشعوري .

ولما ثبت إلى رشدي ، ورأيت دخل إلى الغرفة التي خرجت منها ، خطر لي في الحال ما كانت ترشدني اليه النجوم ، وحدثني قلبي انه دون شك ولدي .

ثم جعلت أفكر بك وبما يتهددك من الأخطار ، فتغاضيت عن كل شيء ولم أعد أفكر إلا بانقاذك .

وعندها عدت في أثر الشاب ورأيت دخل إلى غرفة بارداليان فوضعت أذني على بابها وسمعت كلما دار بينهما من الحديث وعلمت منه يقيناً انه ولدنا ، وان ملكة النافار التقطته وربته .

وهنا ساد السكون هنيهة ، لأن الملكة استرسلت إلى التصورات والتفكير .

ثم سألت الفلكي قائلة : وهو أتظنه يعرف حقيقة مولده ؟

كلا ، وانا الضمين يجمله هذه الأسرار

في أية مهمة زار بارداليان ؟ وأي شأن له في باريس ؟

أجاب : إنه في خدمة ملكة النافار ، وهو قد التحق بها الآن دون شك .

وعادت كاترين إلى التفكير وطال تفكيرها والفلكي ساكت واجم محترم سكوتها خائف على ولده إلى ان طرقت الباب فارتعشت الملكة وقالت : من عسى ان يكون الطارق ؟

— إنه الشفالييه دي بارداليان دون شك ، لقد واعدته على اللقاء في الساعة العاشرة وهوذا الموعد قد حان

فوضعت الملكة يدها على جبينها وقالت :

لماذا ذهب الى بارداليان العلمها صديقان ؟

كلا ، لانه جاءه مندوباً من ملكة النافار ، يحمل اليه شكرها على دفاعه عنها .

— إذا لا صداقة بينهما .

— على الاطلاق ، لأنه لم يره قبل هذه المرة .

فابتسمت الملكة ابتساماً وجف له قلب الفلكي وقالت له : إذهب إذا وافتح الباب لقد وجدت مهمة لهذا الفق الباسل . ألم تقل لي عنه انه شديد الفقر والكبرياء .

— إن فقره يعادل كبرياءه وقد بلغ بكليهما إلى أقصى الحدود .

— إذا فهو أهل للاقدام على كل امر ، إذهب وافتح

— لكن ألا تقولين يا سيدتي على ماذا عولت ؟

— إفتح الباب فهو يقرعه للمرة الثالثة

— كاترين . رحماك إشفقي على ولدي .

فمدت الملكة يدها مشيرة الى الباب فقالت له : إذهب وافتح .

وانصرف الفلكي ممثلاً وهو يكاد يتعثر بأذياله .

أما الملكة فإنها اغتنمت فرصة غياب الفلكي القصيرة فرسمت خطتها ، وسكن ثائر اضطرابها . فلما دخل بارداليان لم يجد أمامه غير امرأة باسمه تدل ملاحظها على الدعة ومكارم الأخلاق .

فعرف لأول وهلة انه بحضرة ام الملك وانحنى أمامها بجل الاحترام .

أما الملكة فإنها ابتسمت له وقالت : أتعرف يا حضرة الشفالييه من أتا ؟ فقال بارداليان في نفسه : لقد دنت ساعة التأهب والحذر فإنها ستكذب فلاكذب قبلها .

ثم قال لها : إني أنتظر أن تشرفني سيدتي بذكر اسمها

فأجابته بمعظمة : إنك بحضرة أم الملك .

فانحنى بارداليان إنحناء عظيمًا ووقف الفلكي خائفًا من الملكة ممجباً بها وبمباغتتها لبارداليان بذكر اسمها .

أما الملكة فإنها استأنفت الحديث فقالت مخاطبة بارداليان : إنك أظهرت أفس من ضروب البسالة والجرأة ما يدعو الى الإعجاب بك ، لأن تصديك لشعب برمته واقتحامك غمرات الموت للدفاع عن امرأة لا تعرفها يعد من أجل الحسنات

وكانت الملكة تتوقع أن يجيبها بارداليان الجواب المألوف في هذا المقام ، وهو ان يقول لها مثلاً : إني لم أفعل غير ما يجب علي او غير ذلك مما يشبه هذا القول

غير أن بارداليان أجابها بلهجة كبرياء تشبه لهجتها فقال : إني عالم يا سيدتي يجمال ما صنعت .

فارتعشت الملكة وقالت : إن الذي يزيد جمال صنعك انك لم تكن تعرف هذه المرأة التي دافعت عنها

— هو ذلك يا صاحبة الجلالة .

- ولكنك تعرف اسمها الآن فيما أظن ؟

وقد توقعت الملكة منه ان يكذب غير انه اجاب بصراحة قائلاً :

- نعم يا سيدتي ، إن التي تشرفت بالدفاع عنها كانت جلالة ملكة النافار وإحدى وصيفاتها .

- وأنا أيضاً أعلم ما تعلم ولهذا أردت ان أكافئك لأنك أنقذت ملكة ، والملكات متضامنات .

وفوق ذلك إن هذه الملكة من أهلي وهي فقيرة معدومة واذا لم تستطع جزاءك توليت عنها مكافأتك إذ لا بد لك من المكافأة .

- أرجو مولاتي ان تطمئن علي من هذا القبيل ، فقد كوفئت بما أستحق .

- كيف ذلك ؟

- إن جلالة ملكة النافار أسدتني من الثناء ما يذرى بالآلي .

- ولكن هذه القريبة العزيزة ألم تعرض عليك منصباً في بلادها ؟

- نعم لكنني رفضته .

- لماذا ؟

- لأنه يستحيل علي مغادرة باريس .

- وإذا عرضت عليك أنا الانتظام في خدمتي أترفض ؟

اصبر واسمع قبل ان تجيب . . .

أنت لا تريد مفارقة باريس ، وهذا الذي أريده أيضاً ، وأنت قد خاطرت بحياتك دفاعاً عن امرأة لم تكن تعرفها ، أفلا تدافع هذا الدفاع عن ملكتك ؟

- ماذا أسمع ، العل مولاتي في حاجة الى الدفاع ؟

فابتسمت الملكة وقالت : لا أنكر ان هذا القول يدعو الى الاندھال لكنه حقيقة ثابتة لأنني محاطة بالأعداء من كل الجهات ، أسهر الليل والنهار لصيانة

حياة الملك وعرشه ، وأنت لا تعلم ما يحدث كل يوم من المؤامرات الشائنة حول هذا العرش .

فارتعش بارداليان ، إذ ذكر تلك المؤامرة التي حدثت في الفندق المقيم به ، وأيقن انه يعرف من أسرار هذه المؤامرات أكثر مما تعرفه الملكة .

لكنه لم يجب ، ومضت الملكة في حديثها فقالت :

ثم أنت لا تعلم اني منفردة وحيدة لا مساعد لي في تأييد تاج ولدي ومنع يد الآثمين من الوصول اليه .

على ان هذا الخطر لو كان محققاً بي وحدي درنه كما كان من قبل لما خشيته لكني أم ولا بد لي من الحياة لوقايه أولادي .

فاجاب بارداليان دون أن يظهر اضطرابه قائلاً :

- ليس في الأرض شريف مستحق لهذا اللقب يتردد لحظة في توضحية نفسه لهذا الغرض النبيل . . .

إن الأم مقدسة يا سيدتي ، وخدمتها فرض إنساني ، غير ان هذه الأم متى كانت ملكة ، أصبحت خدمتها واجباً مقدساً ، لا ينفر منه الشريف .

- إذا أنت لا تتردد في الانتظام في سلك أولئك الأشراف الذين يخدمونني فيخدمون الأم والملكة ؟

- معاذ الله أن يخطر التردد في بالي ولكني لا أعلم كيف يستطيع حامل مثلي أن ينفع جلالتك .

فبدت علائم السرور على محيا الملكة وانقبضت سحنة الفلكي وتنهد ، وقالت الملكة لبارداليان :

- إنني قبل ان أذكر لك كيف تنفعني أحب أن أخبرك كيف أنفعك لأنك فقير رساغنيك ، وأنت حامل كما تقول ، فسأنفض عنك غبار الخمول وأرفعك

الى المنزلة التي يجب ان يكون فيها أمثالك وأول ما أبدأ به اني أعينك في منصب باللوفر وأجعل لك راتباً قدره عشرون الف فرنك في العام، فهل أنت راض عن هذه البداية؟

- ليس هذا ما يعبر عنه بالرضى يا سيدتي، لاني أحسب نفسي من الحالمين.

- كلاماً أنت بحالم لان من أقدم واجبات الملوك أن يحسنوا اختيار الأكفأ من الرجال وان يكافئوهم بما يستحقون
- إذا تفضلي يا سيدتي بتعيين واجباتي.

فسكنت الملكة هنيئة وجعل الفلكي يمسح العرق البارد المنصب من جبينه كأنه كان يعلم مراد الملكة.

أما الملكة فإنها تكلفت لهجة الحزن وأجابته قائلة:

- لقد ذكرت لك ان لي أعداء وان أعدائي أعداء الملك وأزيدك ان جرأتهم آخذة كل يوم بالازدياد، ولولا هؤلاء الأشراف المخلصين للعرش، اولئك الأبطال الذين ستنظم في سلكهم، لبلغ الأعداء منا ما أرادوا.

وهنا أخبرك كيف أتصرف حين احد أحد أعدائي قد اقترب مني.

إنني ابدأ باثنائه عن عزمه بالرجاء وبالوعود، وبالدموع إذا اقتضت الحال، وهي طريقة كنت أفوز بها على الغالب الأعم، فإن الانسان أقل شراً مما يقولون.

- وحين لا تفلح هذه الطريقة ماذا تصنعين؟

- ألجأ عند ذلك إلى عدل الله.

- أسأل مولاتي المعذرة، فاني لم أفهم كل ما تريد.

- أريد انني حين اضطر ان ألجأ إلى عدل الله ادعو أحد رجالي المخلصين فأعهد اليه أن يجتمع بعمدوي ويختمق سبباً لمبارزته فيخرج من هذه المبارزة

قائلاً أو مقتولاً، فاذا كان مقتولاً مات وهو واثق اني أبكيه وانتقم له. وإذا ظفر بذلك العدو وأنقذ ملكته وملكه يحدنا ممن يقدرون الأعمال، بل من يحسنون مكافأة الأبطال فما رأيك في هذه الطريقة؟

- إنها طريقة طبيعية، ومن لا يجرد حسامه للدفاع عن ملكته؟

- وإذا أرشدتك إلى أحد أولئك الأشقياء؟

- أذهب اليه فأبارزه ولو كان يدعى ..

وكاد يخرج من فمه اسم الدوق دي كيز ومونراني فان المؤامرة التي حدثت في الفندق تجلت له في تلك الساعة وكان واثقاً ان الملكة ستذكر له اسم الدوق دي كيز.

أما الملكة فقد جال الشك في خاطرها فقالت له: أي اسم كنت عازماً على أن تلفظه ثم توقفت؟

فعدت السكينة إلى باردالبيان وقال لها: إنني لم أكن أقصد اسماً معيناً، ولكني أريد ان اقول اني لا أتوقف عن لقاء عدو للمليكي مهما بلغ هذا العدو من الشدة والبأس.

- انك تحقق ما كنت اتوسمه فيك من مخائل النبيل والمروءة، فاعلم الآن اني متعمدة باثرائك فلا تخاطر بحياتك، فانها باقت لنا منذ اليوم ويجب أن تهج مناهج الحكمة في جميع اعمالك.

- لم أفهم يا سيدتي ما تعنين.

- أريد أن المبارزة أمر محمود مألوف، ولكن طرق المبارزة تختلف، فان بعضهم يترصدون عدوهم ويكفون له حتى إذا مر بهم أخذوه غيلة وقتلوه، وانا لا اشير عليك باتباع هذه الطريقة.

- ومن يرتكب هذه الجريمة يا سيدتي غير الجبناء ومن سقطت مروءتهم، أما أنا فاني أبارز في الليل وفي النار، ولكني لالقي العدو إلا وجهاً لوجه والسيف منصلت بيده، فلتتفضل مولاتي بمعذرتي إذا لم تكن طريقي صالحة

فانني لا أحميد عنها .

- بل هذا الذي كنت اتوقع منك ان تقوله ، وان الحكمة تقترن بالشجاعة وهي في المحل الأول ، برأي الحكماء فأنا لا أسلك أن تكون باسلاً ، فقد عرفت من شجاعتك ما يكفي للدلالة عليها ، ولكني أريد أن تكون حكيماً وهذا كل ما ابغيه .

- إذا كان ذلك يا سيدي فلم يبق إلا أن تذكر لي اسم ذلك العدو الذي تريدني أن القاء .

- سأذكر لك اسمه

وعند ذلك ضم الفلكي يديه ونظر الى الملكة نظرة المتوسل

فرمته الملكة بنظرة هائلة صعقته ، فأطرق برأسه الى الأرض وتراجع أما بارداليان فقال في نفسه : لا شك أن هذا العدو الدوق دي كيز بعينه ، وأن الملكة عرفت المؤامرة كما عرفتھا ، فاذا كان ذلك فأني شرف اعظم من أن ابارز الدوق .

واما الملكة فانها بعد أن رمت الفلكي بتلك النظرة الهائلة واوقفته عند حده ، التفتت الى بارداليان وقالت له :

لقد تلقيت زيارة أمس يا شفالييه .

- بل أكثر من زيارة ، فقد زارني أمس كثيرون .

- وأنا أعني منهم فتي جاءك من قبل ملكة النافار .

أن هذا الفتى من أشد أولئك الاعداء الذين ذكرتهم لك فهو هائل فتاك ، وقد بت أخافه خوفاً شديداً . وما انا بخائفة على نفسي ، فلم يبق لي في هذه الحياة مطمع ، ولكني خائفة على ولدي شارل ، أي ملكك يا شفالييه .

فاضطرب بارداليان في نفسه وذهبت امانيه بمبارزة الدوق وتمثلت له الحقيقة الهائلة ، فقطب حاجباه واهتز شارباه وظهرت دلائل الاحتقار على محياه .

فقالت له الملكة : ما هذا السكوت العلك تتردد ؟

وقد قالت له هذا القول بلهجة المتوعد ، فكبر عليه ذلك الوعيد وزاد في كبريائه فقال لها : كلا ، اني لا اتردد يا سيدي .

فعادت الملكة الى الملاينة وقالت له .

بورك فيك فهذا الذي كنت اتوقعه من بطل فقير مثلك اتاح له حسن طالعه ان يخدم الملوك .

فاشتد وقع هذا الكلام على بارداليان وقال لها : نعم اني لا اتردد يا سيدي فأني أرفض رفضاً باتاً .

ولم يكن وقع الصاعقة بأشد على الملكة من وقع كلام بارداليان ، فقد تعودت أن ترى الرؤوس مطرقة أمامها ، وأن لا يحسر أحد على ان يرفض لها أمراً .

وقد كان يمكن ان تتوقع الرفض من بارداليان ، ولكنها ما توقعت أن ينهج معها مناهج القحة ، وان يرفض هذا الرفض الصريح الموجز ، دون ان يهد له سبباً من أسباب الاعتذار . ونظرت إلى ما حولها ، كأنها تبحث عن رئيس الحرس كي تأمره بالقبض عليه ، فوجدت نفسها وحيدة .

وقد كبر عليها هذا الفشل لكنها لم تجد بداً من اخفاء اضطرابها فقالت له وهي لا تزال تتكلف الدعاء والملاينة : ألا ترى انه يجب ان تظهر لي السبب في رفضك على الأقل ؟

- دون شك يا سيدي والسبب صريح ، وهو ان هذا الرجل الذي تطلبين إلى التعرض به ومبارزته ، زارني بالأمس وأكل من طعامي ، فمكأن ضيفي ودعائي بصديقه ، وهو مقدس عندي ، ما زالت هذه الصداقة لم تشبها شائبة .

- أنه برهان شديد يقنعني ، فماذا يدعى صديقك هذا ؟

- لا أعلم .

- كيف ذلك ، أياكون صديقك ولا تعرف اسمه ؟

- انه لم يذكر اسمه ولم أسأله عنه ، وبعد فكيف تعجبين يا سيدتي إذ جهلت إسم صديقي وجلالتك تجمل اسم عدوها الألد ، اليس ذلك ادعى إلى العجب ؟

فأطرقت الملكة برأسها وقالت في نفسها إني أجد هذا الرجل أشد خطراً علي من أعدائي بعد ان أبي خدمتي .

ثم التفتت اليه وقالت إني لم أسألك عن اسمه إلا لأعلم إذا كنا متفقين على معرفته ، وقد سرني ما أراه بك من مبدأ الكتمان والتحفظ فهو حلية الرجال كما سرني حرصك على الولاء فهو أشرف ما تتسلى به النفوس فلندع الآن ذكر هذا الرجل احتراماً لمواطفك .

- اني من أسعد الناس يا سيدتي بما سمعته من جلالتك فقد خشيت ان اكون أغضبتك بما بدر مني .

- ولماذا لا أرضى عنك وانت تحترم الصداقة وتجل الولاء فاذهب أيتها الشفالييه واذكر اني ضمننت لك المستقبل السعيد واحضر غداً إلى اللوفر فاني انتظرك فيه .

ثم نهضت الملكة وابتسمت لبارداليان فانحى أمامها بجلء الاحترام وحيابها التحية الملكية وانصرف .

وبعد ذلك بهنية كان عند الباب الخارجي حيث كان كلبه ينتظره فسار في طريق الفندق وهو يحاول حل هذا المعمي الذي يدعونه الملكة كاترين ويقول في نفسه إنها أمرتني ان أحضر في الغد إلى اللوفر ميدان الثروة الذي يتسابق فيه رجال الاقدام ..

نعم سأذهب في الموعد المعين وبقيني ان أبي كان مخطئاً في ما اوصاني .
أما الملكة فانها كانت بعد ساعة في اللوفر فنادت تانسي رئيس حراسها

وقالت له : اذهب غداً صباحاً بعشرة من رجالك الأشداء ومركبة كبيرة إلى فندق دفينير واقبض فيه على مؤامر يدعى الشفالييه بارداليان واذهب به إلى الباستيل .

- ١٩ -

مارشال دي دامفيل

وحده قاضيه

وأما بارداليان فانه صبحاً من نومه عند الفجر بعد أن نام نوماً مضطرباً . فان المرء مهما عظمت نفسه وقل اهتمامه بأغراض الحياة اذ فاجأته الثروة والسعادة كما فاجأت بارداليان لا يستطيع أن يتلقاها دون اضطراب .

وأى سعادة يطمع فيها مثل هذا البطل التائه أعظم من أن يصبح في لحظة صفي الملكة وساعدها الأيمن ، بعد ان كان ، في كل يوم يخشى الطرد من الفندق المقيم فيه .

وقد بات اكثر ليلته يتقلب على فراشه وهو يفكر في ما صار اليه ويعتد مشروعاته المستقبلية حتى اعد خطته كما يأتي :

- ١ - يذهب إلى اللوفر بدعوة الملكة كاترين دي مدسيس .
- ٢ - يذهب إلى قصر كولينبي فيخبّر صديقه ديودات انه يجب ان يسبح باريس في القريب العاجل حذراً من انتقام الملكة
- ٣ - يتحرش بالدوق دي كيز ويقاقله فيخدم الملكة اجل خدمة .
- ٤ - حينما يثق من مركزه الجديد يذهب إلى ذات النقاب الأسود فيخبّرهما

بمنصبه وبجبه لإبنتها لويزا ، فلا ترفض زواجها برجل من اهل البلاط ويتزوج
بن يحب .
٥ - يصبح بعد هذا الزواج من اسعد الناس .

٦ - يبحث عن ابيه حتى يجده فيعيش واياه عيشة صالحة ويقول له : لا
شك ان بارداليان الابن نال الثروة بعصيانه وصية بارداليان الأب .
ولما رسم لنفسه هذه الخطة اطمأن خاطره وتمكن من النوم .

ولكنه صبحا عند بزوغ الفجر كما قدمنا فتأثق في لباسه كي لا يهزأ به
رجال البلاط ، حتى اذا أتم لباسه ولم يبق الا أن يتقلد حسامه رأى ان الوقت
لا يزال باكراً ، وانه لا يستطيع الذهاب الى اللوفر قبل ساعتين او ثلاث .
وعند ذلك فتح النافذة ووقف امامها وهو لا يطعم ان يرى لويزا في مثل
هذه الساعة ، ولكن العاشق يلذ له أن يرى نافذة الغرفة التي تنام فيها حبيبته
ولو كانت تلك النافذة مقفلة .

على ان بارداليان لم يكذب يفتح نافذته حتى رأى نافذة لويزا قد فتحت
بعنف ، ثم رأى حبيبته لويزا أطلت من تلك النافذة وهي محلولة الشعر صفراء
الوجه مضطربة العينين فرأت بارداليان ونادته بلهجة المنذرة قائلته ...
تعال .. تعال ..

فاصفر وجه بارداليان وقال في نفسه رباها ماذا حدث ؟
ذلك انها لم تكن كلمته قبل الآن ولم تشر اليه إشارة ، فاستدل من ذلك
انها تطلب النجدة وصاح بصوت مرتفع بلغ إلى مسمعا قائلته : لبيك ها
أنا آت .

ثم أسرع إلى الجدار كي يأخذ حسامه فسمع في تلك اللحظة كلبه ينبع
نباحاً شديداً ، ورأى ان باب غرفته قد كسر ودخل منه اثنا عشر جندياً
مدججين بالسلاح

وعند ذلك قال رئيسهم : أيها الشفالييه إننا نقبض عليك بأمر الملك .

ولم يكن بارداليان قد أخذ سيفه بعد فوثب اليه كي يدافع به عن نفسه ،
غير أن الجنود أحاطوا به من كل مكان فحاولوا دون قصده وتمكنوا من إلقاءه
على الأرض .
وفي هذه الساعة الهائلة سمع صوت لويزا تناديه قائلة إلي الي !

وهو محاط بالجنود مغلول اليدين لا يستطيع تلبية النداء فوقم ذلك النداء
من قلبه وقع السهم وأن أنين الموضع .
ثم تكرر الصوت مراراً فكان يفعل به فعل الكهرباء .

فأبدى جهداً عنيفاً في سبيل الافلات من الجنود ، ولكنه وجد انه مقيد
اليدين والرجلين لا يستطيع حراكاً ، فأغض عينيه مسترسلاً إلى اليأس ،
واضطرمت النار في قلب الأسير ، فأسالها البخار دমে على وجنة ذلك
البطل العاشق .

ولما تمكن الجنود من التغلب عليه وتوثيق يديه ورجليه ، التفت رئيس
الحرس إلى ما حواليه متفقداً جنده ، فوجد بينهم قتيلين وخمسة جرحى
ذلك أن بارداليان قتل احدهما بضربة على صدغه ، وخنق كلبه الآخر ،
وجرح بانياه الخمسة .

وعند ذلك أمر رئيس الجنود أن يحملوا بارداليان فحملوه وخرجوا به
إلى الشارع .

وهناك فتح بارداليان عينيه فرأى ثلاث مركبات احدها واقفة عند باب
الفندق فأيقن انها معدة لنقله .

وأما المركبتان الباقيتان فقد كانتا واقفتين أمام منزل لويزا ، فرأى
أن احدهما فارغة وأن في الأخرى رجلاً عرف انه هنري مونمورانسي
مارشال دامفيل .

ولم يبق له الجنود فرصة ليرى اكثر ما رأى فانهم ألقوه في المركبة واقفلوا
بها فسارت به مسرعة إلى حيث لا يعلم .

وقد كانت هيئة هذا المنكود تحمل على الاشفاق فقد كاد يخن من يأسه .
ولكنه على يأسه لم تسر به المركبة بضعة امتار حتى تاب اليه رشده وراقب
سير المركبة والطريق الذاهبة فيها فجمد الدم في عروقه وقال بلهجة تشف عن
الرعب الشديد ..

انهم ذاهبون بي إلى الباستيل ..

ومن عرف شهرة الباستيل في ذلك العهد وما كان يجري فيه من المظالم لا
ينكر هذا الرعب على بارداليان .
فان هذا السجن الرهيب لم يكن كالسجون المألوفة بل كان أشبه بالقبور
منه بالسجون .

وقد أيقن بارداليان انه من الهالكين حين كان يظن أن الثروة قد فتحت له
ابوابها وحين سمع من لا تخطر له الثروة في بال إلا من اجلها تناديه وتستغيث به
وهو مقيد اسير لا يستطيع تلبية النداء ولا اغاثة من يجب .

ولما وقفت المركبة وانزل منها التففت إلى ما حواليه فوجد نفسه محاطاً
بالجنود من كل جانب

فكان اول ما خطر له لأول وهلة ان ينقض على الجنود ليس لطمعه بالفوز
عليهم والفرار بل لرجائه ان يهجموا عليه من كل صوب ويعملوا فيه سيوفهم
فيقتلونه ويريحونه من الحياة .

ولكنه قبل أن يتم هذا الخاطر طوقه الجنود وسار به ثلاثة منهم فوجوا
من باب حديدي الى رواق طويل نبت العشب على جدرانها لرطوبتها وانبعثت
منه روائح العفونة .

وقد انتهوا من هذا الرواق إلى سلم من الحجارة فصعدوا بالأسير عليه وانتهوا
منه إلى باب ضخم من الحديد فدخلوا منه إلى دهليز طويل .

وهناك ادخلوه غرفة متسعة كائنة في الدور الثالث من برج السجن الغربي
فتركوه فيها واقفلوا الباب .

وكانوا قد فكروا قيوده ، فانقض على الباب وحاول أن يحطمه ،
حتى إذا علم ان لا حيلة في كسره تمكن منه اليأس فانقلب على الأرض
مغمياً عليه .

ولنعد الآن إلى لويزا وبيان السبب التي استغاثت من أجله ببارداليان
فنعقول :

عرف القراء ان هنري مونمورانسي رأى حنة والدة لويزا من نافذة غرفتها
فعرّفها للحال .

فلما وثق إنها هي امرأة أخيه ، تلك التي هام بحبها ، حتى ارتكبت
في سبيلها الجرائم ، وفرقها عن زوجها بالمسكائد السافلة ، نظر إلى ما حواليه
فرأى أن الشمس قد تعالت والمخازن فتحت أبوابها ، والناس ينظرون
اليه نظرات الفضول مستغربين وقوفه ، فلم يجد بداً من الانصراف والصعود
إلى القصر .

وكان قصره مظلماً وهو يجوار سجن التامبل ، تبدو عليه ظواهر السكينة
فلا يرى فيه غير الخدم والجنود بحيث بات يشبه الحصون .

وقد أقام هنري طول نهاره معتزلاً في غرفة يضطرب لكل حركة
بسمعها ، ويرتعش كلما سمع صوت باب يفتح ، ويقول في نفسه : ألا يمكن
أن يكون أخي فرنسوا قد حضر إلى باريس لنفس السبب الذي حضرت
من أجله إليها .

ألا يمكن أن يقوده الاتفاق إلى شارع سانت دانيس ، كما قادني وان يرى
حنة كما رأيته .

وإذا اجتمع بها واخبرته بكل ما اتفق وعرف خيانتني الهائلة ، فماذا عسى
يكون بيني وبينه .

وهذا اصفر وجهه وتندى جبينه بالعرق فقال : لقد مرت بنا الأعوام ،
وكرت الليالي والأيام ، وأنا أحاول نسيانها فلا أجد سبيلاً للسلوان .
ولقد خضت غمرات الحروب فكنت أراها في كل معترك ، وأود تقبيل
السيوف لأنها تلعع كبارق ثغرها ، وإذا التمتست السلوان بالشراب حاجت
المدام مكامن غرامي فتمثلت لي كما رأيتها اليوم ، يفتن جمالها الأبصار وتقيه في
إدراك سر حسنها الأفكار .

نعم اني كلما خلوت بنفسي لا اسمع غير صوتها تنادي زوجها فرنسوا
وكلما نظرت اليها بعين الخيال أراها تنظر إلي نظرات ملؤها الاحتقار .
غير اني انتقم انتقاماً هائلاً ، فقتلت أباه وفرقت بينها وبين زوجها ،
والويل لمن يكرهني فان انتقامي لا يقف عند حد .
وكان إذا بلغ بتصوره هذا المبلغ ، يقف ويمشي في الغرفة هائجاً مضطرباً
مشية المجانين .

ثم يفتكر بأخيه فيسكن اضطرابه وتنحط كبرياؤه ، وليس ذلك لأنه
كان يذكر الجريمة فيقرعه ضميره ، بل لأنه كان يذكر أخاه فيخاف انتقامه .
كان يذكر كل ما أساء به إلى أخيه فيطير فؤاده رعباً ، ويخطر له
خاطر الفرار .

وقد وضع رأسه بين يديه حين خطر له هذا الخاطر ، وفكر ملياً ثم هاج
ثائر غرامه ، فجاءت وهاجت براكين حقه ، فكبر عليه الفرار وجرد خنجره
فطمع به المائدة التي كان جالساً عليها كأنه يطمع صدر أخيه .

ثم وقف وقال ، لقد بدأ هذا الغرام بالجريمة ، وهو بالجريمة يختم فليحضر
أخي وليناقشني الحساب ، فلا أجيبه بغير هذا الخنجر وأظفر بحنة دونه .
هنا ابتسم ابتسام الأبالسة كأنه قد وجد طريقة للتوفيق بين غرامه
وانتقامه ، فأكل بشهية وتام بعد الأكل بضع ساعات .

وعند انتصاف الليل تدجج بالسلاح ، وخرج من منزله إلى الشارع المقيمة

فيه حنة ، وأقام هناك يراقب في نفس الموقف الذي كان فيه أمس إلى أن
أشرق القمر .

وعند ذلك قدمت مركبتان تفلان بعض الجنود ، فصعد هنري إلى إحدى
المركبتين واختبأ فيها كي لا يراه أحد ، وأشار إلى قائد أولئك الجنود أن يبدأ
العمل وينفذ ما أمره به .

فدخل القائد إلى المنزل يتبعه نحو عشرة من الجنود .

وكان البواب قد صحا منذعراً لدخول الجنود إلى المنزل قبل الفجر ، فناداه
القائد وقال له : يوجد في هذا المنزل امرأتان من الهوكينوت متهمتان بالمؤامرة
مع أعداء جلاله الملك .

فاضطرب البواب وقال : ربه أيمن أن يكون ذلك ومن هم أعداء
جلالته ؟

- هم الهوكينوت الذين سيعاقبون أشد عقاب .

- ويلاه ، إذا سأعاقب مثلهم .

- ولماذا ، الملك منهم ؟

- كلا ، ولكنهم مقيمون في المنزل الذي أخدمه وسأعاقب بما يعاقبون .

- إنك تنجو من العقاب إذا ساعدتنا في القبض عليهم دون أن

يعلم أحد .

- إنني رهين أوامرهم ، فقد خامرني الشك بهاتين المرأتين ، فإني ما رأيتهما

ذهبنا مرة إلى الكنيسة .

ثم صعد السلم أمام الجنود حتى إذا وصل بهم إلى منزل حنة قرع الباب ،

ففتحت حنة ووجدت أمامها قائداً والجنود وراه .

فاصفر وجهها ولكنها كانت تعودت الشقاء حتى الفته ، فلم تضطرب

لرؤية الجنود وقالت للقائد :

- ماذا تريد يا سيدي ؟

فاحمر وجه القائد وانحنى أمام حنة باحترام وقال لها :

أسأل سيدي المعذرة فاني مأمور بانفاز أمر صارم وما علي غير الامتثال .
فنطرت حنة إلى الغرفة المقيمة فيها بنظرة المنذعر وقالت له : أي
أمر يا سيدي ؟

- إني قادم يا سيدي للقبض عليكم بتهمة التشييع للهوكينوت ، ومخالفة
الأوامر الصادرة .

وعند ذلك خرجت لويزا من غرفتها وعلمت كل شيء .

أما حنة فإنها قالت للقائد : إنك مخطيء يا سيدي فلست أنا المتهمه .

- إني اتمنى لك البراءة من التهمة ، وفي كل حال فلا بد من ان تتبعيني
لأثبات برائتك .

فصاحت حنة صيحة رعب وقالت : رباه ايبعدونني عن بنقي .

واسرعت لويزا إلى غرفتها ففتحت النافذة بعنف ورأت باردا ليلان فنادته
مستغيثة كما تقدم .

أما القائد فإنه تقدم من حنة وقال لها : اقسم إنك لا تفرقين عن
بنتك ، فاني سأذهب بكما معاً إلى محل واحد ، فامتثلي يا سيدي واتبعيني
دون مقاومة كي لا اضطر الى استعمال العنف ، وهو ما اندم عليه
طول الحياة .

فرأت حنة ان لا سبيل الى اقناع القائد بخطائه ، وأنه لا بد من
الامتثال له .

- طوعاً يا سيدي ، ولكني أرجوك أن تمهلي هنيهة كي أتناهب .

- لكن ما تريد يا سيدي فاني في انتظارك

ثم خرج من المنزل مع جنوده فوقف بهم عند الباب ، بينما كانت حنة قد
دخلت إلى غرفة بنتها .

وقد سمعتها تنادي ، ورأتها تشير بيدها فقالت لها : من الذي تستغيثين

به يا ابني ؟

- هو ذلك الفتى الذي ينظر إلي دائماً من نافذته

وقد احمر وجهها لدى هذا القول ، فما خفيت حالتها عن أمها ، فوضعتها
إلى صدرها وقالت لها : العلك تحبينه يا لويزا ؟

فلم تجب لويزا بكلمة ، ولكنها أطرقت بعينها وقد سألت منها دمعتان
تكلمتا بأفصح بيان .

فقالت لها أمها : وهو .. يحبك ؟

- اظن ... بل اني واثقة .

- ان كان ذلك فهل تظنين اننا نستطيع الاعتماد عليه .. أجيبي يا لويزا ،

ألنت واثقة باخلاص هذا الفتى ؟

- كل الثقة يا أماه

- ماذا يدعى ؟

فأجابتها لويزا بملء البساطة قائلة : ولكني لا أعرف اسمه بعد

قالت حسناً : فان الوقت غير متسع للجدال ، وكل ما أرجوه ان تكوني

غير منخدعة بهذه الثقة .

ثم أسرعت إلى مائدة عليها أدوات الكتابة ، فأخذت ورقة وكتبت
عليها ما يأتي :

سيدي .

ان امرأتين اخني عليهما الدهر تلتجئان إلى مروءتك .

انك لا تزال في مقتبل الشباب ، ولا تزال عواطف الرحمة والاشفاق تجول
في قلبك

فاذا كنت على ما نعتقده بك فرجائي ورجاء ابني ان ترسل الكتاب
الواصل في طيه إلى صاحبه ، واني اشكرك مقدماً أجزل شكر ، .

ذات النقاب الأسود

ثم فتحت درجاً فأخرجت منه كتاباً مختوماً غلافه ، كانت قد كتبت منه منذ عهد بعيد كما يظهر ، فوضعت في طي الرسالة التي كتبتها الى بارداليان .

ثم وضعت الرسالة والكتاب في غلاف فختمته ونادت الخادمة فقالت لها : اصغي إلي يا ابنتي . اننا متهمون بتهمة التشيع للهوكينوت ، وهي تهمة باطلة لا البث ان اظهر زورها في موقف القضاء .

وغاية ما اطلبه اليك أن تأخذي هذا الكتاب الى هذا الفتى المقيم في هذه الغرفة .

ثم دلتها على الغرفة فأخذت الخادمة الكتاب وانصرفت .

وعند ذلك خرجت حنة مع بنتها ، ففتحت الباب وقالت للقائد : اننا مستعدتان للذهاب معك

فنزل القائد بهما وكان هنري مونمورانسي مختبئاً في المركبة ، فلما رآهم برقت عيناه ببارق وحشي من السرور .

وأما الاسيرتان فقد اصعدوهما الى المركبة الثانية ، وكانت الخادمة قد حضرت ايضاً لوداعهما فقالت لها حنة : أعود فاوصيك بارسال الكتاب الى صاحبه

- اطمأني يا سيدتي ، فقد عرفت صاحبه ، وهو الشفالييه دي بارداليان .

فأنت حنة انين المتوجع وحاولت استرجاع الكتاب منها ، ولكن المركبة كانت اندفعت في السير وجرت تسابق الرياح .

قصر هنري

لم تنس الخادمة وصية سيدتها فان المركبة لم تكد تتواري عن الأبصار حتى ذهبت إلى الفندق المقيم فيه بارداليان كي تدفع اليه الكتاب . وكانت هذه الخادمة كسائر الخدمات ، تقضي معظم أوقاتها بالتجسس والمراقبة .

وقد لاحظت مراراً أن بارداليان يقف في نافذة غرفته ، ويطيل وقوفه وهو ينظر إلى مكان واحد .

فما زالت تراقب حتى علمت انه يدعى الشفالييه دي بارداليان .

فلما ابتعدت المركبة ذهبت توأ إلى الفندق ، وطلبت إلى صاحبه أن يأذن لها بمقابلة بارداليان .

فابتسم صاحب الفندق ابتسام الساخر وقال : ألم تعلمي ما حدث لهذا الرجل الجسور .

- كلا ، فماذا حدث له ؟

- عجباً كيف لا تعلمين والناس لا يتحدثون إلا بأمره منذ الفجر .

- ولكن قل لي بالله ماذا حدث فاني لا أعلم شيئاً .

- حدث أن هذا الرجل الهائل قد قبض عليه ، فيجازى بما يستحق وينادى بالعقاب ، فلا يحاول بعد ذلك لقاء الناس من النوافذ .

- وأية جريمة ارتكبها ؟

- يظهر انه من المتأمرين مع الهوكينوت .

فاضطربت الخادمة وخشيت أن يشركوها بالتهمة ، فعادت إلى المنزل
فاخرجت الكتاب من جيبها وخبأته في مكان خفي ، وهي تقول في نفسها :
لقد اتضح الأمر ولم يبق للريب مجال ، فان هذه المرأة وابنتها مشتركتان في
المؤامرة مع بارداليان ، فإذا علموا بأمر هذا الكتاب اتهموني تهتهم دون
ريب ، ومعاذ الله ان أكون عدوة الدين والملك .

بينما كانت هذه الحوادث تجري في شارع سانت دانيس ، كانت مركبة
الأسيرتين تسير مسرعة إلى قصر مسيم ، أي قصر هنري دي مونمورانسي الذي
كان يقيم فيه في باريس .

وقد تقدم لنا القول أن هذا القصر كان يشبه الحصون .

فلما وقفت المركبة عند بابه ودخل القائد بحنة وابنتها اليه لم تشكا في انه
سجن لوقوف الجنود عند ذلك الباب .

وأما القائد فإنه صعد بها حتى انتهى إلى غرفة في الدور الثاني ، فوقف
عندها وقال لها : تفضلا بالدخول يا سيدتي فان مهمتي قد انتهت ، وأرجو أن
لا تكونا حاقدين علي ، فاني لم أسيء اليكما من عند نفسي .

فأحنت حنة رأسها قليلا وفتحت باب الغرفة ودخلت اليها مع ابنتها ،
فاقفل الباب في اثرهما للحال من الخارج .

وعند ذلك ايقنتا انها اسيرتان ، ولكنها ايقنتا ايضاً انها ليستا في سجن ،
فقد وجدتا تلك الغرفة التي دخلتا اليها مفرشة بخير الرياش ، وقد فرشت
البسط في أرضها ، وتزينت جدرانها بالصور كغرف القصور الكبيرة .

ثم وجدتا فيها باباً مفتوحاً يشرف على غرفتين للنوم ، ولكل منهما نوافذ

تطل على رواق القصر ، فدنت حنة من احداها وأطلت منها ، فرأت جنديين
يسيران ذهاباً واياباً وسيفاهما مجردان بيديهما .

فزاد اضطراب حنة حين رأت نفسها أسيرة مع ابنتها في منزل
جميل ، وأطالت التفكير كي تعلم المراد من هذا الأسر ، فما اهتدت إلى
حل هذا اللغز .

ثم عادت مع بنتها إلى الغرفة الأولى ، فرأت لويزا على مائدة رسالة
مفتوحة ، فنسبت اليها أمها فأخذتها وقرأت ما يأتي :

« نرجو الأسيرتين أن لا تخشيا مكروهاً ، وإذا احتاجتا إلى شيء مهم كان
ذلك الشيء ، فلتقرعا الجرس السكائن على المائدة بجانب الرسالة ، تحضر في
الحال خادمة أعدت لخدمتهما » .

« وهذه الخادمة تعد لهما الطعام والأرجح أن هذا الأسر لا يطول أكثر من
بضعة أيام » .

فتنهت الأم وقالت : إني أؤثر الف مرة لو كنا في سجن الحكومة على أن
نكون في هذا المسكن .

- ماذا تعنين بذلك يا أماه ، فإني أرى كل شيء معد لراحتنا .

فهزت حنة رأسها وقالت : لنصبر فستنجلي لنا هذه الغوامض . وفي
انتظار ذلك أريد أن أروي لك أمراً خطيراً .

فجلست الفتاة بجانب أمها وقالت لها : إني مصغية اليك يا أماه .

- اعلمي يا ابنتي أن ما سأقصه عليك متعلق بهذا الفق الذي يجيبك فهل
تجيبينه حقيقة يا لويزا ؟

فاطرقت لويزا برأسها دون أن تجيب .

وتوقفت حنة عن الكلام هنيهة ، كأنها تتردد في القول ثم نظرت إلى ابنتها
فجاءت وقالت لها : لقد عرفنا الآن اسم هذا الفتى .

فأجابتها لويزا : نعم فقد قالت الخادمة انه يدعى الشفالييه دي بارداليان

ولكنني أرى من لمجتك عند ذكر اسمه يا أماء ، أن هذا الاسم غير مجهول
لديك ، وأنه قد سبب لك حزناً لا اعرفه . فقد تذكرت الآن أنه حينما
لفظت الخادمة اسمه أمامك ، ذعرت وحاولت استرجاع الرسالة منها ، ولكن
المركبة حالت دون قصدك إذ أسرعت في المسير .

أواد يا أماء اني اضطرب وقلبي يحدثني بانني ساسمع أموراً هائلة .

- هو ذاك يا ابنتي فما اخطأ حديث قلبك .

- إذا تكلمي ولا تكتمي عني أمراً .

- نعم نعم لا بد لي من الكلام لانقاذك

- لقد زدتنني رعباً على رعب ، فهل أنا في خطر ؟

اصفي إلي يا لويزا ، انك حين ولدت كانت أمك قد لقيت من كوارث
الدهر ما لم يلقه انسان ، ولولاك لكان قتلني اليأس فاني ما رضيت الحياة بعد
ما لقيت إلا من أجلك .

نعم اني كنت أحبك في ذلك العهد كما أحبك الآن ، أي اني أحبك أكثر
مما أحب نفسي وأكثر مما أحبه .

- من هو يا أماء ؟

- زوجي وأبوك .

- انك إلى الآن تأبين ان تذكرني لي اسم أبي .

- ولكنك ستعرفينه الآن فقد آن الأوان فاعلمي ان أباك

يدعى ...

- ما بالك توقفت يا أماء .. قولي ماذا كان يدعى .

- انه يدعى فرنسوا دي مونجورانسي .

فصاحت لويزا صيحة دهش ليس لأنها أكبرت أن تكون ابن هذا
الرجل العظيم ، وهي تعتقد انها ابنة رجل فقير ، ولكنها ذكرت أن أمها
طالما قالت لها ان كل نكبتها من رجلين ، وان أحدهما يدعى هنري

دي مونجورانسي .

وعادت أمها إلى الحديث ، فقالت : إن أباك يا لويزا كان قد
سافر محارباً في حرب شديدة ، فحسبت ، وحسب الناس كلهم انه
مات قتيلاً .

وانفق يوم كان أسعد وأشأم أيام حياتي معاً وهو اليوم الذي علمت فيه انه
لا يزال في قيد الحياة .

فقد عرفت ، في ذلك اليوم ، انه عاد من الحرب سالماً ، وانه
قادم إلي .

ولكن الذي بشرني هذه البشارة ، كان عمك ، وهو هنري
دي مونجورانسي .

- وأين الشؤم يا أماء في هذه البشارة ؟

- الشؤم هو ان هذا الرجل الهائل اختطفك من غرفتي بواسطة رجل شقي
من عماله وهو وحش مفترس كما كان يلعبه هنري نفسه .

وبعد ان أخبرني بعودة أبيك وانه اختطفك قال لي اني إذا كذبت بكلمة
فيما يقوله أمام أبيك عني يشير إشارة إلى ذلك الرجل الذي كان يراه من
النافذة فيخنقك .

- ربه ماذا أسمع ان هذا هائل عظيم .

- نعم وهو هول لا يخطر في بال إنسان . فتصوري ما كان من أمري حين
وقف هذا الخائن الذميمة يتهمني أمام أخيه بالغواية والخلاعة والعبث بالحقوق
الزوجية ، فإذا رأى مني إني أحاول تكذيبه تهددني بتلك الإشارة إلى ذلك
النمر الذي كان يحملك بين يديه ، فأخاف عليك الموت ، وأرضى الفضيحة
مكرمة ذليلة .

فأكببت لويزا على صدر أمها تعانقها باكية وتقول : أماء أفعلت كل ذلك من
أجلي . أماء كم كان عذابك شديداً .

فابتسمت تلك الأم ابتسامة دلت على مبلغ حزنها وصبرها ثم عادت إلى الحديث فقالت :

- لقد علمت الآن السبب في ما طالما قلته لك وهو انه يوجد رجل يجب أن تبغضيه وان تهربي منه كما يهرب الجبان من الموت ... إن هذا الرجل هو عمك هنري دي مونجورانسي .

-- لقد ذكرت لي رجلين يا أماء ، فمن هو الرجل الآخر ؟

- أتريدني به الرجل الذي اختطفك ؟

- نعم ..

- تشجعي يا ابنتي ، لأن هذا الوحش الكاسر كان يدعى الشفالييه دي بارداليان .

فاصفر وجه لويزا حتى بات كوجوه الأموات ، وسالت دمعتان من عينيها الذابلتين ثم قالت بصوت خافت : أهو والد الذي أحبه ؟

فأخذت حنة يد ابنتها بين يديها وقالت لها بملء العطف والحنو :

- نعم يا ابنتي ، لقد كتب لي ولك في لوح المقدور ان نكون شقيتين في

الحب .. لأن رجلاً شريفاً كريماً أنقذك من ذلك المفترس ورددك إلي وهو الذي أخبرني ان الذي اختطفك يدعى بارداليان .

نعم انه والد الذي تحبينه ، لقد علمت انه كان لهذا الرجل غلام وقد شب

الغلام ووضعته الأقدار في سبيلك كما وضعت أباه في سبيلي .

ولم تفقه لويزا بكلمة ، ولكن الشقاء كان يعض قلبها ، فقد كانت تحب الشفالييه دي بارداليان ، ذلك الفق الباسل الجميل الذي تقول أمها عنه انه

رسول شقاء .

وقد خشيت ان تكون أمها صادقة في حديث قلبها ، وان يكون الابن

درج على مبادئ الأب .

ومما زاد في أسفها انها جعلت تسائل نفسها فتقول : إني قد استغثت به

وقد رأى إشارتي وسمع صوتي فإذا كان شريف القلب صادق الحب فلماذا لم يبادر إلى نجاتي .

ولماذا كان واقفاً قبل الفجر في نافذته على غير عادته وفي نفس الساعة التي كانوا يقبضون فيها علينا .

ولماذا كان ينظر إلي هذه النظرات منذ عهد بعيد .

إذا لم يبق شك ان هذه النظرات كانت نظرات مراقبة لا نظرات غرام وان هذا الفق الذي توهمت انه يهواني لم يكن غير جاسوس ذلك الرجل الذي قبض علينا .

وبعد .. فمن عسى أن يكون هذا الرجل السري ، الذي قبض علينا .

وهنا جمد الدم في عروقها وانقطعت عن مناجاة نفسها فنظرت الى امها وقالت : أماء إن قلبي يكاد ينفطر .

فأجابتها تلك الأم المنكودة وقد أدركت حقيقة شقاها : لا تقنطري يا ابنتي لانك قد اجتنبت بهذا شقاء أشد وويلاً أعظم .

- ولكني لا أفكر بنفسي يا أماء .

- بمن تفكرين إذا ، أبه ؟

- كلا ... بل بذلك الرجل الذي اختطفنا ، لاني أخشى أن يكون ...

فقاطعتها أمها كأنها خشيت ان تذكر اسم ذلك الرجل الذي تخشاه ، وقالت لها : اسكتي .

ثم ضمتهما إلى صدرها وجعلت تقبلها والدموع تدرف من عينيها .

وفيما هما متعانقتان تبكيان ، فتح الباب فجأة ، فصاحت حنة صيحة رعب ، واصفر وجهها ، وتراخت بداها ، وقالت بصوت متقطع خافت :

هذا هو !

وعندها دخل الى الغرفة رجل وضع يديه على صدره ومشى الى حنة بملء
السكينة وهو يبتسم .

أما هذا الرجل فقد كان هنري دي مونمورانسي .

- ٢١ -

الجانوسة

ذكرنا عرضاً شخصاً من أشخاص هذه الرواية، ثم مضت على ذكره الفصول
دون ان نشير اليه .

ونريد به اليسر دي ليكس تلك الفتاة التي كانت مع ملكة النافار حين
أنقذها بارداليان من ثوار باريس يوم حادثة الجسر .

ولقد عرف القراء كيف ان هذه الفتاة ذهبت مع مولاتها ملكة النافار إلى
الجوهري الذي باعته مجوهراتها وكيف انها ركبت وإياها بعد ذلك المركبة التي
كانت واقفة في انتظارها قرب سانت جرمين .

أما المركبة فانها سارت بهما فمرت بقمة مونمارتر واجتازت النهر الصغير
المتسرب في الضواحي وذهبت توالاً إلى سانت جرمين في المكان الذي عقد فيه
الصلح بين الكاثوليك والهو كينوت .

وهو صلح لم يكن في حقيقته غير هدنة، لأن كلا الفريقين كانا يتأهبان ليوم
عصيب يقضي على واحد منها القضاء المبرم .

ولا بأس هنا ان نذكر كلمة موجزة عن هذا الخصام التاريخي بين الفريقين

١٩٦

من قبيل التفككة والفائدة فنقول :

عقد الصلح كما قدمنا لكنه كان صلح كذب ومواربة تذرع به كل من الفريقين
إلى التأهب كي تكون نكايته بعدوه أشد .

فكان الكهنة في الكنائس يحثون المؤمنين على المذبحة علناً غير هيايين
ولا وجلين .

وكان الملك شارل التاسع منع الناس من التقلد بالسلاح ، ما خلا الجيش
وفريق النبلاء .

وقد اتفق مرة انهم أحرقوا منزلاً بمن فيه لتوهمهم ان الهو كينوت يعتقدون
فيه الجمعيات السرية .

ومن غرائب الجهل في ذلك العهد ان هذا الخلاف الذي ذبح فيه الألوف من
الناس ، كان منحصرأ في ان حزب المصلحين ، كما يدعون أنفسهم ، كانوا
يريدون الصلاة باللغة الفرنسية وحزب الكاثوليك لا يريدون التقرب إلى الله إلا
باللغة اللاتينية .

فلما نشبت بين الفريقين تلك المعركة المعروفة بمعركة « مونكونتور » أبلغوا
الملكة كاترين ، والحرب لا تزال ناشبة ، ان النصر قد استتب للهو كينوت ،
فقال بملء البساطة :

« إذا سنتلو الصلاة باللغة الفرنسية »

ثم لما علمت ان النصر قد تأيد للكاثوليك قالت :

« الحمد لله إننا لا نسبحه إلا باللاتينية » .

ومن نوادر التعصب في ذلك العهد ، أنه حدث بعد التوقيع على
شروط الصلح بثمانية أيام ، أن أحد الباريسيين إختصم مع باريسسي ،
كاثوليكي مثله .

وكان الرجل لثيماً حقوداً ، فلم يجد لأذية خصمه غير ان يتهمه أنه من
الهو كينوت .

١٩٧

وحده قاضييه
منتدى ليلاس

فلما سمع الباريسيون كلامه ، انقضوا على هذا المنكود انقضاض الكراسر ومزقوه شر تمزيق ، وحاول اثنان ان ينتصرا له فأصابها ما أصابه من الموت .
وكانوا قد وضعوا في كل عطفة شارع تمثالاً للمذراء .

وكان يقف تحت كل تمثال نحو عشرين رجلاً من أجلاف القوم مدججين بالسلاح .
واذ قدر نكد الطالع لأحد الناس ان يمر بهذا التمثال دون ان يركع احتراماً له قطعوه ارباً بسيوفهم .

وهي حقيقة ثابتة يؤيدها التاريخ ، فقد جاء فيه أنهم قتلوا على هذه الطريقة خمسين بريئاً في مدة شهرين .
ثم تطرف أولئك اللصوص ، بما وجدوه من تراخي الحكومة ، فوضعوا صندوقاً تحت كل تمثال ، وحتموا على كل من يمر به أن يضع في هذا الصندوق شيئاً من المال ، والويل لمن كان يمتنع عن دفع هذه الضريبة .



ولنعد الآن الى سياق قصتنا فنقول :

قلنا ان ملكة النافار ذهبت في المركبة مع وصيفتها اليس ، الى سانت جرمين .
وهناك دخلت الملكة معها الى منزل ، ووجدت فيه ثلاثة رجال ينتظرونها فيه .

فنادت واحداً منهم قائلة : تعال يا كونت دي ماريلياك .

وكان هذا الرجل الذي نادته فتى في الخامسة والعشرين من عمره قوي

البنية ولكن هيأته تدل على الكآبة .
فانحى أمام الملكة وتبعها إلى غرفة دخلت اليها .

فلما اختلها ، قال لها الشاب : لماذا دعوتني يا سيدتي بلقب كونت ، وبهذا الاسم .

ف نظرت اليه الملكة نظرة تدل على استحكام السويداء منها ، وقالت له :

- اليس هو اسمك الذي دعوتك به ... أما منحتك لقب كونت ودعوتك بهذا الاسم ؟

فهز الشاب رأسه وقال :

- إني مدين لك يا سيدتي بحياتي و ثروتني واسمي . وقد طوقت عنقي يجميل لا ينزعه غير الموت . ولكني أدعى ديودات وان جميع الألقاب التي تتفضل بها علي ملكتي لا تغير اسمي .. وكل ما تضعه علي من الحجب والبراقع لا يخفي شقاء مولدي .

أيتها الملكة العظيمة ألا ترين ان جلالتك وحدك تدعونني باسم الكونت دي ماريلياك وان جميع الناس يدعونني الولد اللقيط ، إلا من تلتطف منهم فيدعونني ديودات .

فأجابته الملكة بلهجة حذان :

- كفى يا ولدي فأنت تكاد تبلغ حد القنوط ، واطرد هذه التصورات من مخيلتك لانها تقضي بك الى ما لا تحمد عقباه .

أنت باسل مخلص شريف وقد خطت لك الأيام أفضل ما يكتب في صحيفة المستقبل ، فكن بحيث وضعك حسامك وعقلك ولا تتأدى في حلبة الأوهام ، ذاك خير لك وأبقى .

فأجاب بصوت أجش : كلا لو أرادت الأيام ان تبسم لي لما أوقفني الاتفاق على سر مولدي ولما علمت اني ابن تلك الحية الرقطاء والدامية الدهماء التي لا يلد

لها غير شرب الدماء... تلك الملكة التي يدعونها كاترين دي مديسيس وهي نكبة
الفضيلة وعار النساء .
ولم يكذب يلفظ اسم الملكة حتى 'سمع صوت في الغرفة المجاورة فكان صوت
اندهاش ممتزج برعب .

ولكن الملكة وديودات لم يسمعا هذا الصوت ، فأجابت الملكة ديودات
قائلة :

- مهما يكن يا بني من الأمر ، فقد وجب عليك أن تحتفظ بهذا
السر الهائل .

وأنت تعلم مقدار حبي إياك ، لقد ربيتك كما ربيت ولدي ، فنشأت وإياه
نشأة واحدة ، وتلقيت العلوم من معلم واحد ، وكنتما صنوين متلازمين
متحدثين في كل أمر... فابق كما كنت من قبل ولدي بالتبني لان قلب الأم
يتسع لاثنتين .

فانحني ديودات وقبل يد الملكة باحترام ، فقالت له :

- والآن اصنع إلي .. اني محتاجة في باريس الى رجل صادق مخلص وفي ،
اعتمد عليه في مهماتي كما اعتمد على ولدي
- انا ذلك الرجل يا ملكتي ، ولن تجدي اصدق منه إخلاصاً .

فأخفت الملكة ظواهر حنوها وقالت له : لقد كنت أتوقع منك هذا
الجواب ، ولكن يجب ان تعلم ان الأمر خطير وانك معرض بحياتك
للأخطار فيه .

- إن حياتي لك ، وقد عرضتها مراراً للأخطار ، في سبيل ذلك
الذي يدعوني أخاه الأكبر ، أي ولدك يا سيدتي ، فكيف لا أجود بها
من أجلك .

- ربما اقتصر الأمر على الحياة ، ولكنني أخشى ان يطرأ من الحوادث
ما يدعوك الى تضحية قلبك ، فأنا لا أسألك أن تكون باسلاً ، بل أريد أن

تكون متناهيًا في الإخلاص .

- مهما كانت تلك الحوادث فلا أنسى اني مدين لك بالحياة وإني اذا لم
أكن شريداً شقيماً معدماً كما كان ينبغي ان أكون فما ذلك الا من فضلك ، فمري
يا سيدتي بما تشائين .
- إذا اصنع الي يا ولدي العزيز .

وعندها جعلت تكلمه بصوت منخفض يشبه الهمس ، على ثقته انه ليس
من يتجسسها .

فدامت المحادثة بينهما ساعة حتى اذا فرغت الملكة من القاء أوامرها انحني
ديودات وحاول تقبيل يدها .

ولكن الملكة جذبتة اليها فقبلت جبينه وقالت له : اذهب يا ولدي العزيز
وليبارك الله أعمالك .

فانصرف ديودات وذهب الى القاعة التي دخلت اليها الملكة حين قدومها ،
فلم يجد فيها غير الرجلين اللذين كان معهما .

فنظر نظرة سريعة الى ما حواليه ، كأنه يبحث عن غيرهما ، فلم يجد
من كان يبحث عنه ، ونزل الى الشارع وامتنطى جواداً وذهب في طريق
باريس .

وقد أطلق لجواده العنان يسير كما يشاء وهو يلتفت من حين الى حين الى
المنزل كأنه يأسف لفراقه .

وما زال يسير حتى وصل الى فندق ، فترجل عن جواده ، وطرق
باب ذاك الفندق ، وبات فيه تلك الليلة لان أبواب باريس كانت مقفلة في
الليل ولا تفتح الا في الصباح . ولكنه بات بليلة الملسوع لكثرة تفكيره
وهواجسه



وحده قاضيه متندي ليلاس

ولنعد الآن الى ملكة النافار فانها بعد انصراف ديودات بقيت في تلك
الغرفة مطرقة مفكرة
ثم هبت من سبات تصوراتها ففرعت جرساً وصبرت فلما لم يجيبها أحد عادت
الى قرع الجرس .

وعند ذلك فتح الباب ، ودخلت منه اليس وصيفتها ، فقالت لها :
أسأل جلالتك العفو ، لقد كنت بعيدة عن غرفتك ، فلم أسمع
قرع الجرس .

وكانت الملكة جالسة على كرسي كبير فنظرت اليها محدقة نظرة غريبة
تكهرب لها جسم الفتاة :

- لقد قلت لك يا اليس ، بعد ان سلمنا وأمنا الخطر انك أخطأت
يجعل مركبتنا تمر فوق الجسر ، وأخطأت برفع سجدف المركبة ،
وأخطأت بذكر اسمي أمام تلك الجماهير المحدقة بالمركبة ، وأنت تعلمين
أنهم أعدائي .

- لقد أصبت يا سيدتي ولكني أوضحت لجلالتك ...

فقاطعتها الملكة قائلة :

- اني قلت لك في تلك الساعة « أخطأت » وكنت منخدعة في هذا
التعبير بل كنت أوهمك اني منخدعة لأنني لو قلت لك حقيقة ما أعتقده في تلك
الساعة لعرضت نفسي لبوادر أخرى تبدر منك قد تكون القاضية علي في
ذاك الوقت الرهيب .

فاصفر وجه اليس وقالت : اني لا أفهم يا سيدتي ما تعنين ؟

- ولكنك ستعلمين مرادي ، أعلمي الآن يا اليس انك حين جئت إلى بلاط
النافار قلت لي إنك هاربة من فرنسا خائفة من انتقام الملكة كاترين لاعتناقك
مذهب الهوكينوت

وكان ذلك منذ ثمانية أشهر فتلقيتك بالرضى كما أتلقى جميع الملتهجين إلي

في هذه الشؤون
ورأيت انك كريمة النسب فجعلتك من نساء الشرف في بلاطي ، وأنا الآن
أسألك وأريد ان تجيبي بجلاء ... هل حدث لك في بلاطي مدة إقامتك فيه ما
يدعو إلى الشكوى ؟

- كلا بل ان سيدتي قد غمرتني باحسانها وحيث ان جلالتك قد تدانث إلى
سؤالي فالتمس منها ان تأذن لي بسؤال القيه ، هل فعلت أنا خلال الثمانية أشهر
ما يوجب سخطها علي ؟

ألم أقم في جميع هذه المدة بكل ما فرض علي من الواجبات في خدمة
جلالتك خير قيام ؟

إنهم يلقبونني « النافارية الحسنة » فهل بدرت مني على هذا الجمال بادرة ،
وهل أغريت احد أبطالكم فأشغلته عن الاهتمام بالحرب ؟

وأخيراً هل ظهر مني منذ اعتنقت مذهبكم ما يدل على عدم الاحتراف بامر
هذا المذهب ؟

فاجابتها الملكة بلهجة خطيرة أضمنت همه الفتاة وقالت :

- لا أنكر انك أظهرت من الفيرة على المذهب والتشيع له ما لم
يظهره سواك من المتمكنين . . . ولا أنكر أنك نهجت أشرف المناهج مع
رجال البلاط ...

ولا أنكر انك أقمت بواجب خدمتي حق القيام بل أزيد على ذلك انك كنت
تلازميني وتأتين إلي في غير حين حاجتي اليك بحيث كنت دائماً بقربي لتري كل
شيء وتسمعي كل ما يقال .

وقد كانت الشكية ظاهرة جلية ، فاضطربت اليس اضطراب ورق الحريف
وقالت : اني أخاف ان أفهم .

فنظرت اليها الملكة نظرة إسفاسق ، وقالت : ولكن يجب مع ذلك
أن تفهمي . . .

إن الشك بك لم يخامرني إلا منذ أسبوعين . وكنت أود ان أصونك
من خجل العار لأني أحبك ولكن لا بد لي من إبعادك لأني واثقة
من خيانتك .
- أتطردني جلالة الملكة ؟

فأجابتها بملء البساطة : نعم .

وساد السكوت هنيهة كانت اليس في خلاله واقفة وقفة المجرمين تنظر إلى
ما حوالها نظراً قلقاً مضطرباً لا يستقر على شيء .
ثم تنهدت تنهداً طويلاً وقالت : إن جلالتك منخدعة . . . واني ضحية
النميمة دون شك .

وقد كانت ملكة النافار متأثرة من اضطراب وصيفتها فوق تأثر تلك
الوصيفة من طردها لأن النفوس الكبيرة لا تطيق احتمال الخيانة وتشفق على
ضعف الانسان .

وقد نفرت من خيانة اليس ، واستعظمت ان تخونها بعد طول إحسانها
اليها . ولكنها أشفقت ان تراها في هذا الموقف الحرج ، تجمع كل قواها
العقلية في التماس برهان يؤيد براءتها ، كما يخبط الطير بأجنحته للافلات من
يد القناص .

فنظرت اليها نظر المشفق وقالت لها : إصغ إلي يا اليس .

لقد كان يجب علي ان أدفعك الى قضائنا كي يثبتوا خيانتك ويعاقبك
بما تقضي به القوانين ، ولكنني أشفق عليك وأكتفي بارجاعك الى الملكة
كاترين .

- إن جلالتك منخدعة . . . إني بريئة

فهزت الملكة رأسها وقالت : ألا تذكرين ذلك اليوم الذي دخلت إلى
غرفتك فجأة وأنت تكتبين ، فلماذا القيت ما تكتبينه في النار حين دخولي
وعرضت نفسك للظنون

فتظاهرت اليس بالاضطراب الشديد وقالت : أرى انه لا بد لي من أن
أعترف لجلالتك بالحقيقة . . . إني أحب يا سيدتي . . . وقد كنت أكتب الى
الذي أحبه .
- هذا الذي اعتقدته في ذلك اليوم وهذا الذي دعاني الى السكوت

لكن أحد رجالي رآك في ذلك اليوم تتحدثين مع رجل يحمل البريد إلى
باريس ، ثم ذهب الرجل مسرعاً الى باريس ولم يعد ، فلماذا ؟
- إني عهدت اليه بمهمات الى بعض الأصدقاء في باريس ، أيكون الذنب
ذني اذا لم يعد ؟ وبعد : فمن يعلم ، إنه قد يكون قتل في الطريق .

- وعندما اجتمع قواد جيوشنا للمداولة فلماذا كنت يا اليس مقيمة في تلك
الغرفة المشرفة على قاعة المداولة ؟
- ان هؤلاء القواد باغتوني بالدخول الى القاعة وانا في الغرفة ، فلم أستطع
الخروج منها .

- حسناً ، إنك تدافعين عن نفسك بالبراهين المختلفة ، وقد أقنعتني
براهينك . . . ولكنني ، كما قلت لك ، بدأت أرتاب بك منذ أسبوعين
رغبة شديدة .

- ولماذا يا سيدتي ، لماذا ؟

- لقد بدأ شئني بك منذ إلحاحك علي بمرافقتي الى باريس وكان جميع رجالي
يشكون بوفائك ويرسلون إلي التقارير الكثيرة عنك فأردت أن أعرض حياتي
للخطر إثباتاً لبراءتك .

- وأنت ترين يا سيدتي اني بريئة ، لأنك لا تزالين في قيد الحياة .

- لولا هذا البطل الذي أنقذني لبلغ أعدائي مني ما يريدون . . . اليس إنك
كنت متفقة مع الذين كانوا يريدون قتلي ؟
- معاذ الله يا سيدتي أن أفعل .

- اليس دي ليكس . إنك أنت التي أردت ان تمر المركبة فوق الجسر ،

وأنت التي كشفت السجف كي يروني ، وأنت التي ذكرت اسمي كي يسمعه أعدائي ، وأنت التي حاول أحد أولئك القتل ان يعطيك رسالة حين انقلبت المركبة ، فلم تنتهي الى الرسالة لاضطرابك ولكني كنت أقل اضطراباً منك فالتقطتها وهذه هي ثم دفعت اليها تلك الرسالة مطوية .

فركعت اليس وقد شعرت ان الأرض تميد بها لما اعترها من الخجل وحاولت الكلام فلم تستطع .

فقالت لها الملكة : خذي الرسالة إنها لك .

فأخذتها الجاسوسة دون ان تجسر على النظر الى الملكة .

فقالت لها : أأمرك ان تقرأها لأنها واردة اليك من أسياذك .

فقرأت اليس بصوت يتلجلج ما يأتي :

« إذا نجحت المهمة فاحضري غداً صباحاً الى اللوفر ، وإذا لم تنجح

فالتمسي إجازة بعذر من الأعذار واحضري الى اللوفر بعد ثمانية أيام لان الملكة

تريد ان تراك ،

وكانت الرسالة خالية من التوقيع .

فأنت اليس بعد قراءتها أنين المومع ثم عادت الى الاطراق دون ان تنبس

بكلمة او تجسر على النظر الى الملكة .

أما الملكة فانها أشارت بيدها الى الباب وقالت لها : اذهبي !

فنهضت الجاسوسة ومشيت الى الباب وهي تتعثر بأذيالها ، ففتحت

الباب بيد تضطرب . وما كادت تخرج منه حتى جعلت تركض كالجائنين وهي

لا تعلم أين تسير .

أما الملكة فانها عادت الى الغرفة التي كان يقيم فيها الرجلان وقالت لهما :

هلموا بنا فاننا مسافرون .

وذهبت وإياهم فنظرت الى ما حوالها قبل ان تتركب المركبة كأنها تبحث

عن اليس لتعلم في أية وجهة ذهبت .

وأما اليس فإنها خرجت من المنزل ومشيت وهي لا تعلم أين تسير .

ثم وقفت مضطربة حائرة وجعلت تحدث نفسها فتقول :

إلى أين أذهب ؟ .. وأين أختبئ ؟ .. وماذا يحيق بي متى عرف

بما جرى ؟ ..

رباه .. ماذا أصنع ؟ .. أذهب الى باريس ؟ .. أسير الى الملكة كاترين

الهائلة ؟ ..

كلا .. كلا .. رباه ماذا صنعت ؟ .. وأي إثم ارتكابه فقد حاولت

قتل ملكة النافار .

اني أرى الأرض تميد بي من الخجل والعار ، وأي إثم أفطع من هذه الجريمة ..

ان الظلام مد لهم الآن فلا يراني أحد ..

ولكن النهار على وشك الطلوع ، ومن يراني ولا يقرأ بين عيني ما كتب

من العار .

ثم جلست على حجر ، وحملت رأسها بين يديها ، وقامت في مهامه

التفكير .

كانت هذه الفتاة من أبداع ما تراه العيون جمالاً ، ولكن من رآها في هذه

الساعة وقد جهزت عينها واصفرت وجنتها ينكر فيها ذلك الجمال الفضاح

الذي كانت تضرب به الأمثال في بلاد النافار .

وقد جلست على الحجر وجعلت تقول : ماذا أصنع ؟ .. أهرب من

الملكة كاترين ؟ ..

ويح لنفسي وأين أختبئ ، منها الا في ظلمة القبر ... ولكني يعز علي الموت

فلا أزال في نضارة العمر .. كلا .. لا أريد الموت . فسيري أيتها الشقية الى

أقصى ما رسمته لك الخيانة من الهاوي .. اذهبي أيتها الجاسوسة السافلة الى

تلك الملكة الهائلة فانها تنتظر قدومك .

وهكذا كانت هذه المنكودة تؤنب نفسها وهي لا تدري ما تصنع في موقفها الحرج

هل اننا قد نكون تسرعنا في الاشفاق عليها فستظهر لنا حوادث هذه الرواية حقيقة حالة هذه الصبية فيحكم عليها القراء بما يرون .

وبعد ان استقر رأيها على الذهاب الى الملكة وقفت وجعلت تسير متعبة في طريق باريس كأنما قوة خفية تجذبها اليها .

وهي تسير مسرعة ، كأنها تريد الإسراع بالبعد عن ملكة النافار فراراً من الخجل .

وكانت المسافة بينها وبين باريس ساعة ، وأبواب العاصمة مغلقة في الليل . فجعلت تسير بين الأشجار وهي خائفة وجلة حتى انتهت الى منزل كان ينبعث منه النور فأمرعت اليه وقد وهت رجلاها من السير .

حتى اذا وصلت اليه علمت انه فندق للمسافرين فدخلته وأسنانها تصطك من البرد ، فدخل بها صاحبه في البدء الى محل الاستدفاء ، وذهب ليعدها غرفة لمبيتها .

فلما دخلت اليس رأت رجلاً جالساً في ذلك المكان يستدفيء بناره وظهره الى الباب .

وخرج بارق من النار أضاء المكان لحظة ، فعرفت الرجل ، وصاحت صيحة دهش .

الفندق

كان هذا الرجل ديودات وقد سمع صيحة الفتاة فالتفت فرأى أليس دي ليكس واقفة في تلك الغرفة تنظر اليه .

فاصفر وجهه ، ووثب من مكانه وثباً فسار اليها وأخذ يدها بين يديه وهو يقول :

من أرى؟ أليس . كيف أتيت وما هذا الاتفاق السعيد فقد رأيتك وأنا افكر بك وقلبي يكاد ينفطر لفراقنا الطويل ..

إذا ، لست شقياً إلى الحد الذي كنت أتصوره ولا يزال للمنساية رفق بي إذ قد رأيتك .

وقد أخذ بيدها وسار بها إلى حيث كان جالساً عند المستوقد وقال لها :

أدني من النار يا أليس . ماذا أرى : أهذا أنت ؟ اني أكاد أكذب عيني . ما هذا الأصفرار ؟

فقال أليس في نفسها ويلاه ماذا اجيبه ؟

فذهل ديودات لسكوتها وقال لها :

ماذا اصابك يا أليس وما هذا السكوت ؟

فلم تجب أيضاً .

وكان كل من الاثنین يحب الآخر حباً مبرحاً صادقاً فذعر ديودات لما رآه من

اضطرابها فأخذ يدها بين يديه وقال :

أليس ، لماذا لا تجيبين ؟

فاغمضت الفتاة عينيها وقالت في نفسها : ربه ما أشد ويل هذه الساعة ،
اني أوثر الموت الف مرة على أن أقول الحقيقة وأعرض نفسي لاحتقاره .

أما ديودات فقد انقلبت دهشته إلى رعب فقال لها بصوت حنون .

اراك مريضة أيتها الحبيبة ، وسأعود بك إلى ملكة النافار ، فانها لم
تسافر بعد .

فاهتزت اهتزازاً عنيفاً ولكنها أيضاً لم تجب .

فقال لها يا ملاكي المحبوب ويا كل ما ارجوه في هذه الحياة اني لا أجد
لساناً يفصح عن امتناني لما اراه من اخلاصك وصدق حبك . وكفى دليلاً على
طهارة قلبك وصدق غرامك انك ما أطقت فراقى فسافرت ساعة سفري ،
وانعمت علي بهذا اللقاء بل بهذا النعم .

ولكن أمر قدومك إلي يجب أن يبقى مكتوماً ، إذ لم تحن الساعة بعد
لإظهار غرامنا . .

تدفأني أيتها الحبيبة وسنعود بعد ساعة إلى سانت جرمين فاعترف لملكة
النافار بغرامنا وأعود إلى السفر فتنتظرين عودتي آمنة مطمئنة .

وعند ذلك عولت أليس على الكلام إذ وجدت ما تقوله فنظرت إلى حبيبها
وقالت له بصوت مضطرب : أن الملكة سافرت .

فذهل ديودات وقال : سافرت ؟

قالت نعم ، منذ ساعة وقد اغتنمت فرصة صعود الملكة إلى المركبة
وهربت . . وسمعت صوتها يناديني ، فلم أجب ، فسارت المركبة بالملكة
وجئت أنا اليك .

- لقد أخطأت خطأ عظيماً يا أليس فان هربك للاحاق بي يداني على صدق
اخلاصك في حبي بل قد يزيدني غراماً بك إذا بقي في قلبي متسع للزيد

أيتها الخطيبة الحبيبة ، ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من أمر خطبتنا وغرامنا فما
عساها تفتكر وما عساها تقول :

فنظرت أليس اليه نظرة ملؤها الحب وقالت له : لتقل ما تشاء فلا ابالي
بما يقولون .

اني لم أطق احتمال فراقك الطويل . . ولما رأيتك ذاهباً في طريق باريس
شعرت بقوة لا تغلب تدفعني إلى السير في أثرك . فابقني معك أيها الحبيب ولا
ترجعني من حيث أتيت .

وكانت أليس تقول هذا القول وهي تضطرب غير أن اضطرابها لم يكن
اضطراب غرام ولا حياء أو أنس ، بل كان لاندفاعها في الكذب مكرهة
أمام من تحب .

غير أن ديودات لم يفهم من هذا الاضطراب غير معنى الغرام فهاجت
عوامل الحب في قلبه الشريف ، واغرورقت عيناه بالدموع فركع أمام الفتاة
وجعل يقبل يديها ويفسلها بدموعه ويقول :

أسألك العفو يا اليس ، فإنك أظهر مني قلباً وأعظم نفساً ، فلا أستحق
أن أفوز بنعمة حبك .

نعم أيتها الحبيبة أنت لي وأنا لك يجملي إلى الأبد ، ونحن كذلك منذ أول
يوم رأيتك فيه .

أتذكرين يا اليس يوم جئت من باريس . . حين كنت وحيدة ، وقد
تحطمت مركبتك على الجبال ، وتحلّى عنك المرشدون فجعلت تسيرين
شريدة وحيدة إلى أن لقيتني على شاطئ ذلك النهر الذي لم تستطعي
اجتيازه ؟

أتذكرين يا اليس كيف رويت لي حياتك ، وكيف كنت أصغي اليك
ممعجباً مفتوناً بذلك الحديث .

اننا لبشنا ذلك اليوم حيناً طويلاً تحت شجرة الجوز إلى ان ظهر

الشفق ، فحملتك بين ذراعي واجتزت بك ذلك النهر وذهبت بك إلى ملكة النافار .

وعند ذلك وقف بعد أن كان راكماً ، وقد اتقدت عيناه بأشعة الحب الخالص ، وبقيت الفتاة تنظر إليه باعجاب وافتتان ، وقد نسي كلا العاشقين انها مقيان في فندق عام .

~~ولكن الفهم قد أخذ في تليها ، فلم يكن له القبول مني .~~
بال ~~مكتوبه~~ ~~تبروا~~ ~~من~~ ~~الوجود~~ .

ويأها ساعة يظهر فيها العوام بسن جلاله وسطانه ~~في توج العوام~~
أي امتزاج ، حتى لا تبرح ذكرى تلك الساعة أذهان العاشقين ولو كرت عليهما الأدهار .

فقد كان يخال لها أن السماء قد فتحت أبوابها لتظهر لها كيف يكون النعيم .

وقد بلغت تلك الجاسوسة من الجمال مبلغاً تقف عنده الأبصار حائرة ، وهو جمال نادر فضاح يشبه جمال ملائكة الشر ، كما كان يمثلها الأقدمون فلا تزرع حيث تمر غير الشر ، ولا يحصد العالق بأشراكها غير المصائب

ومع ذلك فقد كانت صادقة في غرامها مخلصه في حبها لابن الملكة كاترين ، فلا يتسرع القارىء في الاشفاق عليها ، ولا يندفع في كرهها وليصبر إلى أن يقف على كل أمرها ويعرفها حق العرفان .

وعاد ديودات إلى الحديث فقال :

منذ ذلك اليوم بدأ حبنا يا اليس ، واني لو عشت عشرين مرة في عشرين وجود لما نسيت تلك الساعة التي حملتك فيها بين ذراعي .

نعم ان حبك نفذ إلى قلبي منذ تلك الساعة كما تنفذ أشعة الشمس إلى الأثناء فتملأه نوراً .

نعم اني كنت في ذلك العهد مظلم النفس تشور الهبوم في قلبي ثورة العواصف

ويملك اليأس عناني فتظلم الدنيا في وجهي ، وتضيق بي على ر- بها ، فجعلت ظلامي ضياء ، وبألمي رجاء وشقائي سعادة وهناك .
ليس انك غبطتي ونعيمي في هذه الحياة ، فلنعش سعيدين وللنسي كل ما في هذا الوجود .

فوقفت اليس عند ذلك ~~والكبر على من يراهم~~ ، ثم أسندت رأسها المصفر على ~~صخر~~ وقالت :

أواه انك لو استطعت الثبات على ما تقول ، وقدرت على نسيان كل ما في هذا الكون ، لما أعوزنا من أسباب السعادة شيء .

راضع إلى أيها الحبيب ، فأنا أيضاً كنت مثلك حليفة اليأس ، فما ظهر لي الرجاء إلا من بارق عينيك ، وكلانا أنقذ صاحبه من مهاوي الشقاء .
وأنت لي يحملتك وأنا لك يحملتي ، وكلانا لا يرى النعيم إلا بقرب حبيبه فلنهرب أيها الحبيب ولنبرح فرنسا إلى بلاد ساكنة آمنة ندفن فيها شقاءنا القديم ، ونحبي سعيدين بفرامنا الخالد .

قل ، أتريد أيها الحبيب . . . صر بي إلى حيث تشاء أكن لك أتبع من ظلك وأطوع من بنائك بشرط أن نكون بعيدين عن باريس وعن فرنسا .
هلم بنا أيها الحبيب ولنهرب من هذه البلاد إلى حيث يطيب لك المسير ، أكن لك زوجة بل أمة ، فإنك بذلك تنقذني من نفسي .

وكانت تلفظ هذه الكلمات بلسان يتلثم ، وقد بدت عليها دلائل الرعب ، فذعر ديودات لذعرها وقال لها : اليس . ماذا أصابك وما هذا الخوف ؟

قالت : أرضيت بالفرار أيها الحبيب . . . هلم بنا ولنذهب قبل طلوع النهار

وكأنها خشيت أن يسيء الظن بها لما رآه من خوفها ولاالحاحها عليه بالفرار ، فبذلت جهداً عنيفاً بحيث أعادت اليها السكينة ، ونظرت إلى

ديودات فابتسمت له وقالت :

لا تنكر علي تكرير لفظة الفرار ، فما أردت بهذا التعبير غير السفر ، وما أردت بالسفر واياك إلا الاعتماد عن هذه البلاد ، فلا يكون لك ما يشغلك عني ولا تضطر مكرهاً إلى فراقى حتى دون وداع كما اتفق لك هذه الليلة . إلا أكون بذلك نجوت من الأحزان .

- هو ذاك أبتها الحبيبة ، ولكنك شديدة الاضطراب .

- لقد زال اضطرابي وما أنا الآن في اتم حالات السكون ، اعيد عليك ما قلته ، واسألك موافقتي على السفر .

هلم بنا إلى اسبانيا إذا أردت أو إلى ايطاليا إذا احببت ، فان من كان بأسلا مثلك لا يعدم ملكاً أو اميراً يحتاج إلى سيفه .

فأجلسها ديودات على كرسي يجانبه ، واطرق هنيهة مفكراً ، ثم نظر اليها وقال :

اصغي إلي يا اليس فاني اقسم بك وبفرامك ، وهو اجل قسم عندي ، إنني لو كنت مطلق الإرادة لأجبتك لفوري ، هلمي بنا إلى حيث تشائين ، فان كل بلد من بلاد الله احسبه فردوساً إذا كنت معي فيه .

- كيف ذلك : الست مطلق الارادة ؟

- بل انت كيف تسأليني هذا السؤال ؟ ألا تعلمين من امري ما اعلم ؟

وسياتي يوم اخبرك فيه بسر مولدي يجملته حتى اني سأخبرك باسم امي .

فارتعشت اليس لأنها كانت قد علمت هذا السر الذي يكتمه عنها ، بما سمعته من محادثته مع ملكة النافار حين كانت مختبئة في الغرفة المجاورة كما تقدم .

ومضى ديودات في حديثه فقال : نعم سأخبرك بكل امري ، ولكن اعلمي الآن انه يوجد امرأة اضحي حياتي في سبيل اقتدائها وهي ملكتنا اي ملكة النافار .

ان هذه الملكة كستني من عري واشبعني من جوع ، وكفلتني فصيرتني رجلاً بعد ان كنت من اشقى الأشقياء ، فأنا مدين لها بحياتي وشرفي وهنائي .

فاذا عرفت ذلك فاعلمي ان هذه الملكة التي تناديني ولدها وادعوها امي محتاجة إلي ، وقد اقسمت لها ان انفذ اوامرها ، فاذا سافرت الآن فلا اكون قد فررت فقط فرار الجبناء ، بل اكون نذلاً خسيئاً خائناً ، بل اكون أخس من اولئك الجواسيس الذين تستخدمهم الملكة كاترين في سبيل اغراضها . افهمت الآن السبب يا اليس ؟

فامتقع وجه الفتاة لعبارة عشيقها الأخيرة وقالت له بصوت خافت : نعم

فهمت ولا سبيل إلى السفر .

- دون ريب فان حياة الملكة معرضة للخطر إذا لم اذهب إلى باريس .

- هو ذاك فان الأخطار تتهددها ولا بد من نجدها .

- وسأكون في خدمتها ما حييت ، فلا تحسبي ان خلوصي في خدمة

الملكة يؤثر في شيء على خلوصي في حبك ، فكلارك ملاكي وكلارك حارسي .

اما وقد سافرت الملكة فلم يبق بد من الذهاب معي إلى باريس ، وهناك

تقيمين في منزل اعرفه فتكونين آمنة كل ريب .

- منزل من ؟

- منزل الاميرال كوليني .

فهزت الفتاة رأسها ولم تجب .

فقال لها ديودات ، الاتحيين الاقامة في منزل الاميرال ؟

فأطبقت عينيها كأنما النعاس والتعب قد انهكها فهي تطلب الرقاد ،

والحقيقة انها كانت متعبة غير انها لم تكن تريد النوم كما تظاهرت بغية الراحة

بل كانت تبغي الاختلاء كي ينطلق لها العنان في التفكير والتدبير ، واختلاق

الكذوبة جديدة تنقذها من موقفها الحرج الشديد .

فقالت له وهي مغمضة العينين : اني محتاجة الى النوم ، واود ان اقام
قرب هذه النار فان تعبي شديد .

فأسرع ديودات فنسأدى صاحب الفندق وامره ان يحضر فراشا
وغطاء ، ففعل ونامت اليس : وديودات ساهر بقربها ينظر اليها معجباً
مفتوناً بذلك الجمال .

اما اليس فانها كانت تفكر في ما صارت اليه وفي موقفها الحرج ، فان
هذه الجاسوسة كانت تعبد ديودات عبادة .

ولكن الفرق في غايتها وسعيها كان شديداً التناقض ، فان ديودات ابن
الملكة كاترين كان يحملته للملكة النافار .

واليس كانت جاسوسة الملكة كاترين ، ولا تسمى إلا لقتل ملكة النافار ،
والعداء بين الملكتين عظيم .

فكان ديودات واليس خصمين في السياسة ، عدوين لدودوين يقضي الواجب
على كل منهما ان يقتل الآخر .

غير ان ديودات لم يكن يعلم شيئاً من امر اليس ، في حين ان اليس كانت
تعلم كل خفاياها .

وقد طال تفكير الفتاة الى ان حصرت افكارها في امرين ، وجعلت
تنظر فيهما وتحصنها ، وهما الانتحار او الحياة .

فبدأت تفحص فكرة الانتحار فاستسهلته في البدء حتى أوشكت ان
ترجمه كي تنجو من العار أمام حبيبها .

ولكنها كانت تحبه حباً مبرحاً ، فتمثلت لها السعادة بقربه حتى انتصر
الفرام ونبتت فكرة الانتحار .

ثم عادت إلى الافتنار بالحياة فخطر لها انها تستطيع ابعاده من باريس
والتخلص من الملكة كاترين .

ولكنها لا بد لها قبل كل ذلك ان تفترق مدة عن حبيبها .

وهنا خطر لها خاطر نحيف وهو ان ديودات قد يجتمع خلال هذه المدة
بملكة النافار ، وان الملكة قد تخبره بما كان من أمرها .

ثم قالت : ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من حيننا ، وهي قد طردتني
من خدمتها طرد المشفقة علي ، فاذا لم يباحثها ديودات بشأني فلا سبيل
إلى ان تفاتحه به .

ولذلك فقد وجب ان أجد حيلة تمنعه من محادثة الملكة بشأني .

ولم يبق عليها بعد ذلك إلا ان تجرد حيلة للفراق الموقت كي تتمكن من

مقابلة الملكة كاترين والتخلص من خدمتها .

وعند الفجر نهضت من مضجعتها ، فوجدت خطيبها لا يزال ساهراً عليها

فابتسمت له ابتساماً سحره .

وبعد مناولة الطعام عادا إلى الحديث ، فعرض عليها ديودات أن

تقيم في قصر الأميرال كوليني ، فابت واقتربت أن تكون اقامتها في

منزل قريبة لها على زعمها ، على ان يزورها في ذلك المنزل مرتين

في الاسبوع .

فوافقها ديودات وخرجا من ذلك الفندق ، فامتطى جواده وارادفها وراه

حسب العادة في ذلك العهد ، وسار بها حتى وصلا إلى باريس ، فاوصلها إلى

المزل الذي ذكرته له وهناك ودعها وانصرف .

اليس دي ليكس

وطرقت اليس ذلك الباب ففتح لها ودخلت منه رواق طويل . ثم صعدت سلماً إلى دور هذا المنزل الأعلى ، فاستقبلتها امرأة كهلة بالترحاب ، وسارت بها الى قاعة فاجلستها وقالت لها . كيف انت يا اليس ؟
فتنهدت الفتاة وقالت : على اسوأ حال يا لورا ، فقد انهكت الدسائس عقلي واضعفت جسمي وأنفت لكثرة خياناتي فسئمت العيش .

فضحكت لورا وقالت : ما هذا الانقلاب يا اليس وماذا حدث ؟

- لم يحدث شيء ، ولكفي متعبة منهكة القوى ، فاعطني شيئاً من ذلك الاكسير الذي عودتني شربه عساي ارتاح مما انا فيه .
- ألا تريدان أن تأكلي ؟
- لا أجد شهية للطعام .

فاحضرت لورا ما طلبته ورفقتها جرعة من ذلك الشراب ، فانتعشت لغورها وتبدل اصفرارها بالاحمرار ، فأخذت تفحص كل ما كانت تراه في تلك القاعة كأنها لم تعرفه من قبل ، ولورا تراقبها وهي منذهلة مما تراه .

حق وقفت اليس عند رسم معلق على الجدار ، فاهتزت حين رآته ووقفت تتأمله ملياً .

ثم التفتت فجأة إلى لورا وقالت لها : يجب نزع هذا الرسم من مكانه .

- لماذا ؟ أتريدان نقله إلى غرفة النوم ؟

فاحمر وجه اليس وقالت : كلا بل اريد اقلافه امامي .
فصعدت لورا فوق كرسي لتزع الرسم وهي تقول : مسكين انت ايها
المارشال .

ثم انزات الرسم فقطعته ارباً والقته في النار .

وبقيت اليس تراقب تمزيقها حتى انتهى ، فجلست على كرسي وقالت

للكهلة : سيحضر شاب إلى هنا يا لورا يوم الجمعة في المساء .

فابتسمت لورا ثم نظرت إلى الفتاة نظرة حاولت ان يكون لها معنى

الاشفاق .

فقالت لها اليس : لماذا تنظرين إلي هذه النظرات ، العلك مشفقة علي ...

نعم اني محتاجة إلى الشفقة . فاصغي إلي الآن .

ان هذا الشاب يأتي يوم الجمعة والاثنين من كل اسبوع .

- كما كان يأتي الآخر .

- هو ذلك ، فاني لا اكون مطلقة الحرية إلا في هذين اليومين . أفهمت

ما اقوله لك يا لورا ؟

- دون ريب وسأعود إلى تمثيل دور القرابة ، فانا ابنة عمك ،

اليس كذلك ؟

- كلا ، فقد قلت له انك عمي .

- العل هذا العاشق الجديد خير من المارشال هنري دي مونغورانسي الذي

مزقت رسمه .

- لا تذكرني هذا الرجل امامي ، فانه لم يكن غير عشيقتي .

- وهذا الجديد .

- هو الرجل الوحيد الذي احببته واحبه في هذا الوجود

والمارشال ، لم تحببه ، والذي كان قبل المارشال ؟

فصفر وجه اليس وقالت : أتريدن به المركيز دي باني جارولا .

- نعم هو نفسه اتعلمين ماذا جرى له

- كيف تريدن ان أعلم .

- انه انخرط في زمرة رجال الدين ، وبات من الكهنة للوعاظ واشدم
تحمساً وغيره على الدين ومن كان يدور في خلده ان هذا الفق الذي كان من
ابسل رجال السيف ينقلب هذا الانقلاب . فقد خطب أمس خطبة بليغة حث
فيها الناس على الفتك بالهو كينوت .

فذهلت اليس وقالت : المركيز باني جارولا من الرهبان ؟

- قالت هذا حال الانسان في تقلبه ، فبينما هو من أهل الشر والفساد يتوب
توبة صالحة ويستحيل فجأة ميله إلى الخير . فلندعه في شأنه فقد طوي تاريخه
عندنا ، ولنبحث في هذا العاشق الجديد ، فماذا يدعى ؟

فلم تسمع اليس سؤال لورا لاسترسالها في التفكير ، وقد تقطب وجهها ثم
عاد اليه امرأته تبعاً .

فنظرت إلى لورا وقالت لها : إذا كان ذلك فقد اصبحت مطلقة السراح
كما أريد ، والكنك لم تقولي لي في أي دير يقيم

- في دير جبل القديسة جنيفيا

- وهو يتولى الوعظ والارشاد كما تقولين

- نعم وأكثر من يسمع عظاته من النساء الجميلات ، وهن يعترفن له
بخطاياهن ايضاً . وقد اتصل بي انه كثير التسامح ، يغفر كثيراً لانه
اخطأ كثيراً .

- إذا بوسمك يا لورا ان تنقذي حياتي .

- كيف ذلك وماذا يجب أن اصنع ؟

- يجب أن تذهبي إلى هذا المركيز أو هذا الراهب ، وتحمليه على القبول
بسماع اعترافي .

فنظرت لورا اليها نظرة الفاحص ، فلم تجرد غير وجه مضطرب بحزن
شديد ، وعينين تدلان على الطمع بالرجاء ، فقالت في نفسها : لا بد ان يكون

لها سر خفي يجب ان اعرفه
ثم اجابته قائلة : ان الأمر سهل يا اليس فانه مخصص معظم اوقاته
لهذه الاغراض

- ولكن احذري ان تذكر لي اسمي ، وأنت تعلمين يا لورا اني أحبك
حبا أكيداً ، فقد انقذتني مرة إذا كنت تذكرين .

- نعم ولا شك عندي انك تثقين بي ثقة شديدة ، ولكنك لم تذكر لي
بعد اسم هذا الشاب الذي سيزورك يوم الجمعة ويوم الاثنين .

- لم يكن الوقت بعد يا لورا للاباحة باسمه فان هذا الاسم سر هائل لا
أجرى الى الآن أن أردد ذكره في ضميري وانا اناجي به نفسي .

انما يجب أن تعلمي اني أحبه حبا مبرحاً تقصر عن وصفه الأقلام ،
واني أضحي حياتي في سبيل هوائه ، فقد شقي كثيراً ولا أدري ما خبأت له
الأقدار ايضاً من الشقاء .

وما راغني إلا اني لست من اكفائه ، فهو يعتقد اني طاهرة نقية وأنا
على ما تعلمين

نعم لا يستطيع أن أبوح لك باسمه يا لورا لأنني أحبه واني اوتر الموت على
ان اخاطر بذكر اسمه الحقيقي .

ولكن اصغي إلي يا لورا .. انك تعرفين ما اكابده من العناء في خدمة هذه
الملكة المشؤومة كاترين ، واني تلبست بجميع أنواع الاثام في سبيلها ، حتى
صغرت نفسي وانفت الدنيا وبت اشتهي الموت . ولولا ما أجده في قربك من
الغناء ، وما اسمعه من فمك من النصح والارشاد لما بقيت الى الآن في
قيد الحياة .

وقد عزمتم اليوم عزمياً أكيداً على التخلص من قيود هذه الملكة الجائرة

التي لا يعرف قلبها معنى الرحمة والاشفاق فقد كرهت الدسائس وأنفت ان
اكون آلة في يدها تديرني كما تشاء أغراضها السافلة .

وحسبك انها جعلت عواطفني العوبة وجعلتني اتخذ الغرام فغماً انصب لمن
تريده من أعدائها ، واحتال به على اسرارهم فأنقلها اليها ولا يكون عظيم
بعد ذلك غير الموت أو السجون الأبدية .

نعم اني أحب الآن ، وقد فتح الحب عيني واثار قلبي بنور الفضيلة فتمثلت
لي جرائم الماضي بأفزع تمثيل ولم يبق لي مطمع إلا بكسر هذه الأصفاة
والخلاص من أسر الملكة والنجاة من هذه المعيشة الشائنة .

وهنا استرسلت في البكاء ، تبكي بكاء النادمين ، فجعلت لورا تطيب
خاطرها وتقول لها لم يثر هذه الأفكار المظلمة في نفسك غير التعب
الذي أصابك .

فمسحت اليس عينيها وقالت : نعم اني متعبة يا لورا ولكن تعي أعظم
من أن يحيط به تصورك .

ثم قالت بصوت أجش : بقي لي رجاء وحيد إذا لم يتحقق لا يبقى لي
غير راحة واحدة وهي الموت .

— أنت تموتين في نضارة شبابك وربيع جمالك . أطردي هذه الأفكار
السوداء ، فما خلقت لمثلك ، ام تريدين أن تقلدي ذلك المريكز عشيقك القديم
فيما فعل ، فإن الرهينة نوع من الموت .

فوضعت اليس يدها على جبينها وقالت .. الراهب ؟

— اطمئني فستعترفين له بخطاياك ويغفر لك تلك الذنوب .

— متى يكون ذلك ؟

— في مساء السبت . ولكن قولي لي متى عزمتم على الذهاب إلى اللوفر ،
فأنت تعلمين انهم ينتظرونك فيه .

— تقولين اني أستطيع الاعتراف للمريكز يوم السبت مساء ؟

— نعم .
— إذا سأذهب إلى اللوفر في صباح ذلك اليوم . والآن دعيني وحسدي
يا لورا فلاني محتاجة إلى الراحة .

فتركتها لورا ودخلت اليس إلى مضجعتها فنامت وقد انهكتها التعب .
وفي تلك الليلة نفسها بينما كانت اليس نائمة خرجت امرأة عند منتصف
الليل من ذلك المنزل ، فذهبت مسرعة إلى ذلك القصر الذي بنته الملكة
كاثرين لعشيقتها الفلبسي .

وصعدت هذه المرأة إلى برج ذلك القصر وهناك مصباح ينفذ من جدار
البرج وهو مرفوع بقدر قامة الانسان عن البرج وله كوة من فوقه نافذة اليه .

فأخذت المرأة رسالة من جيبها والقتها من تلك الكوة فسقطت في البرج .
ثم عادت إلى المنزل ودخلت تواقاً إلى مخدعها .

أما هذه المرأة فقد كانت لورا .

- ٢٤ -

بيبو كلب بارداليان

إن هذا الفصل سيكون موجزاً قصيراً وعلى كونه مصدراً باسم كلب لا
يعدم فائدة ، وفوق ذلك ، فكيف لا يحق لهذا السلب ان يكون له مقالة
خاصة في هذه الرواية وهو من أبطالها ، بل منقذ أبطالها ويفضل الكثيرين
من رجالها .

في ذلك اليوم الذي قبض فيه الجنود على بارداليان وباغتوه في غرفته كما يذكر القراء ، إندفع « بيبو » بمأظفة الود الأكيد فدافع عن سيده وصديقه أجمل دفاع .

فإذا دميت رجل جندي في ذلك اليوم ، أو تمزقت جلود آخر فقد كان مرجع الفضل في ذلك لهذا الكلب .

ولكنه غلب كما غلب سيده فسار في أثر الجنود الذين كانوا يحملون بارداليان وقد لقوا من غصه ونهشه ما لا يلقونه في الحروب ، حتى اضطروا الى مقاتلته بالسيوف فقطعوا إحدى أذنيه .

ولما خرجوا من الفندق وحملوا بارداليان في المركبة سار في أثر المركبة إلى الباستيل .

حتى إذا ما وصلوا اليه وأدخلوا بارداليان رأى « بيبو » وهو يحمل نظام السجون ، إن من حقه أن يدخل أيضاً كما دخل صاحبه .

غير ان الحراس لم يوافقوه على هذا الحق ، فاحتدم الخلاف بينهم وبينه عليه حتى أفضى الى المراك وانتصار الجنود عليه وطرده بالحجارة .

ولكن « بيبو » لم يكن ممن يرضون بالهزيمة ، فلما ابتعد عن مرامي الجنود ولم تعد تصل اليه الحجارة عاود الكرة على باب السجن فوجده مقفلاً ولا سبيل الي فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل ينبع نباحاً مستطيلاً كانت تختلف لهجته بين الحزن والحدة .

أما نباح الحزن فقد كان يدعو به بارداليان ، وأما نباح الحدة فقد كان يتوعد به الحراس .

ثم لما رأى ان صاحبه لا يجيب نداءه ، وان الجنود لا يحفلون بوعيده جعل يطوف حول السجن ويدور دوران حجر الرحى ثم يرجع الى المركز الذي بدأ منه بالدوران دون أن يجد منفذاً الى السجن .

وبعد أن طوف ما طوف ، ويش من الدخول ، ذهب الى قمة تبعد عشرين خطوة عن السجن وجلس فوقها . فكان الغلمان يرشقونه بالحجارة فلا يجيبهم بمثل اعتدائهم ، بل يكتفي بالابتعاد عن مراميهم والانتقال إلى مركز آخر .

وانقضى النهار ، وفرغت معدة « بيبو » ، وبدأ الجوع يعض أحشائه ، فصبر عليه صبر الكرام ولبت في موقفه ينتظر خروج صاحبه من السجن .

إلى أن هجم الظلام ولم يعد له طاقة على الجوع فانقلب راجعاً إلى الفندق على رجاء ان يأكل حسب عادته ويعود .

فعاد في الطريق الذي جاء منه حتى وصل إلى الفندق فكان اول ما صنعه أنه صعد الى غرفة صاحبه .

ولما لم يجده فيها نزل الى قاعة الطعام ودخل منها إلى المطبخ حيث كان صاحب الفندق ينظف طيوراً يطبخها .

وقد عرف القراء حادثة صاحب هذا الفندق مع بارداليان حين هم أن يلقبه من النافذة ، وكيف ان بارداليان كان يقيم في أحسن غرفة من غرفه ، وبأكل خير طعام دون ان يدفع شيئاً ، فكان صاحب الفندق يكرهه كما كان يكره كلبه وجواده ، ولكنه لا يجسر أن يبسدي أقل اعتراض لخوفه من بارداليان .

فلما قبض الجنود على بارداليان ، كان ذلك اليوم من أسعد أيام صاحب الفندق .

فليتأمل القراء جسارة « بيبو » حين دخل آمناً مطمئناً لغاية المطبخ ، أما صاحب الفندق ، فإنه حين رأى الكلب ترك الطير الذي كان ينظفه وهاج غضبه ، فهجم على الكلب ورفسه برجله ، وهو يشتمه أقبح شتم .

ولكن بيبو مرق من بين رجليه ، فلم تصبه رجل صاحب الفندق ،
الذي سقط على قفاه ، وأسرع الى الإناء واختطف طيراً وهرب به لا يلوي
على احد .

فلما نهض صاحب الفندق من سقطته كانت نكبتة مزدوجة بألمه لسقوطه
وبسرقة الطير .

وأما بيبو فإنه بعد شبعه ذهب إلى جوار الباستيل ، وبات ليلته فوق
تلك القمة .

ومضى على ذلك بضعة أيام وهو يسرق طعامه في الليل ،
ويراقب في النهار باب السجن ونوافذه ، وعليه علائم الخبرة ، كأنه
يعجب كيف ان صاحبه يطيل الإقامة في ذلك المكان الذي دخل اليه إلى
هذا الحد .

إلى ان اتفق يوماً انه رأى ، وهو يدور حول السجن ، وجهاً من خلال
النافذة فوقف وجعل يحرك ذنبه كأنه عرف صاحب هذا الوجه ولكنه لم
يكن واثقاً بعد .

ثم برز هذا الوجه يحملته من النافذة فجعل بيبو ينبح نباحاً قوياً إذ لم يعد
لديه شك ان هذا الوجه وجه صاحبه بارداليان .

أما بارداليان فانه أخذ يناديه باسمه والكلب يجيبه متودداً بالنباح .

وقد سمع الحراس صوت بارداليان ونباح الكلب ، فأسرعوا كي
يستطلعوا الخبر .

فرمى عندها بارداليان لكلبه كتلة من الورق الأبيض ، فانقض الكلب
عليها وعضها بانميا به .

ورأى الحراس مارماه السجن إلى كلبه ، فحسبوا ذلك رسالة وأسرعوا
في أثر الكلب كي يأخذوا منه الرسالة ولكنه مرق أمامهم مروق السهم ، فلم
يستطيعوا إدراكه .

أما بيبو فإنه لما ابتعد عنهم ، وأمن شرهم ، وقف وجعل يلعب
بتلك الورقة ، حتى إذا وجد أنه لا يوجد فيها ما يؤكل تركها وعاد مسرعاً
إلى الباستيل .

وبعد هنيهة عثر أحد المارة بهذه الورقة ففتحها ووجدها بيضاء ، لا أثر
للكتابة فيها فألقاها على الأرض وانصرف .

- ٢٥ -

الباستيل

ولنعد الآن الى بارداليان فإنهم بعد ان أدخلوه إلى تلك الغرفة فكوا قيوده
ثم تركوه وخرجوا وأقفلوا الباب .

وكان الباب قوياً متيناً ، فكان أول ما خطر لبارداليان ان يكسر ذلك
الباب فانقلب عنه عاجزاً خاسراً بعد ان أعياه الجهد .

ولما رأى أن لا حيلة له إلا بكسر الباب جعل يتلهى بفحص تلك الغرفة
فوجدتها متسعة ولكنها خاوية خالية مظلمة ينفذ اليها نور ضعيف من السقف
وهي باردة رطبة .

وقد وجد فراشاً من القش ومائدة صغيرة من الخشب تحت نافذة عالية وعلى
هذه المائدة قطعة خبز وابريق ماء .

وهذا كل ما كان موجوداً في الغرفة ، فوقف بارداليان مكتئباً حزينا
لا يسمع غير خطوات الحارس في الرواق ، وهو واثق ان من يدخل إلى الباستيل

لا يخرج منه حياً .

وعندها اتجهت أفكاره يحملتها إلى لويزا ، فكاد ينفجر قلبه ياساً حين
افتكر انهم قبضوا عليه حين كانت تناديه نداء المستغيث ، ويقول في نفسه :
إنها استغاثت بي قبل سواي وافتكرت بي دون سواي حين الخطر ، وانا الآن
في هذا السجن بل في هذا القبر . فما عساها تقول وأنا لم أجب نداءها ولم أسفك
دمي في سبيلها .

وقد عض اليأس قلبه ونفر الدمع من عينيه وعاد إلى ذلك الباب يريد كسره
فارتد عنه كما ارتد من قبل بعد القنوط .

ولم يكن يشك في ان لويزا لم تستغث به إلا من الدوق انجو فكان حين يفكر
أنه في السجن وان من يحبها في قبضة الدوق تطير نفسه شعاعاً ثم يسقط على
الفراش قانطاً منهد الحيل .

ومضى على ذلك أربعة أيام ، وهو إذا أراد العزاء بالافتكار بلويزا زاده
تذكارها ياساً وعذاباً .

وينصرف على ذلك إلى التفكير بالسبب الذي قبض عليه من أجله ومن الذي
نكبه هذه النكبة .

وقد كان خطر له في البدء ان الملكة كاترين الأميرة بسجنه ولكنه قال في
نفسه : إنها كانت راضية عني وانها عينتني في خدمتها وأمرتني ان أحضر إلى
اللوفر فلا سبيل إلى هذا الظن .

ولكن إذا لم تكن هي الأميرة فمن عساه يكون .
أيكون الدوق دي كيز صاحب هذه الفعلة ، وقد عرف اني علمت
بسر المؤامرة ؟

ولكن كيف علم اني علمت ؟

وقد كانت هذه الأفكار تعذبه عذاباً شديداً ، حتى رق جسمه
ونحل ، فعول على ان يعرف السبب في سجنه ، بكل ما استطاعه من

الوسائل .

وفي اليوم السادس جاءه السجنان بالخبز والماء كعادته في كل يوم ، فقال له
بارداليان : أود أيها الصديق ان أسألك سؤالاً ، وأتوسل اليك أن تجيبني عليه
فهل تفعل ؟

فأجابه السجنان قائلاً : لا يحق لي محادثة المسجونين

- ولكن كلمة ... كلمة واحدة ... بربك لا تذهب ، وقل لي لماذا

أنا مسجون

- لقد قلت لك انه لا يحق لي مباحثتك فاذا عدت إلى سؤالي اضطررت إلى

تقديم تقرير عنك إلى مدير السجن .

- وماذا يحدث بعد هذا التقرير ؟

- يحدث انهم ينقلونك من هذه الغرفة إلى سجن مظلم ضيق .

- وأنا رضيت ايها الشقي ان أزج في أعماق السجن بشرط ان أعلم السبب

في هذا السجن فتكلم او أقتلك شر قتيل .

ثم وثب يريد القبض عليه وإكراهه على الكلام .

ولكن السجنان كان متأهباً متوقفاً منه هذا الوثوب فأسرع وثباً إلى الرواق

وأقبل الباب قبل ان يتمكن بارداليان من إدراكه .

وعاد بارداليان إلى محاولة كسر الباب كما فعل في الأيام الأولى فكانت النتيجة

واحدة هي الفشل .

وبعد حين أقبل حاكم السجن يصحبه عشرة جنود مدججين بالسلاح حتى

إذا وصلوا إلى غرفة بارداليان ناداه السجنان من الخارج قائلاً : هوذا حاكم السجن

يريد ان يكلمك

فهدأ نأثر بارداليان وقال : ليكلمني من يشاء ، بشرط ان أعلم السبب

في سجنني .

ففتح الباب عندها ودخلت الجنود .

وعاد بارداليان إلى الهياج ، وهم ان ينقض عليهم ، غير انه رأى بينهم حاكم السجن فتوقف عن عزمه ، لأنه عرف هذا الحاكم إذ رآه في جملة المتآمرين في الفندق .

أما الحاكم فانه بدأ الحديث معه فقال له بلهجة المؤنب النصوص : إنك فعلت ما لا يفعله سواك بتهجمك ، ورجائي ان لا تعود إلى مثل ذلك ، فلا تعرض نفسك للعقاب الذي يقضي به قانون السجن ... أتعرف هذا النظام ؟

إنه صارم شديد ... فاعلم انك في اول مرة تسيء الى الحراس تنقل من سجنك هذا الى سجن عميق مظلم ... وفي المرة الثانية تعاقب بصب المياه الباردة عليك ... وفي المرة الثالثة تعاقب بالجلد ، وغيره من أنواع التعذيب .

وقد أنذرتك الآن ويجب ان تعلم انه إذا كان السجن حرمك الرقاد فما ذنب حراسك لتحرّمهم النوم ؟

وكان بارداليان قد تراجع خطوتين وجعل يصغي الى كلام حاكم السجن بالظاهر ، ولكنه كان يفكر في سره بأمر هذا الرجل فبدت عليه علامات الهدوء خلال التفكير .

وحسب الحاكم انه تاب الى الهدوء واتعظ بوصاياها فقال له يسرني انك اهتديت فأمنت العقاب .

فأجابه بارداليان بملء الهدوء . ثق يا سيدي الحاكم اني لا ارتكب ما يخالف نظام السجن بعدما سمعت من إرشادك ، ولكنني التمس منك أن تأذن لي بسؤال .

لقد عرفت سؤالك ، أنت تريد ان تعرف السبب في سجنك ، أعلم اني لا أبالي بمعرفة الأسباب ولا يسعني معرفتها لانهم يدفعون إلى السجن ويقولون لي يجب ان تحتفظ به ، ولكن الذي أرجحه انك لا تخرج من هذا السجن ،

فاجتهد ان تكون عاقلاً صبوراً .

- سأمثل يا سيدي الحاكم لنصائحك مع الشكر لك ، ولكن ليس هذا الذي أردت التماسه منك .
- إذا ماذا تريد ؟

- ورقاً وقلماً وخبراً .

- ولكن الكتابة ممنوعة في السجن .

- إني لا أريد ان أكتب مذكراتي ، بل أريد الاباحة بسر

عظيم . . .

- أتقول سرّاً عظيماً ؟

- نعم يا سيدي الحاكم واني أريد ان أبوح لك به كتابة ، فقد اكتشفت مؤامرة بالصدفة .

فاصفر وجه الحاكم وقال : مؤامرة !

- نعم يا سيدي وهي مؤامرة الهوكينوت على قتل الدوق دي كيز وغيره من كبار المخلصين لكنيستنا .

- وانت اكتشفت هذه المؤامرة ؟

- نعم يا سيدي فإذا أذنت لي ان أكتب لك مهديت لك السبل للقبض على المتآمرين وأثبت التهمة بالبراهين المقنعة ورجائي بعد هذا الاكتشاف أن أكافأ بالعفو عني .

ومتى كتبت ما أريد كتابته ، واقتنعت ببراهيني ، لا أعود الى الكتابة بل أنتظر بملء الصبر صدور الأمر بالعفو عني لأن هذه الخدمة تستحق هذا الجزاء .

- هو ذاك يا بني ، فإذا صدقت براهينك كان العفو مضموناً ، لأن الأمر خطير .

- بل هو أشد خطورة مما تتوهم .

- إذا سأنيك ما تريد .

وكان الحاكم قد قرر حطته ، فقال في نفسه : إني أدع هذا الرجل يخط إقراره حتى اذا علمت سره أنزلته الى أحد السجون العميقة ، فلا يعيش فيها شهراً .

وإذا عرفت مثل هذا السر أنقذت الدوق دي كيز ، بل كنت منقذ ملكي القادم .

ثم تركه وانصرف يحنوده .

وبعد هنيهة ، جاء السجن بأدوات الكتابة ، ودفعها الى بارداليان . فأخذها بسرور لا يوصف ، وقال لذلك السجن : سأكون حراً طليقاً بعد بضعة أيام .

فارتعش السجن لاعتقاده ان من يدخل الى الباستيل لا يخرج منه حياً ، وقال له : كيف ذلك ؟

- لا تخف لأنني لا أهرب من سجنكم ، ولكن الحاكم نفسه سيفتح لي أبواب السجن .

فقال السجن في نفسه : لقد عاد اليه الجنون ، غير ان جنونه هذه المرة محتمل لطيف لا خطر منه علينا .

وفي صباح اليوم التالي جاء السجن باكراً وقال له : هل كتبت إقرارك ؟ وهل تريد ان يحضر الحاكم لأخذه ؟

- لم أكتبه بعد لأن مثل هذا التقرير يحتاج الى أعمال الروية كي لا يفوتني شيء من مفصلاته .

- إذا عجل به لأن الحاكم يلح في طلبه .

- قل له لا بأس من الانتظار ، لأنني اذا أبطأت في كتابته ، كان أوفى وأتم .

فانصرف السجن ، وبقي بارداليان وحده فصعد على تلك المائدة

الموضوعة تحت النافذة ، وجعل ينظر من خلال حديدها ، ويعمل الفكرة

وقد طالما وقف تلك الوقفة وفكر ملياً ، حتى انه كان يرتعش احياناً وهو ينظر الى العلو الشاهق كأنما كان يخطر له الفرار من تلك النافذة ، والهبوط من ذاك العلو .

وفيما هو يراقب نظر كلبه يرود حول السجن ففرح وبرقت عيناه بخاطر سريع فنزل عن المائدة وأخذ ورقة من الورق الذي أحضره له السجن وكتب عليها بضعة أسطر وخبأها في قبعته .

ثم أخذ ورقة ثانية ووضع فيها قطعة صغيرة من الحجر ولفها عليها بحيث باتت تشبه كرة .

وعاد الى النافذة ورأى كلبه ، فناداه باسمه ، ورمى له تلك الورقة ، وهو يقول في نفسه : اذا أدركه الحراس ، وأخذوا منه الورقة ، فساني من الهالكين .

وبعد ان رمى الورقة ورأى الكلب قد التقطها وفر بها والحراس جدوا في أثره فلم يدركوه عاد الى الغرفة وعليه علائم الاطمئنان .

غير انه لم يلبث ان سمع ضجعة في الرواق ثم فتح باب سجنه بعنف ودخل الحاكم فقال له : أريد ان تقول لي ماذا كتبت في تلك الورقة التي رميتها الى الكلب من النافذة .

فتنهذ بارداليان تنهد سرور وقال في نفسه لقد نجوت بحمد الله وعاد الحاكم الى التهديد فقال : لا تحاول الانكار لقد سمعك الحراس تنادي الكلب ورأوا ما رميت له .

فأجابه بارداليان قائلاً : إني مستعد للاجابة فسل ما تشاء .

- أهذا الكلب كلبك ؟

- نعم .

- انك رميت اليه بورقة فأخذها وفر بها ، قل الحقيقة ولا تنكر .
- لا انكر شيئاً ولا اقتصر على الاعتراف بما رأيتموه بل ازيدكم ان كلي
ممن على نقل الرسائل منذ عهد بعيد .
- إذا فهو يعلم الى اين يتوجه بالرسالة .

- دون شك ، فقد ذهب بمثلها الى المكان نفسه ، مسائة مرة
على الأقل .
- لأجل هذه الخيانة طلبت ان نعطيك ورقاً للكتابة .. انت ستعذب
عذاباً لا يخطر في بال إنسان الا اذا اعترفت بكل شيء .

- بماذا تريد ان اعترف ؟

- انك كتبت رسالة .

- دون ريب .

- إحترس ايها الوقح .

- انت تسألني وانا اجيب ، فأين الوقاحة ؟

- الى من كتبت ؟

- الى رجل لا اذكر اسمه الا لك وحدك .

- ايتوجه السكيب بالرسالة الى ذاك الرجل ؟

- كلا ، بل الى صديق وفي امين سيصبر الى المساء ويتوجه بالرسالة الى

الذي يجب ان يقرأها وازيدك على ذلك ان صديقي يدخل الى اللوفر حين يشاء
وله فيه كلمة مسموعة .

فارتعش الحاكم وقال له : وهذا الرجل ، الذي سيقراً الرسالة ، أقيم

في اللوفر ؟

- نعم .

- ماذا يدعى ؟

- ستعرفه قريباً .

فتمن الحاكم هنيهة ، وقد قلق لما سمعه من حرية بارداليان في إجابته ، ثم
قال له : والآن أريد ان تقول لي مضمون الرسالة ؟
- حباً وكرامة ، ولكن الأفضل ان تسمع كل ذلك وحدك .

- ولكفي لا أريد بل أمرك ان تتكلم في الحال

- ليكن ماتريد ، فاعلم اني كتبت إلى رجل كانوا يبحثون في شأنه
في أحد فنادق باريس ، منذ عهد قريب ، وكان ذلك في الساعة العاشرة
من المساء ، فقد كنت موجوداً في ذاك الفندق ، وهو في شارع سانت
دينيس .

فقاطعه الحاكم قائلاً : اصمت !

وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً .

ولكن بارداليان لم يمثل له فقال : وكان في هذا الفندق جماعة من الشمراء ...
وغيرهم من كبار النبلاء ...

وأدرك الحاكم خطورة الأمر ، وشر العاقبة ، فقال له بصوت
مضطرب : أتضمن لي أيها السجين ان الرسالة التي كتبتها خطيرة ، فأذن
لك بالخلاوة بي .

- إنها سر مملكة يا سيدي الحاكم .

- إذا لا بد من ان أسمعك وحدي .

- ثم أشار الى الجنود ان يخرجوا .

فاعترضه أحدهم قائلاً : ألا يخشى ، سيدي الحاكم ، أن يريد به هذا
الرجل شراً .

- كلا وفوق ذلك إن السر خطير كما يظهر ، ولا بد من الوقوف عليه فاذهبوا
وإذا دنا أحد منكم من الباب عاقبته بالسجن .

فابتعد الجنود مسرعين .

أما الحاكم فإنه أقفل الباب ، ودنا من بارداليان ، وهو يرتجف

من الخوف .

فقال له بارداليان لا أظنك تندهش كثيراً يا سيدي حين أخبرك باسم الرجل الذي بعثت إليه الرسالة .
- أخفض صوتك .

- إنه يا سيدي ملك فرنسا .

- الملك ..

- الملك نفسه ، والآن إذا أحببت ان تعلم ما كتبتة إلى جلالته أعطيتك نسخة من تلك الرسالة فقد كتبت منها نسختين وهذه هي فاقرأها .

ثم أخرج من تحت قبعتة تلك الورقة التي كتبها ودفعاها إليه ، فقرأ الحاكم ما يأتي :

« أتشرف باخبار جلالة الملك انهم ياتمرون على قتله وان المؤتمرين على جلالته هم الدوق دي كيز وهنري دي مونمورانسي ودي تافان رئيس حرس اللوفر وحاكم الباستيل .

« وإذا أراد جلالته الوثوق فليأمر باستنطاق حاكم الباستيل لأنه كان أشدحم تحمساً في هذه المؤامرة .

« وقد كان آخر اجتماع عقده المؤتمرون في فندق دفينير ، في شارع سانت دينيس » .

فوهت عزائم الحاكم وقال : ويلاه لقد بت من الهالكين .

وقد أو شك ان يسقط لاضطرابه .

فقال له بارداليان تشجع يا سيدي فلكل داء دواء .

- ويحك كيف أتشجع وقد قضي الأمر .

- نعم تشجع ، فقد يمكن إنقاذك . ولكن أراك تضطرب كالأطفال في

حين حاجتك إلى الصبر والتخلق باخلاق الرجال .

- أتزجني أيها الشقي بهذه المساوية ثم تهينني وتهزأ بي ؟ . والله لأعذبنك

فتذوق الموت أشكلاً قبل ان أموت .

فقاطعه بارداليان قائلاً : إحترس مما تقوله أو تفعله ، ولا تتهمني لأنني بريء لا أدري أية مكيدة دفعتني إلى هذا السجن الأبدي بل إلى هذا القبر ، وأنا أسمى في سبيل الخلاص من الموت فلا حرج علي ، ولكنني سأنتقذك أيضاً .

- أنت تنتقذني وكيف ذلك ؟ كلا ، فقد قطع الرجاء وسيعلم الملك قريباً الحقيقة الهائلة ويقبضون علي .

- وكيف عرفت ان الملك سيقف على الحقيقة في وقت قريب .

- من هذه الرسالة .

- ولكنه لا يطلع عليها إلا في المساء ، فقد عهدت إلى صديقي ان يسلمها

إلى جلالته في الساعة الثامنة من المساء ولا يزال لدينا اليوم بطوله .

- ماذا تريد بذلك أتريد به الهرب . . والى أين المفر ؟

- لا أشير عليك بالفرار ، بل بالتفكير بطريقة تمنع وصول الرسالة إلى جلالته .

- وما هي هذه الطريقة ؟ إني لا أجدها .

- أما انا فقد وجدتها ، وهي ان هذه الرسالة لا يوقف إرسالها غير

رجل واحد .

- وهذا الرجل ؟

- هو انا ، فأطلق سراحي وبعد ساعة أرى صديقي ، فأخذ منه الرسالة

وأمزقها .

فنظر الحاكم إلى بارداليان نظرة تشف عن الرعب وقال له : من يضمن لي انك تفعل ما تقول ؟

- أقسم لك يا سيدي الحاكم بكل عزيز في الأرض ومقدس في السماء اني اني بما وعدت به واني لست من أهل الخيانة والغدر .

وبعد ، إني لا أجد لك مطمعا في سلامة إلا بهذه الطريقة .
أما أنا فاني خارج من السجن لا محالة ، فإذا لم تطلق سراحني أنت أطلقه
الملك بعد وقوفه على الحقيقة . وكل ما في الأمر سأقيم في السجن يوماً أو
اثنين ، وأما أنت فلا حياة لك إلا بإطلاق سراحني فاصنع ما أنت صانع وهذا
آخر ما أقول .

ثم تراجع حتى وصل إلى فراشه فجلس عليه غير مكترث للحاكم .

أما الحاكم فقد رأى انه لم يبق بينه وبين القضاء المبرم غير بضع خطوات
وتمثلت له بسرعة التصور فظائع الباستيل وعذابه الذي كان يزداد كل يوم فهل
قلبه خوفاً ولعن الساعة التي دفعته فيها المطامع الى الدخول في سلك المتأمرين
وود لو كان سجاناً بسيطاً او كان احد اولئك المسجونين الذين لم يقضي
عليهم بالتعذيب .

ومع ذلك فإنه كان لا يزال متردداً في عزمه ، لا يعلم على ماذا
يستقر .

وكان بارداليان يتظاهر بعدم الاكتراث ويراقبه بطرف خفي فيقول في
نفسه : إما ان يحمل الخوف هذا الرجل على إطلاق سراحني او يخاف عاقبة
تسريحي فلا يفعل وفي هذه الحالة أكون من الهالكين .

فاذا لم يقتنع في الحال انه لا يستطيع انقاذ نفسه إلا بانقاضي يعود الى
غرفته وينتظر الحوادث .

وهنا يضطرب ويقلق اسبوعاً او اسبوعين او شهراً ، فاذا مضى هذا الزمن
ورأى انهم لم يقبضوا عليه علم اني من الكاذبين او ان الكلب اضاع الرسالة ،
فيعود الى الانتقام مني أفضع انتقام .

أما الحاكم فإنه جعل يسير في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً ، إلى أن
وقف فجأة وبدت عليه علائم العزم ، فالتفت إلى بارداليان وقال له :
أأنت مسيحي ؟

- دون ريب .
- أتقسم لي بالمسيح والانجيل اني اذا أطلقت سراحك تصل الى صديقك
قبل وصول الرسالة إلى الملك ؟

- اني اقسم بالمسيح والانجيل الطاهر انك إذا أطلقت سراحني ، لا تصل
الرسالة إلى جلالة الملك ، ولكن لا بد لي من الملاحظة ان الوقت يمر سريعاً وهو
ثمين كما تعلم .

فسح الحاكم العرق المنصب من جبينه وقال : لقد صدقت .

- إذا على ماذا عولت .. أسرع يا سيدي الحاكم فإني سأنجو في الحالين كما
قلت لك ، لأن الملك متى وقف على الحقيقة لا بد له من إطلاق سراحني وسؤالي
فندور الدائرة عليك .

فأجاب الحاكم بصوت أجش قائلاً : ستكون ، بعد نصف ساعة ،
خارج السجن .

فبذل بارداليان جهداً عنيفاً كي يخفي ظواهر فرجه وقال له : كما تريد
يا سيدي .

فرفع الحاكم يده الى السماء كأنه يلتمس عون الله في موقفه الحرج ثم تنهد
تهدياً الارتياح كأنه قد اطمأن بادخال الله في امره .

وبعد ما فتح باب الغرفة ونادى الحراس والتفت الى بارداليان وقال له ،
على مسمع منهم :

- ان شرك خطير يا سيدي يستحق ان يصل الى مسامح جلالة الملك
وانا واثق من ان جلالتك سيتلقى إقرارك بالشكر ، وانا أفتح لك بيدي
أبواب الباستيل .

فاندهل سجان بارداليان ورأى بارداليان دهشته فقال له مبتسماً : ألم اقل
لك اني سأخرج من السجن ؟
- نعم ولكنني كنت احسبك من المجانين .

ولكنه كان واثقاً انه مطلع على سر المؤامرة، فقال له انك رجل كريم الأخلاق
ورغاية ما التمسه منك إذا خطر لك ان ترجع عن عزمك وتبلغ الملك خبر
المؤامرة لا تذكر اسمي بين المتآمرين .

- ٢٦ -

رسالة حنة والدة لويزا

ولنعد الآن الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه حنة وابنتها لويزا ،
فقد تركنا الخادمة التي عهدت اليها حنة بإيصال الرسالة الى بارداليان حائرة
في أمر تلك الرسالة ، خائفة أن تتهم بالمؤامرة ، وان يقبض عليها كما قبض
على الآخرين .

وكان أول ما خطر لها أن تحرق تلك الرسالة فإن الرعب قد استولى
عليها حتى هون عليها احراقها .
ولكن الفضول دفعها الى استبقائها كي تعلم ما فيها .

وما زال حب الفضول يتنازعها حتى عولت على فتحها ، فأقفلت باب
الغرفة وجميع النوافذ ، ثم فضت الغلاف قرأت في طيه رسالتين احدهما من
السيدة حنة الى الشفالييه بارداليان ترجوه ان يوصل الرسالة التي في طي
رسالتها الى صاحبها .

وكانت الثانية مختومة ومعنونة باسم فرنسوا مارشال دي مونورانسني .
فونجها ضميرها حين قرأت الرسالة المرسله الى بارداليان وعلمت ان لا علاقة

- والآن ؟

- أظنك من السحرة .

أما الحاكم فانه امر باعداد مركبة فركبها ، وقد قال امام اولئك الجنود
انه ذاهب لمقابلة الملك .

فغاب نصف ساعة وهو الوقت اللازم للذهاب الى اللوفر والعودة منه كي
يوهم الجنود انه كان فيه .

ولما عاد الى السجن قال للضباط والجنود : إن هذا السجين ، قد
خدم جلالة الملك أجل خدمة ، ولكن يجب عليكم كتمان كل ما رأيتموه
وسمعتموه ، ومن باح منكم بحرف ، خسر منصبه . لأن السر من اسرار
المملكة .

ثم ذهب الى غرفة بارداليان وقال له امام الجنود : ابشرك يا سيدي ان
جلالة الملك قد عفا عنك .

فانحنى بارداليان وقال : لقد كنت واثقاً من عفو جلالته .

وبعد هنيهة كان بارداليان خارج السجن وقد شيعه الحاكم الى الباب
الخارجي فصافحه مودعاً وهو ينظر اليه نظر المتوسل .

فقال له بارداليان بلمهجة الممازح : اتريد ان اطمنك يا سيدي الحاكم
بشأن الرسالة ؟

- نعم ..

- وبشأن ذلك الصديق الذي يحملها الى الملك ؟

- نعم نعم .

- إذا أعلم ان الورقة التي حملها الكلب كانت بيضاء لا كتابة فيها والصديق

الذي سيحملها غير موجود .

فحار الحاكم في امره ولم يعلم اذا كان بارداليان يقول الحق او يمازحه ،

بين حنة وبينه ، ولم تستفد شيئاً من فضولها ، لأنها لم تعلم شيئاً من رسالة بارديان ورسالة المارشال مختومة .

غير ان الرسالة هاجت فضولها هياجاً لا يوصف وجمعت تقول : ترى أية علاقة بين هذه المرأة الفقيرة الحاملة ، وبين هذا المارشال العظيم ، أعظم رجل في فرنسا بعد الملك .

وجعلت منذ ذلك اليوم تغالب فضولها الى ان غلبها . فأخذت تلك الرسالة فوضعتها على المائدة وفضت ختمها بيد ترتجف من الخوف .

وفي اللحظة نفسها قرع الباب فارتعشت حتى أوشكت ان تسقط ، وقبل أن تضبط نفسها وتحفي الرسالة فتح ذاك الباب ودخل منه الشفالييه دي بارداليان .

فغطت الخادمة الرسالة بيدها وقالت له : أهذا أنت يا سيدي ؟

فقال بارداليان في نفسه : يظهر انها تعرفني ..

ثم قال لها : اطمئني ، فلا أريد بك شراً ، واعدزيني لدخولي دون استئذان ، فقد دعاني الى الحضور شأن خطير .

فقالت الخادمة بلسان يتلجلج من الرعب : الملك قادم في شأن الرسالة ؟

فذهل بارداليان وقال : أية رسالة تعنين ؟

فعضت الخادمة شفتها لأنها فضحت نفسها . وحاولت اخفاء الرسالة ، لكن بارداليان كان يراها .

فقالت له : أخرجت من السجن يا سيدي ؟

- انك ترينني مطلق السراح ، لقد سجننت خطأ ، وبقيت في السجن الى أن ظهر الخطأ ، فكانت زيارتي الأولى لكم ، ورجائي ان اطمئن منك بكلمة .

فاطمأنت الخادمة لأنه لم يسألها عن الرسالة وقالت له : سل يا سيدي ما نشاء أجيبك في الحال .

- إنهم قبضوا علي منذ عشرة أيام وذهبوا بي إلى الباستيل بخطأ ظهر لهم كما برين من إطلاق سراحني .

ففي تلك الساعة التي قبضوا علي فيها كانت امرأتان تقيان في هذا المنزل مهددين بخطر عظيم ، لأنهما استعانتا بي ، وقد علمت انهما اختطفتا عنوة في نفس الساعة التي قبض علي فيها . - هو ذاك ، يا سيدي .

- أتريدان إخباري بتفصيل ما حدث ؟

- إني أخبرك بكل ما أعلمه يا سيدي ، فقد قبضوا على السيدة وابنتها لوزا بتهمة المؤامرة معك . - معي أنا ؟

- ولكن لا شك انهما بريئتان ، بدليل برائتك ، ولا بد من ان يطلق سراحهما كما أطلق سراحك .

- من الذي قبض عليها ؟

- عشرة جنود بزعامة قائد .

- أم من جنود الملك ؟

- لا أعلم .

- أكان الدوق دانجو بين هؤلاء الجنود ؟

- كلا ...

فسكت بارداليان هنيهة لاعتقاده انه لا سبيل إلى معرفة شيء من هذه المرأة .

ثم قال لها : الا تعلمين شيئاً عن المكان الذي ارسلنا اليه ؟

- كيف أستطيع أن أعلم ، لاسيما وقد كنت تلك الساعة في أشد حالات

الاضطراب ..

وكانت يدها تصفط على الرسالة وهي ترتجف ، حتى انتهى الأمر بسقوطها من يدها .

فسألها بارداليان : ما هذه الرسالة التي سقطت من يدك .

فتلثم لسانها وقالت : ثق يا سيدي اني لست أنا التي فتحتها .

ثم التقطت الرسالة ودفعتها اليه ، فأخذها بارداليان وقرأ رسالته مسرعاً .

وقالت له الخادمة : إن السيدة حنة كلفتني بإيصال هذه الرسالة اليك ، واقسم لك اني ذهبت في الحال إلى الفندق الذي تقيم فيه فعلت انهم قبضوا عليك فحفظتها عندي .

فقال لها بارداليان بصوت يضطرب : ألم يطلع عليها أحد ؟

- كلا .. كلا يا سيدي ، وأقسم بالعذراء على صدق ما أقول .

- إذاً من الذي فض الغلاف ؟

- انه انفض بنفسه يا سيدي لأنه لم يكن محكم الختم .

- ولكنك قرأت الرسائلتين .

- كلا يا سيدي بل قرأت واحدة وهي رسالتك .

- والأخرى ؟

- تريد بها رسالة المارشال مونمورانسي ؟

- نعم .

- كنت عازمة على قراءتها ، ولكن حضورك حال بيني وبينها .

فنهض بارداليان وقال : إني آخذ معي هذه الرسالة ، وقد عهد إلي

بإيصالها إلى صاحبها كما ترين ، ولا توجد قوة في الوجود ، تحول دون انفاذ

هذه المهمة ..

أما أنت فقد ارتكبت خطأ لا يفتقر ، ولكنني أغفره لك بشرط واحد .

- ما هو هذا الشرط يا سيدي ؟

- هو ان لا تذكرني أمر هاتين الرسالتين لأحد .

كن واثقاً يا سيدي فساكنم أمرهما كل اللكتان ، إذ لا أود أن اتهم

بما اتهمتم به .

فقال بارداليان في نفسه : ان خوفها اعظم ضمين لسكوتها وهو خير

من اليمين .

ثم تركها وانصرف ، فوجد « بيبو » ينتظره فذهب به إلى الفندق ،

والكلب يمشي أمامه مشية الأسود ، غير مكترث لصاحب الفندق ما زال

صاحبه يحميه .

ولما دخل بارداليان إلى قاعة الطعام كان لاندري صاحب الفندق قادماً

بزجاجة خمر لآحد الزبائن .

فاجفل حين رأى بارداليان ، حتى سقطت الزجاجة من يده ، ووقف

ورفة البلهاء .

فقال له بارداليان : أسمعته صباحاً يا لاندري .

- أهذا أنت يا سيدي الشفالييه .

- نعم اطمئن فاني عارف بقدر سرورك لعودتي بعد أن يشمت من لقائي ،

ولكن ذلك لا يمنعك من اعداد الطعام لي ، فاني أكاد أموت جوعاً .

فلم يجب لاندري بل تنهد تنهداً يشبه الانين ، وجعل ينظر إلى بارداليان ،

وقد جلس إلى المائدة وإلى كلبه المكشر عن انيابه .

ثم دخل إلى المطبخ . وجلس على كرسي جلوس القانطين ، فرأته امرأته

وعلمت ان بارداليان قد عاد ، فأدركت السبب في بأس ذلك الزوج .

ولم تكن زوجة لاندري تكره بارداليان ، فاسرعت اليه واستقبلته

أحسن استقبال .

وقالت له : ان قلقي عليك كان عظيماً ، فاني لم اذق طعم الرقاد في مدة

سجنك خوفاً عليك .

فقال في نفسه : مسكينة هذه المرأة فإنها من أهل الاخلاص والولاء ، ولو لم تكن علمت بحبي لوليتا الكنت في فندقها من السعداء .
وبعد ان اعدت له المائدة عادت إلى زوجها فقالت له : مسكين هذا الشفالييه ان السجن انحل .
فدعر لاندري وقال : اتشفقين عليه أيضاً وهو سيكون علة خرابي بكليه وجواده .
- لا تحقد عليه أها الصديق ، فقد دفع لك مقدماً .
- ماذا تعنين بذلك ؟

- ألم تأخذ جميع النقود التي تركها في غرفته ، فإذا طالبك بها فماذا تجيب ، والذي أراه انه يجدر بك ان تلاففه وتلاينه ، فتشغله بالملاطفة عن مناقشتك الحساب .
فاقتنع لاندري ببرهان زوجته السديد ، وقام يتولى خدمة بارداليان بنفسه ويبالغ في إرضائه .

وبعد ان فرغ بارداليان من طعامه ذهب إلى الاصطبل ، فتفقد جواده وصعد إلى غرفته فجعل يفكر في تلك الرسالة ، رسالة حنة إلى زوجها . ولم يكن قرأ رسالة المارشال ، ولكنه قال في نفسه : ان حنة لم تكتب إلى المارشال إلا بغية التماس حمايته .

فكبر عليه ذلك وقال : ان حماية المارشال صالحة فانه من أشد أهل النفوذ ولكني لا أريد أن يحمي لويزا سواي .

وقد جعل يتردد في أمر قراءة الرسالة حتى أقر على وجوب قراءتها . وقد دفعه إلى ذلك عاملان ، عامل الغيرة على من يحب ، وعامل الحكمة . فقد كان يرجو ان يجد في الرسالة دلائل تعينه على انقاذ الفتاة وأمها .

وعند ذلك فتح الرسالة وجعل يقرأها بعناية بالغة ، فلما فرغ من تلاوتها وضعها على الطاولة ، وقد اصفر وجهه وقاه في مهامه التفكير .

وكان كلما أمعن في التفكير زاد جبينه تقطباً ووجهه تجهماً .
ثم تنهد تنهداً طويلاً وعاد إلى تلاوة الرسالة ، فكان يقف عند بعض عباراتها ، ويلفظها لفظاً كأنما قراءتها بضميره لم تكن كافية لاقناعه على صحة ما يقرأ .
ولما أتم القراءة الثانية سقطت الرسالة من يده ، وجعل يبكي بكاء الأطفال .

* * *

كانت رسالة حنة دي بيانس زوجة المارشال هنري مونمورانسي مؤرخة في ٢٠ أغسطس سنة ١٥٥٨ ، أي نفس ذلك اليوم الذي تزوج فيه هنري دي مونمورانسي ديانا دي فرانس ابنة هنري الثاني .
فتكون الرسالة مكتوبة منذ أربعة عشر عاماً .
وهي مودعة في خزائنها منذ هذا العهد البعيد تنتظر فرصة مناسبة لارسالها إلى زوجها ، وهذا ما قرأه بارداليان .

« لقيت اليوم من الشقاء ما لم تلقه امرأة قبلي .
« ان قلبي ينفطر واشعر ان صدري قد ضاق به ، ولكني مع ذلك لم أمت ، ولا أزال لنكد طالعي في قيد الحياة .
« وقد يكون ذلك لأن ساعتى لم تأتي بعد .
« ولكني متعلقة بهذه الحياة الشقيه حرصاً على حياة ذلك الطفل ، ومن عسى يعول طفلي إذا قضيت نحبي ؟

« إذا يجب علي ان أعيش .
« إنني حين أشعر بأن اليأس أنك قواي ، وان قلبي سيجنح إلى السكون ، وان الشقاء سيفتح لي هوة الأبد .

« إنني حين أشعر بذلك أذهب إلى مهد تلك الطفلة ، فانظر اليها نظرة تزيل

ذلك اليأس ، وتبعد ذلك الشقاء وتجدد قواي المنهكة

« لقد بلغت الآن من العمر خمسة أعوام .. أواه يا فرنسوا كم أود أن تراها .. إنها الآن نائمة في مهدها نوم الملائكة ، هادئة مطمئنة واثقة ان أمها ساهرة عليها .

« ان شعرها الجميل قد حرق بوجهها ، وتدل على صدغها وشفاتها تبسمان وصدرها يخفق خفوقاً منتظماً .. إنها سعيدة يا فرنسوا ولم تقع العيون على ابداع منها . إنها من ملائكة الله وهي ابنتك أيها الزوج الحبيب

« لقد احتفلوا بزواجك اليوم يا فرنسوا ، ولا يلهج الناس إلا بهذا الزواج الفخم ، ويقولون ان مدام ديانا جديرة بهذا الزوج العظيم وأسفاه ألم أكن أنا جديرة بك وبأسعادك

« لقد انتهى اليوم كل شيء وانظفاً آخر شعاع رجاء من نفسي .

« ان ذلك اليوم الذي طردني فيه أبوك وسحق قلبي سحق الزجاج ذلك اليوم الذي خرجت فيه من قصره خروج آدم من الجنة .. ذلك اليوم الذي وقعت فيه على صك الطلاق بغية انقاذك ، وسرت هائمة في باريس وطفلتنا على يدي .. ان ذلك اليوم يا فرنسوا قد تجاوزت فيه حدود الشقاء الانساني .

« وكنت على استحكام يأمي ، لا أزال أرى في ذاك الجو المقتم لممانا يشبه ضياء الشفق ... أما اليوم فقد انظفاً هذا النور ، وأصبحت في حالك من الظلام

« قضي الأمر يا فرنسوا .. ولكن لا يزال بيني وبينك صلة ، وهي ذلك الطفل .

« ان بنتك لا تزال في قيد الحياة وهي ستميش بإذن الله .. فإن من أجلها رضيت الجريمة ، ولم أذفع تهات أخيك .. ومن أجلها رضيت أن أكون شهيدة مضطهدة ، فهي كما قلت لك ستميش بإذن الله .

« ان ابنتنا يا فرنسوا تدعى لويزا ، ولا بد ان تراها فترى ملائكة السماء قد هبطت إلى الأرض

« إني رضيت بسقوطي إلى مهاوي اليأس .. رضيت أن أكون زوجة مطلقة دون ان اسحق هذه الالهانة .. رضيت ان التحمل من ضروب الشقاء ما لا يتحملة بشر .. ولكني لا أرضى أن تكون ابنتنا منكودة شقية كامها ، وأن تظلم كما ظلمت بل أريد ان تكون سعيدة هنيئة ، فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولذلك يجب ان تفتح لها قلبك فتحل فيه .. يجب ان تدخل إلى منزلك مرتفعة الرأس .. يجب ان تحمل منك محل البنين من الابهاء فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولنيل هذه الامنية أيها الزوج العزيز ، يجب ان تعرف الحقيقة الهائلة بتفاصيلها .

« إني لا أزال أدعوك زوجي وسأناديك هذا النداء إلى ان ينقطع صوتي .

« انك تزوجت بي بمطلق ارادتك في كنيسة ماجيني ، فاذا ذكر تلك الليلة التي بارك زواجنا فيها ، ذلك الشيخ المحتضر واذكر ما وعدت به أمام والذي وهو يردد النفس الأخير ، بل ما اقسمت عليه وهو انك تحبني ما حييت .

« إني لا أزال أراك أيها الزوج الحبيب كما رأيتك في تلك الليلة ، ولا عبرة عندي بأوامر أبيك والحبر الأعظم ، فإن ما بناه الله لا ينقضه غير الله وأنت زوجي باحكام الله .

« إذا ، يجب ان تعرف تلك الجريمة الهائلة التي فرقت بيننا ، بل يجب أن تعرف أن أباك كان ظالماً عاتياً ، وان أخاك كان مجرماً سفاكاً ، وان امرأتك كانت شريفة طاهرة ، وان ابنتك يحق لها ان تكون في بيت مونورانسي .

« ولا تحسب أيها الحبيب إني أريد تكدير صفو حياتك ، فانما كتبت اليك كي تتضح الحقيقة .

« ولكنني امتنعت عن إرسالها إذ كنت انظر ثلاثة أمور .

« أولها وفاة أبيك لأنه إذا علم أنك وقفت على هذا السر الهائل يهيج حقه ويحل سخطه عليك .

« والثاني بلوغ ابنتي إلى سن تستطيع به الدفاع عن أمها كما تدافع فتاة من أسرة مونمورانسي وبيانس .

« والثالث حين أشعر بدنو الأجل أو حين أجد نفسي في خطر شديد لأني لا أعبأ بالحياة بل بسعادة بنتنا .

« وعندما يصل اليك كتابي هذا تكون لويزا قادرة على محادثتك ، ويكون أبوك قد مات فلا أخاف عليها شراً .

« وفي هذه الحالة أما أن أكون مريضة لا رجاء بحياتي أو نكون في خطر ، وفي الحالتين فكل ما أرجوك به ان تسرع إلى اغائة لويزا أو ان تمنحها اسم اسرتك ، وهو حقها لأنها حين ولدت كنت لا أزال امرأتك فهي وريثتك لأنها ابنتك الشرعية .

« والآن أيها الزوج العزيز فاسمع ذلك السر الرهيب .

« ان أخاك هنري كان يهواني .

« وجميع شقائنا ورد من هذه اللفظة .

« وما خشي بل ما خجل ان يبوح لي بهذا الغرام ، ولكنني كنت أرجو أن يثوب إلى رشده ويرجع عن غروره ، بل كنت أرجو أن يستر شرف حبي لك اهانة حبه لي ، فلزمت الصمت حذراً من القاء الشقاء والنفرة في اسرتكم .

« ففي الليلة التي سافرت فيها إلى الحرب كنت أحاول أن أبوح لك بسر فحال دون ذلك تلك الحادثة التي قضت بزواجنا تلك الليلة .

« ثم ذهبت على أن تعود بعد ساعة ، فرجوت أن أخبرك بذلك السر ولكنك لم تعد وأسفاه .

« أما هذا السر يا فرنسوا فهو إني كنت أصبحت أما ، وكان ذلك الجنين الذي يتحرك في أحشائي بنتك لويزا ، وقد ولدت وأنت تخوض غمرات لمنون دفاعاً عن الوطن .

« وقد قضيت تلك الشهور الطويلة الهائلة في غيابك وأنا أحسبك ميتاً .

« وقد غاب أخوك فكنت أحسب انه لا يعود .

« ففي ذات يوم خطفت بنتي ، وفيما أنا أبحث عنها وقد ضاع رشدي جاءني أخوك فأخبرني بعودتك وقال لي في الوقت نفسه : انه يعرف الرجل الذي اختطف بنتي .

« واسمع يا فرنسوا ماذا جرى بينما كنت قادماً إلي .

« أن لويزا كانت في قبضة رجل من اتباع أخيك ، وهو رجل سافل يدعى بارداليان استأجره أخوك لغرضه الدنيء .

« وقد كان الاتفاق بين أخيك وبين هذا الوحش الكاسر أن يقتل لويزا لأول إشارة تبدو من أخيك .

« أما أخوك فقد أخبرني بما اتفق عليه مع ذلك الرجل وقال لي : انه إذا كذبتني بشيء مما أقوله أمام أخي عنك أشرت هذه الإشارة إلى الرجل فقتل ابنتك .

« وعقب ذلك حديث هائل سمعته يا فرنسوا ، وهذا هو السبب في سكوتي عن وشايات أخوك .

« نعم إني لزممت الصمت صيانة لحياة ابنتي ، ورضيت العار غير انه لم يكن بيني وبين الجنون في هذه الساعة الرهيبة غير لحظة ، ولكن الله أعانني بالأغماء ، فلما صحوت لم أجدك .

« نعم حكم علي في ذلك الحين بالعار ، ولكن لويزا نجت من قبضة المفترس .

ان نكبتنا يا فرنسوا لم تكن إلا من أخاك ، فلتنصب عليه نعمة الله جزاء ما اقترف ، ولينتقم الله من شريكه في الجريمة ، بارداليان .

« ولكن يجب أن تعرف بقية الحديث ، فاعلم أنت ابنتي ردت إلي بعد ذهابك ، فاسرعت إلى حصن مونغورانسي كي أقول لك الحقيقة ، فقبل لي أنك سافرت إلى باريس .

« فهورلت إلى العاصمة ورأيت أباك وأخبرتني بكل أمري ، فخيرني بين أمرين ، سجنك السجن المؤبد أو افتدائك بالطلاق .

« فاخترت فديتك وأمضيت صك الطلاق وعشت من أجل ابنتي ، ولولاها لما بقيت في قيد الحياة .

« إنني كتبت هذا السر يا فرنسوا ، وستعرفه حين أشرف على الموت ، فأموت مطمئنة على ابنتنا ، فاسرع أيها الزوج العزيز إليها حين يصلك هذا فإني أريد قبل الموت أن أضع ابنتي بين ذراعي أبيها .

حنة دي بيانس

دوقة مونغورانسي

هذا هو الكتاب الذي قرأه بارداليان .

وقد كانت الرسالة سقطت من يد بارداليان كما قدمنا لاضطرابه ، وجعلت دموعه تتساقط على خديه وهو لا يفكر بمسحها .

ثم التقط الرسالة ونظر أيضاً إلى التوقيع ، فإن أنين الموجه وقال في نفسه : قبح نكد الطالع فإن قلبي لم يعلق إلا بمثل هذه اللبيلة ، وهي ابنة أعظم عظماء البلاد ، فكيف أطمع بزواجها وأنا لا نسب لي غير هذا السيف ؟ ثم أطرق برأسه وقال السلام على هذه الأمانى ، وباضاعة الرجاء بل يا ويسح هذا القلب كيف يخفق بعد الآن بلا رجاء .

غير انه بعد التفكير وبعد ان خفت وطأة تأثير الكتاب عليه ، عاوده شيء من الرجاء فقال في نفسه .

ان لويزا قد استغاثت بي وكنت أقرأ في عينيها سور الحب ، فإذا كانت تحبني وكان هذا الحب صادقاً لا يحول بيننا تباين المقام ، بل يكون الحكم لسلطان الغرام .

ولكن أباه وهو صاحب هذه المسكاة ، أيرضى أن يزوج ابنته من مثلي ، وأنا من المشردين .

ثم هز رأسه وقد عاوده اليأس فقال : وأي برهان يثبت حبها أيابي ، فإنني ما كلمتها كلمة بعد .

و غاية ما في الأمر أنها كانت إذا نظرت إليها نظرت إلي غير مغضبة ، انها استغاثت بي في ساعة خطر شديد ، أيعد هذا حباً .. إنني أبه لا محالة فلا طرح هذا الفكر أنه من العبث .

ثم قام وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ، إلى ان وقف فجأة وقال : وقد أطبق يديه مغضباً ، ويح لنفسي ان بيني وبين هذه الفتاة مهامه فهي ليس فقط لا تحبني ، بل إنها لا بد أن تكرهني حين تعلم ان أبي اختطفها وهي طفلة تنفيذاً لاغراض عمها السافلة ... أبي ماذا فعلت ، وكيف حلت بيني وبين مستقبلي .

ثم عاد إلى الكتاب فقرأ فيه الفقرة الخاصة بأبيه وهو يرجوا ان يكون مخطئاً فيما قرأ .

غير ان التهمة كانت جلية واضحة هائلة .

انه يحب لويزا وأبوه اختطفها حين كانت طفلة لغرض سافل دنيء ، فلا يسع هذه الفتاة إلا ان تكرهه وتحقر هذا الأب والأبن .

وعند ذلك اشتد غضبه وقال : إذا كان ما جرى يقضي علينا بالفراق ، وإذا كان قضي عليها بأن تكرهني وتحقرني فلماذا أهتم بها .. وأي شأن لي بإيصال هذا الكتاب إلى صاحبه ... وماذا عسى تفيدني دوقة مونغورانسي ، وهي قد لعنت أبي وستلعمني أيضاً .. وماذا تفيدني ابنتها

وقد عرفت الحقيقة .

انهما شقيتان محتاجتان إلى المسد ، فلتستغيثا بغيري وليبادر إلى نجدهما
سواي من الأغنياء الذين يحق لهم مصاهرة بيت مونمورانسي .

والآن كفى يا قلبي ضمفاً وقنوطاً . . . وأين انت يا ابي فتعيني في هذا
الموقف الحرج ؟

على انك إذا غبت عني فان نصائحك لا تزال عالقة في ذهني واقسم هذا
قسماً صادقاً اني سأعمل بها هذه المرة .

كن رجلاً يا بارداليان ، وانت يا أمها القلب الخفوق يجاني اشتد وكن
قويًا ، فما ظفر بالسعادة غير الأقوياء ، دع الضعف والاشفاق والبس درعاً من
الفولاذ كي لا تصل اليك سهام المراحم ، واذهب فالتمس السعادة بالحسام فقد
عز نيلها بالفراغ .

وهنا جعل يسير في الغرفة حائراً مضطرباً قانطاً ، وقد نظر في حالته
فاستنتج منها أن الملكة كاترين ضده ، وهي أعظم قادر في ذلك العهد .
وان الدوق دانجو وأتباعه من أعدائه وهم يبذلون الجهد للتكامل به .

وان الدوق دي كيز سيكون أيضاً من ألد أعدائه ، فان حاكم السجن لا
بد ان يخبره بكل ما جرى ، وانه واقف على سر المؤامرة .

ثم ينظر إلى حالته ويقارن بين نفسه وبين أولئك الأعداء ، وبمضهم
من أصحاب التيجان ، وان في وسع كل منهم ان يسحقه سحق الزجاج ،
فتهون عليه نفسه ، وتهيج عوامل كبريائه فيثور فيه ثائر يشبه الجنون ،
ويجرد حسامه ، كأنما أعدائه قد تمثلوا له ، وتظهر عليه علائم الارتياح ،
فيقول في نفسه : إني وحيد أقاوم ملكة ودوقين . . . فإذا مت ، مت
موت الأشراف .

ثم ضحك ضحكاً عصبياً وقال : لقد نسيت مونمورانسي ، وانه سيكون
ألد هؤلاء الأعداء متى علم ان أبي كان السبب في نكبة إمرأته فيبحث عني

للانتقام مني إذا أبقى علي أولئك الأعداء .

ويح لأولئك الأعداء ، لأنني لا أموت موت الجبان المنخلع القلب .

وعند ذلك اتقدت عيناه باللهب وقدفق العرق من جبينه وظهر الابتسام
على شفثيه ، وجمال الدمع في عينيه ، وانقض على الحائط بحسامه ، فكان
منظره في ذلك الحين عجبياً وهائلاً في حين واحد .

وقد هم أن يعيد الكرة على الجدار وهو يحسب ان أعداءه تمثلوا له .

ولكن الباب فتح في ذاك الحين ودخلت منه امرأة صاحب الفندق وقالت
له : رباة ماذا تصنع العلك جننت .

- كلا ايها العزيزة ، ولكني اتمرن فقد كدت انسى فنون القتال خلال
إقامتي في السجن .

- أسألك العفو لقدمي اليك ، فإنني ما جئت إلا لأرد لك هذا الكيس
فقد نسيت نقودك هنا حين قبضوا عليك فأعدتها اليك

فلبث بارداليان هنيهة مفكراً ثم قال لها : انك لا تقولين الحقيقة ،
ايها العزيزة .

- كيف ذلك اني ، اقسم لك ..

- لا تقسمي بشيء .. فإن زوجك سرق هذه النقود من غرفتي وانت
أرجعتها ..

- انت مخطيء يا سيدي ..

- ليكن ما تريدن ، وفي كل حال فاني ارجوك ان تردي هذا المال إلى
زوجك فإنني مدين له بأكثر منه .

- ولكن لا تبقي لك شيئاً ، فلنقتسم على الأقل .

- لقد فاتك امر يا سيدي لم تعلميه مني وهو اني لا اشعر بنفسي غنياً إلا
حين يكون في جيبي فلس ، وفوق ذلك فلا يزال معي هذه الياقوتة .

وقد اشار إلى الياقوتة التي اهدته إياها ملكة النافار فزين بها قبعته .

فتنهدت امرأة صاحب الفندق واسترجعت الكيس وانصرفت .

اما بارداليان فقد قال في نفسه بعد ذهابها :

لقد قطع الأمل ولم يبق لي رجاء بحبها ، فالسلام على تلك الأمانى ورحم

الله احلام الغرام .

والآن فلم يبق لي إلا ان ابحث عن ابي حتى اجدته ويفعل الله ما يشاء ،

واما هذا الكتاب فسأرسله الى صاحبه بالطريقة التي اجدتها .

ثم اعاد ختم الكتاب فوضعه في جيبه وخرج من غرفته وهو عازم على ان

يتم بلويزا وامها .

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حين خروجه فسار وهو لا يعلم ابن يسير

فيزور الحانات التي تعود ان يزورها غير محاول ان يختبئ ، وهو هائج واليأس

مستحکم منه .

وفي الساعة الخامسة عادت اليه السكينة فنظر إلى ما حوالبه فوجد نفسه

قرب نهر السين بازاء اللوفر ، ويجانب قصر عظيم .

وقد علم لفوره ان هذا القصر لأسرة مونورانسي ، فدعر لمسارآه ،

وحاول الابتعاد عنه ، ولكنه شعر ان قوة خفية تدفعه اليه فذهب إلى ذلك

القصر وطرق بابه .

الراهب المعرف

في مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه بارداليان من الباستيل بفضل تلك الحيلة
الغريبة ، وذهب فيه بالرغم عنه إلى قصر مونورانسي حدث حادث خطير في
كنيسة سانت جرمين .

ففي الساعة التاسعة من تلك الليلة كان الراهب بانيكارولا وهو من أجمل
الفتيان يعظ في تلك الكنيسة بحرية لم يكن يحسر عليها سواه .

فانه كان يحض سامعيه على قتل الهوكينوت بعبارات جلية ، ويدعوهم الى
قتل ملكة النافار والبرنس دي كونديه والأميرال كوليني وكل من ينتصر
للهوكينوت او يقتدي بالملك فيرأف بهم .

وكان الجميع يصغون اليه معجبين بفصاحة لسانه وجرأة جنانه ، ولا سيما
النساء فانهن كن يعتقدن ان هذا الراهب قدس جاءت به الملكة كاترين من
ابطاليا لانقاذ فرنسا وغفران خطاياها .

هذا ما كان يقوله نساء العوام ، وأما نساء الخواص فلم يعترفن
بقداسته ، بل كن يقلن انه رجل أخطأ كثيراً فهو يغفر كثيراً كما جاء
في الانجيل .

ذلك أنهم عرفنه من قبل ، حين كان يدعى المركيز دي بانيكارولا ،
وحين كانت تزدان به القاعات لجمال وجهه ، وأدب لسانه ،

وحسن تأنقه .

ثم احتجب فجأة ، إلى ان رأيناه يلبس الملابس السوداء ، وقد تقمص بشكل راهب ، بعد ان كان يضرب به المثل في الغواية ، وغرور الصبي .

وبعد ان فرغ من خطبته تلك الليلة ، ركع مصلياً ، فركع الحضور مقتدين به .

ثم نهضوا وجعلوا يخرجون أفواجاً من الكنيسة وهم يصيحون : ليمة الهوكينوت .. ليمة أعداء الدين !

ولم يبق غير بضع نساء كن راكعات حول كرسي الاعتراف .

غير ان أحد الشمامسة جاءهن فقال لهن : إن الراهب متمب هذه الليلة ، لا يستطيع سماع الاعتراف .

فذهلن وقد بدت عليهن علائم الاستياء ، ما خلا اثنتين منهن ، بقيتا في مكانن راكعتين .

وبعد هنيهة أقبل الراهب والمرأتان لا تزالان راكعتين ، ومر بهما ودخل إلى كرسي الاعتراف .

وكانت إحدى المرأتين كهلة والثانية فتاة بلغت مبلغاً وافراً من الجمال ، وهما اليس دي ليكس جاسوسة الملكة كاترين وعشيقة ديودات ، والكهله لورا التي أقامت عندها اليس .

فلما مر بهما الراهب قالت لورا : هوذا الراهب يا اليس .

فرفعت اليس عينيها وارتعشت ثم التفتت الى لورا وقالت لها : إني لا أجسر أن أقول شيئاً .

— تشجعي يا ابنتي لقد أطلق جميع النساء كي يسمع اعترافك .

— أرجو ان لا تكوني ذكرت اسمي أمامه .

— كلا إذهي ، إنه ينتظرك في كرسي الاعتراف .

فذهبت اليس إلى المكان المعد للمعترفين وجلست أمام الراهب حتى أتم صلاته فقال لها : تكلمي يا ابنتي إني مصغ اليك .

فقالت اليس في نفسها : يظهر انه لم يعرفني فلأباغته بذكر اسمي .

ثم قالت له : أيها الماركيز دي بانيكارولا إني اليس دي ليكس تلك المرأة التي طالما أحببتها ، والتي ربما كانت تحبك أيضاً ، وهذه المرأة جاءتك تتوسل اليك .

فأجابها الماركيز بلمهجة دلت على عدم الاكتراث قائلاً : إني مصغ اليك أيتها السيدة فتكلمي .

فارتعشت اليس لما رأته من عدم اهتمامه وقالت له : ألم تعرفني من صوتي يا كلمانتي ؟

— لا يوجد أمامك يا سيدتي كلمانتي ولا ماركيز ، بل رجل من رجال الله يسمع اعترافك ويسأل الله غفران ذنوبك إذا استحققت الغفران ... تكلمي يا سيدتي فإني مصغ اليك ؟

فأجابته اليس بلمهجة القنوط قائلة : يستحيل ان تكون نسيت غرامنا ولا يزال اثر قبلاطي على شفقتك .

— أيتها السيدة ، إنك إذا استمررت على هذا الكلام ، أضطر إلى مفارقتك .

— كلا كلا . إبقى لا بد لي ان أكلمك .

— إذا تكلمي كما تكلمين رجلاً من رجال الله ، لان ذلك العاشق الذي تعرفينه قد مات .

— ليكن ما تريد ، والآن فاصغ إلي أيها الأب واسمع اعترافي ، لترى إذا كنت قد لقيت من الشقاء ما يكفي لرحمة الله ورأفته بي .

— قولي يا ابنتي ما تشائين ؟

— إني أبدأ باخبارك عن ذنوبي ، ثم أخبرك عن توبتي ، كي تستطيع

الحكم ، فاسمع ..

كنت في السادسة عشرة من عمري فاستلقت جمالي أنظار ملكة عظيمة وجعلتني من نساء بلاطها .

وكنت يتيمة لا أب لي ولا أم ولا أميرة ، فضمنت لي هذه الملكة العظيمة أن تكون بمثابة أمي وأسرتي .

وكان الفتيان يتسابقون إلى رضاي في ذلك العهد ، وكلهم يتدلهون بحبي ولكني لم أكن أحب احداً منهم ، بل كنت أعشق الملابس الجميلة ، والحلي النفيسة .

وكنت على يتمي شديدة الفقر ، فلم تقتصر الملكة على وعدي بما كنت أتوق اليه من الزينة والمجوهرات ، بل وعدتني ان تجعلني من أهل الثروة إذا عملت بأرائها .

فوعدتني ان أطيعها طاعة لا حد لها .

وكان ذلك أول ذنب ارتكبته ، ولكنه لم يكن في الحقيقة ذنباً ، فقد بهرت عيني بما عرضته علي من المجوهرات ، فعدت معها اتفاقاً ، وكأني تعاقدت مع إبليس .

وأسفاه إني كنت أمضيت ذلك الاتفاق .

وذلك ان الملكة دعيتني اليها ذات يوم ففتحت أمامي درجاً كانت تتوهج فيه حجارة الماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد فقالت لي : إني أمنحك جميع هذه الجواهر إذا امتثلت لي فيما أريد .

فاغتررت بهذه الدراري ، وقلت لها : ماذا يجب ان أصنع ، يا صاحبة الجلالة ؟

فابتسمت الملكة وأخذت بيدي فسارت بي الى غرفة مجاورة لغرفة كتابتها فأزاحت ستاراً فانجلي عن الرواق الخاص بالملك .

وكان رجال البلاط وقوفاً في هذا الرواق وأنا أعرفهم بحملتهم ، فدلتني على

واحد منهم وقالت : أريد ان يحبك هذا الرجل ؟
فلم يمض شهر على ذلك حتى كنت خلية هذا الرجل .
فقال لها الراهب : ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

فارتعشت اليأس وقالت له : تريد ان تقول لي انه كان لي كثير من العشاق وانه يجب تعيين اسم هذا العاشق ... نعم فهو كما تقول .

أما هذا الرجل فقد كان يدعى كليمانت جاك دي بانيكارولا وكان مركزياً وقد جاء من ايطاليا ، فهل عرفته يا أبي ؟

فأجابها الراهب بسكينة قائلاً : أتمي حديثك يا ابنتي .. إنك كنت تحبين هذا الرجل دون شك ، فاذا كان هذا كل ذنبك فأنا الضمين لك بنيل عفو الله .

- إنك تهزأ بي يا أبي ، فاهزأ كما تشاء ولكن إصغ إلي ، فإنني لم أكن أحب هذا الرجل .

فارتعش الراهب ارتعاشاً خفي على اليأس فمضت في حديثها فقالت :

- نعم اني لم أكن أحبه في حين إني لم أكن أرى أجمل منه بين فتيات البلاط ولا أشد بسالة وأكمل عقلاً ، فهو قد خلق ليكون محبوباً ولكني لم أكن أحبه .

- وهو أكان يحبك ؟

- بل كان يعبدني ، وقد أكون مخطئة ، ولكني أقول الذي كنت أعتقد فيه .

ومهما يكن من أمره ، فاني ولدت بعد هذا الحب بعام ، مولوداً في منزل وهبتي إياه الملكة ، فولدت سرّاً فيه ، أما الأب فإنه أخذ المولود .

- أرى ان قلبك قد سرت اليه عواطف الحنو ، فصرت تشبهين الأمهات وانك تحبين ان تعلمي ماذا جرى لهذا المولود ، فاذا كان ذلك مرادك أخبرتك

بما تشائين لأني أرى المولود كل يوم .
فأجفلت اليس وقالت : ألم يمت هذا المولود .. أكنت كاذباً حين أخبرتني
بموته ... قل أين هو وأين أراه ... قل أو أملاً المكان صياحاً وأذيع أمرنا
لجميع الناس .
- أسكتي أو أفارقك فلا ترينني بعد الآن .

- رحماك لا تذهب ... بربك إصفح عني وقل أين المولود ؟
- لقد أراد الله ان يبقى حياً ، ولعله أراد أن يجعله ذريعة
لانتقامه العادل .
إن هذا الماركيز والد الغلام قد عهد به إلى مرضعة ودعاها باسم كي لا
يكون من اللقطاء .

- بماذا دعاه ؟
- دعاه باسمه ، وسماه جاك كليمانت .
- وأين هو الآن ؟
- إنه يتربى في أحد أديرة باريس ، وقد رأيت إني لا أزال أشفق
عليك إذ أخبرتك الحقيقة ، فعرفت ان الجريمة لم تتم ، وان الولد لا يزال في
قيد الحياة .

فسكتت اليس سكوتاً هائلاً ، ولبت الراهب هنيهة يتأملها ، ثم
قال لها :
- اليس ، إنك أردت ان تكلميني فوجب عليك ان تصفي إلي لأني أنا
أيضاً أريد ان أكلمك
اليس ، إنك أتيت تعكرين صفو حياتي بعد انقطاعي الى خدمة الله وحاولت
إشعال تلك الجذوة التي بدأت تنطفئ في قلبي .
اليس ، إنك حسبت ان الغلام قد مات وإذك ربما تكونين قد ندمت وتبت
فأتيت تسألين الغفران والصفح عن ذنب لم يرتكب .

إني يا اليس بعد ان أخذت الطفل ، ذهبت به ولم أعد إلى الأم . العلك
بحث عن السبب في ذلك ، بل هل عرفت السبب الذي قذفت بنفسي من أجله
إلى تلك الهاوية التي لا حد لعمقها والتي يدعونها الدير ؟

فقاطعته اليس قائلة : كليمانت إني بحثت عن السبب وعرفته ولذلك جئت
كي أنطرح على قدميك وأتوسل اليك ان لا تنفذ انتقامك فقد لقيت من الشقاء
ما يغني عن كل انتقام .

فارتعش الراهب وقال لها : تكلمي وأخبريني ماذا عرفت وابسطي لي
أساس الجريمة إذا أردت ان أوازن بينها وبين الغفران .

... إذا إسمع ، إن الملكة كانت تحسب ان حزب مونغورانسي كان يبحث
عن حلفاء له في ايطاليا .

وكانت تعلم انك حين جئت إلى باريس مررت بمدن فيروم ومانتو وبارج
وفينيسيا .

وقد رأوك مع فرنسوا دي مونغورانسي ، فأرادت الملكة ان تجد برهاناً
على هذه المؤامرة ، ولأجل ذلك أكرهتني على ان أستغويك . وهذا هو
أساس الجريمة .
- حسناً أذكري الجريمة نفسها الآن .

- انك كنت نائماً عندي يوماً عميقاً ... أوامه يا كليمانت ... رحماك ولا
تكرهني على قول ما يخجلني .

- إن الخجل من لوازم التوبة .. تكلمي .
- إني اغتنمت فرصة رقادك ...

ثم توقفت مضطربة فقال لها :
- أرى انك لا تجسرين على تنمة الحديث ولكنني أتمه عنك . . انك
اغتنمت فرصة رقادي فسرقت أوراقتي وفي صباح اليوم التالي كانت تلك الأوراق
عند الملكة كلارين دي مديسيس

نعم عرفت في اليوم التالي بسرقة هذه الأوراق واهتمتكم تهمة لم تكن ثابتة
عندي ، ولكنني وثقت بعد بضعة أيام ان هذه المرأة التي كنت أعبدتها لم تكن
غير جاسوسة سافلة .

- رحماك اعف عني لقد تبت توبة صادقة وان ندمي لشديد .

- ولكن لحسن طالعي ان هذه الأوراق لم يكن لها أهمية ولم يقضى علي
بسببها بالموت .

- رحماك كفى .

- وبعد شهر من ذلك ولدت غلاماً ، أما أنا فاني كنت في خلال ذلك أعد
وسائل الانتقام .

- إنه انتقام هائل ... لقد خدعتني وأنا ضعيفة أثر الولادة فاستكتبتني
كتاباً أملتته علي وجعلتني اعترف اعترافاً جليلاً بهذا الكتاب إني أنا
قتلت ولدي .

وهز الراهب كتفيه وقال : كيف ذلك ؟ ألم نتفق على أن آخذ
الولد لقتله ؟

ألم يكن ذلك بأمرك ورضاك أيتها الخليفة الحائنة والأم المجردة عن الرحمة
فكيف تتهميني بعد هذه الجناية .

- كلا .. كلا . إني لا أهتمك ولكني أتوسل اليك .. ان انتقامك عادل
ولكنه هائل .. إن هذا الكتاب الذي استكتبتني إياه يدفع بي
إلى المشنقة .

وقد أعطيته الى الملكة كاترين اليس كذلك

- نعم أعطيتها إياه ولا أنكر

- ولكنك أتعلم ماذا كانت نتيجة هذا الكتاب . إني أصبحت بعده
عبدة الملكة وآلة لتنفيذ جرائمها ، ولا يسعني مخالفة أوامرها ، وهذا الكتاب
تسلمني به الى الجلاد حين تريد .

نعم إنها باتت تكرهني بسبب هذا الكتاب الذي أردت ان تنتقم مني
بتسليمها إياه ان أستغوي بحمالي كل عدو لها ... وقد كانت عهدت إلي باغواء
فرنسوا دي مونمورانسي فلم أتمكن منه لأن هذا الرجل يعيش عيشة الزهاد
الناسكين او انه بدون قلب .

ولما عجزت عنه واعترفت لها بالقصور ، عهدت إلي باغواء اخيه هنري
وكثير غيره .

فأنت ترى اني لا أعيش إلا لتنفيذ أغراض هذه الملكة الهائلة فأبيع قلبي
بيع السلع وأسرق أسرار الفتيان وأدفع بهم إلى البلاء .

.. كفاك يا كليانت انتقاماً لأن ما أحتمله فوق طاقة البشر ولم أعد أطيق
العمل بهذه المهنة الشائنة .

فابتسم الراهب وقال لها : ما يمنحك من الخلاص وقد علمت ان الجريمة لم
تحدث وان الغلام في قيد الحياة ؟

- هو ذلك ، ولكنني كيف أستطيع إثبات هذه الحقيقة ؟

فابتسم الراهب ايضاً ، ابتساماً شفت عن غايته ، وكانت أبلغ
جواب . فاضطربت اليس ، وقالت له : إن انتقامك هائل ... أتزعت
الرحمة من قلبك .

- كلا ولكنك امتهنت التجسس والاغواء ، وكل ما أريد هو ان أكرهك
على مواصلة هذه المهنة .

- رباه لقد ماتت المرءة وخلت القلوب من الاشفاق .

- كيف عرفت اني تجردت من الرحمة ؟ . أسألتني أمراً لم
أجيبك اليه ؟

فاهتزت اليس وقد عاود قلبها شيء من الرجاء فقالت : أيمن ذلك
أن يكون ؟

إني أقف امامك كما يقف الخاشعون امام الله .

إني أقبل موطىء قدميك . كليانث كليانث ... قل لي انك تنقذني من هذا الجحيم .. قل انك قد تعفو عني .

فامتنع الراهب عن الابتسام ومسح العرق عن جبينه وقال لها ببطء : قولي ماذا تريدان ان أفعل ؟

فصاحت اليس صبيحة فرح قاذلة : لقد نجوت . .

ثم نظرت إلى الراهب نظرة المتوسل ، وقالت له : انت تستطيع إنقاذي يا كليانث من الخجل والعار واليأس والموت ، بكلمة تخرج من فمك .

كليانث اني ما أتيت الا من اجل هذا ، وقد علمت انك انقطعت الى خدمة الله ، فأيقنت ان الرحمة قد حلت من قلبك محل ذلك الحقد القديم

كليانث اني أسأت اليك كثيراً فليكن عفوك اكبر من ذنبي واصفح عن هذه الأثيمة التي قتوسل اليك .
- ماذا يجب ان اعمل لإنقاذك ؟

- انت تستطيع كل شيء ، فلا قدس يا كليانث انك احببتني ... اني لا اعلم شيئاً الآن من علاقتك بكاترين . ولكنني اعرف هذه الملكة حق العرفان ، واعرف الكثير من اسرارها واعلم انها تعجب بك الآن بقدر ما كانت تقات بك من قبل ، فهي لا ترفض لك ملتصماً يا كليانث .. قل كلمة ، ترجع اليك ذلك الكتاب الهائل ، الذي استكتبتهني إياه .

فقال لها الراهب برفق اهذا الذي اتيت تسألينني إياه ؟

- نعم وهو كل ما التمسه منك .

انت لم تخطئي فيما زعمته من اتصالي بالملكة وتأثيري عليها ، واني استطيع استرجاع هذا الكتاب بكلمة كما تقولين ، فيكون عندك بعد بضع ساعات

فتعرقينه وتأمين شر تلك الملكة الجائرة .

- بارك الله بمرورتك فما أخطأ ظني فيك .

- إذا تريدان ان استرجع هذا الكتاب ؟

- ومتى فعلت يباركك الله وتكون انقذتني من شر المهن .

- ولكنني لا استرجعه الا بشرط .

- قل فاني أمثل لكل شروطك .

- اريد ان تبهمني ان استرجاع الكتاب يفيدك .

- كيف ذاك ، الم اخبرك بكل ما اعانيه .

- ليس ذاك بالبرهان الناصح فقد الفت المشاق حتى تعودت عدم المبالاة بزيادتهم ونقصانهم ، فاذكري لي السبب الصحيح الذي تريدان من أجله استرجاع الكتاب .

- اقسم لك ..

- لا تقسمي بل قولي الحقيقة ، فأنت قد جئت الي للاعتراف ، وليس علي ان انتزعه منك انتزاعاً ، بل عليك ان تعترفي بكل ما يحول في ضميرك .

وعندي انك لم تأنفي العار والخجل والتجسس الا لأن شعاع الحب الأكيد الخالص قد نفذ الى قلبك . فهل اخطأت فراستي يا اليس ؟ . قولي الحبين .. ام تريدان ان اذكر لك ايضاً اسم الذي تعشقينه ، فاذا كان ذلك فاعلمي انه يدعى الكوزت دي ماريلياك ، واذا شئت ، فهو يدعى ايضاً ديودات .

ووضعت الفتاة يدها فوق قلبها وقالت : نعم احبه ، وهي اول مرة تسلط الحب فيها على قلبي . نعم اني احبه حب عبادة فدعني احبه يا كليانث فقد رويت غلك من الانتقام ، وانا تبنت توبة صادقة عما أسأت به اليك والى سواك ...

كلياتك اذكر انك احببتني .. كلياتك انقذني ودعني اعيش عيشة طاهرة
نقية بعد ذاك العيش الذميم .

ووجم الراهب هنيهة ولبث مفكراً مطرقاً كأنما ذكر هذا الحب قد هاج
في قلبه مكانه القديمة وانه يحاول تهدئة هذا الهياج .

فقال له اليس : الاتجيب ؟

-- بل اجيب يا اليس ، انت تسأليني ان اذهب إلى الملكة كاترين واسترجع
منها ذاك الكتاب الذي اعطيتها إياه ..

اليس هذا الذي تريدني .. نعم ان هذا كل مرادك ولكنه محال يا اليس
فلست على صفاء مع الملكة كما تظنين ، ولم اخدعك بما قلته لك من حسن اتصالي
بها الا كي ادفعك الى الحديث ، والحقيقة اني لم ارها من عهد بعيد وقد لا ارها
الى الأبد ويسوءني عجزى عن قضاء هذه المهمة .

فصعقت اليس لهذا الرفض للصريح ، وقالت له : أترفض إذا ،
انقاضي .

فضاق ذرع الراهب ولم يعد يطيق المواربة والتهكم فقال لها : اتطمعين
ان اتولى بنفسى انقاذك ، وان أساعدك على حب ذاك الرجل ؟ انت اذا
من المجانين .

فجمد الدم في عروق اليس ورأت انها لا تكلم ذاك الراهب الذي اعتزل
الدنيا وانقطع الى الدين ، بل تخاطب ذاك المريكز الذي كان بها من الهائمين
وقد خدعته شر خداع .

ثم رعبت رعباً شديداً وقالت في نفسها . كيف عرف اني احب ديودات ؟
ومن الذي باح له بهذا الغرام ؟ وكيف اتصل به هذا الاسم ؟

وكأنما الراهب قد عرف ما كان يحول في خاطرهما فقال لها اصغى الي
فاني موضح لك ما تجهلين .

أتحسبن يا اليس اني غفلت عنك لحظة خلال هذا الفراق . اني كنت

أراقبك من صومعتي ، واقتفي آثار خطواتك ، وأرى إشاراتك ،
وأسمع كلماتك ، فلم يفتني شيء من أعمالك ، أي من خياناتك ، فإن كل
أعمالك خيانات وآثام .

وإذا شئت ذكرت لك أسماء عشاقك واحداً واحداً ، فلا تحسبي اني كنت
غيراً من اولئك العشاق ..

بل أنا الذي كنت أدفعك إلى الآثام فتنزلين في سلم الخيانة إلى هاوية العار
درجة درجة بتسليمي إياك لتلك الملكة .

وقد كنت أريد بذلك الانتقام ، وهو ما تستحقينه فإن جرائمك تجاوزت
كل حد .

اني كنت أول ضحية من ضحايا خيانتك فقضيت عليك ان تعيشي العمر
منغمسة بحمأة الخيانة .

وعندما ارسلتك الملكة جاسوسة إلى بلاط النافار كنت أعرف كل ما
تعملين وكل ما تكيدين .

وقد عرفت إنك تعشقين ديودات فكان سروري بفراغك لا يوصف لأنه
شديد دعائم انتقامي .

ثم ضحك ضحكاً هائلاً وقال أتأتين إلي بعد ذلك وتريدين أن أكون
واسطة سعادتك في هذا الحب؟ أثير منك عاطفة الأمومة وأخبرك ببقاء ولدك
حياً ، ثم لا تبالين به لانشغالك عنه بهذا الغرام ؟

إنك تطلبين عفو الله عن آثامك ، ولو عقلت لما طلبت غير المزيد من
نعمة الله ..

فإن هذا الاله ، الذي أتقرب اليه كل يوم بالصلاة والابتهاال ، إذا أصغى
إلى صلاتي وابتهاالي ، أجاب توسلي وزادك على ما أنت فيه من الشقاء
والياس والعار .

وهناك وقف الراهب وخرج من غرفة الاعتراف بملء العظمة والجلال

تاركاً اليس فيها مغمياً عليها لا تعمي .

وبعد هنيئة دخلت لورا وأعانت اليس حتى استفاقت فانتبهت اليس من
إغمائها مرعوبة مندعرة وقالت لها لنهرب من هذا المكان فليس فيه غير
الشقاء والعقاب .

- ٢٨ -

سياسة كاترين

وقضت اليس ليلة هائلة فقد شعرت انها مقضي عليها ولكنها لم تجزع ، بل
جعلت تفكر في وسيلة تنقذها من ذلك الموقف الرهيب وتقول في نفسها :
سأدافع إلى اقصى حدود الدفاع .

على انها اعترفت بأنها مغلوبة ، وأن رجاءها قد حبط ، ولوراف بها
عاشقها القديم ورضي ان يرجع اليها ذلك الكتاب القاضي باعدامها من الملكة
كاترين لما أقامت لحظة في اللوفر ولاعتزلت خدمة هذه الملكة الهائلة .

ولكن جميع أمانها بنيل الحرية ذهبت أدراج الرياح ، ولم يبق بد لها من
أن ترصف بالقيود ، ومن أن تذهب إلى اللوفر قلبية لأوامر الملكة .

نعم انها كانت تستطيع أن تقول للملكة أن الرسالة التي أرسلتها اليها
وصلت إلى ملكة النافار قبل أن تصل اليها ولكنها كانت عارفة بطباع
الملكة وما يشير سخطها .

وفي صباح اليوم التالي ضبطت نفسها وحاولت نسيان ما جرى لها بالأمس

ثم ذهبت إلى اللوفر والتمست مقابلة الملكة .

فأمرتها الملكة أن تنتظر ، وان لا تبرح اللوفر إلى ان تفرغ من مهماتها
فقد كانت مختلطة مع الفلكي وكانت تنتظر زيارة ابنها الملك .

وكان الفلكي في ذلك الحين يودعها وهو يحاول الانصراف فقال لها :

- إذا لقد اتفقنا على السلم .

- هو ذاك يا رينيه ، فإن سلاح السلم أمضي من سلاح الحرب في بعض

الأحيان .

- أتظنين ان ملكة النافار تعود إلى باريس ؟

- نعم انها تعود .

- وكوليني

- وكوليني ايضاً وكذلك كونديه وهنري دي بيرات ، فأعمل بما
أوصيتك به .

- أن أشيع بأن ملكة النافار مريضة ؟

- هو ذاك ، واني أوكد لك انها مريضة جداً ، ولكن ليس هذا كل ما

أريده فقد نسيت الأساس .

فاصفر وجه الفلكي وقال تريد ان أشيع ايضاً ان الملكة النافار ولداً
آخر غير ولدها هنري .

- نعم ، وأن هذا الولد أكبر من ابنها هنري ، وانه يحق له الملك إذا

اختفى هنري .

فأطرق رينيه برأسه متتهماً وهو يقول ولدي ، ثم قال لها : إنها نيممة

يا كاترين .

- نعم إنها نيممة .

- ولكن لا يصدقها أحد .

فهزت كتفها وقالت : لقد عرفت رجلاً يا رينيه كان من بطانة الملك

فرنسوا الأول ، وهو ذكي الفؤاد لم أجد أكمل منه عقلاً .

كان هذا الرجل يارينييه شديد المطامع يريد ان يمتلك العالم بأسره ، ولكن مطامعه لم تكن قاصرة على تملك العالم في الحياة ، بل كان يريد أن ينتقل هذا الملك بعد موته إلى تلاميذه ، أما هذا الرجل فكان يدعى لويولا .

وصممت كاترين هنيهة مفكرة ، وربما كانت تقول في نفسها إنها هي أعظم تلامذة هذا الرجل العظيم ، ثم عادت إلى محادثة رينييه فقالت :

أن لويولا هذا رأي يوماً وحيدة منفردة لا يكثر بي أحد في هذا البلاط فمد يده إلى نصرتي ولا أعلم أكان ذلك اشفاقاً منه علي أم انه رأى نفسي أرضاً صالحة لزرع بزور تعاليمه ، فلزمني مدة وعرف كل امري فيما برح بلاط فرنسوا الأول حق وهبني سلاحاً ماضياً استخدمه للدفاع والهجوم .

- وما هذا السلاح يا كاترين ؟

- سلاح الكذب

- الكذب ؟

- نعم الكذب ، فهو سلاح الأقوياء .. سلاح اولئك الذين حذقوا بالحياة فعملوا ان اطايبها لا تلين إلا به .. سلاح اولئك الذين فحصوا ضمائرهم فحصى الخبير فعرفوا أن الذمة وهم ، وشرف الصدق خرافة .. اولئك الذين خبروا الحياة الدنيا فعملوا انها انشئت من العدم .

ان هؤلاء العوام ، بل هذه القطعان التي نسوسها ونرعاهما ، يجب أن تكبره الكذب وتعلم انه من أفضح الاثام فانهم إذا عرفوا من قوته ما نعرف ، حاربونا به وكان لهم علينا الفوز .

أما نحن يارينييه فيجب علينا ان نكون من الكاذبين كي نؤسس ملكنا على اساس متين .

- لا انكر يا ملكتي أن الكذب سلاح قوي ولكنه شديد الخطر على من

يستعمله ، فاحذري منه .

- لقد أجبت لويولا ، بمثل ما اجبتني به الآن يا رينييه .. أتدري ما اجابني ؟

قال لي أن هذا السلاح يكون خطراً علينا إذا لم نحسن استعماله او اضطربت ايدينا حين الطعن به .

انك إذا لقيت نمراً هائجاً وطعنته بخنجرك فاضطربت يدك حين الطعن تجرح ذلك النمر ولكنك تبقى له قوة يهجم بها عليك ويصيبك باكثر مما اصبته ، أما اذا أحسكت الطعن وابلغت الخنجر إلى القلب أجهزت عليه وأمنت انتقامه .

ثم ابتسمت الملكة وقالت ان هذا الرجل العظيم بعد ان اجابني هذا الجواب بسط لي افكاره وقال :

انك اذا كذبت كذب الجبان الوجل يندعر الشعب او يتظاهر بالذعر واما إذا كذبت كذب الواثق المطمئن وأكدت الأكذوبة بما ينبغي من اسناد ، وجعلت الاشاعة تلو الاشاعة وثق الشعب انك تقولين الحقيقة او تظاهر بتصديق كذبك وهذا كل ما ينبغي .

ان من يخاف عدم تصديق كذبه ، يكون ضعيفاً منخلع القلب ، فليس في الوجود كذب لا يصدقه الناس ، بل يوجد كاذبون يعرفون ان يكذبوا .

ولأضرب لك مثلاً على ذلك فافترض اني أشعت هذا القول وهو ان مدام اقمب حاولت تسميم الملك فرنسوا الأول .

فافتكر قبل كل شيء بعدد اولئك البلهاء الذين يقولون حين انتشار الاشاعة (لا دخان من غير نار) وأضف اليهم اعداء تلك السيدة الذين يطوفون في كل مكان فيقولون (لا نصدق هذه الاشاعة المتناقضة ولكنهم يؤكدون ان مدام اقمب ارادت تسميم الملك فرنسوا الأول) .

وأضف اليهم أيضاً اولئك الذين يتمنون اشاعة مثل هذه الأراجيف لمجرد ميلهم إلى الأراجيف والفضائح او لمآربهم الخاصة .

فاذا تم كل ذلك تجد انه لا يمر زمن وجيز حتى تعم تلك الاشاعة الساذبة ، وتصبح حقيقة ثابتة يسجلها التاريخ .

أما مدام اتامب فانها تقدم على واحد من امرين فهي اما ان تحتقر هذه الاشاعة ولا تدفعها او انها تحاول الدفاع .

فاذا لم تدافع عن نفسها جرت الاشاعة في مجراها فلا تزال تنتقل من فم إلى أذن حتى تعم ، ثم يقول الناس ان هذه الاشاعة لم تنقض فهي صادقة لا محالة .

وإذا أرادت الدفاع وحاولت نقض الاشاعة ، أشفع الاشاعة الأولى باشاعة أخرى تعززها وأذكرها مفصلة ، فأقول مثلاً إنها قتلت بالسم ، وكان هذا السم رشاشاً أخضر اللون ، فتبرهن المتهمه انها لم يكن عندها في حياتها رشاش أخضر ، وتحصر دفاعها بالإشاعة الثانية فتثبت الأولى ، ويجعل الناس يتراهنون على أن يكون هذا الرشاش أخضر اللون ، أو أبيضه ، ولكنهم بينما يتناقشون في لون السم تكون الجريمة الأساسية وهي التسمم قد رسخت في الأذهان .

هذا ما تلقنته يا رينيه من لويولا ذاك الفيلسوف العظيم .

فقال لها رينيه : الملك اتبعني يا سيدتي هذه التعاليم .

ب نعم وقد طالما جريت عليها فنفعتني .

فقاطعته قائلة : إن من يستخدمه ويحسن استعماله يسود العالم .. وإذا وجد زعيم حاذق وكان له تلامذة مدربون خاضعون فجري على هذا المبدأ بلغ به وهم من السيادة ما يشاء .

وهذا الذي يسعى لويولا ان يصل اليه ، ولا بد أن يأتي يوم تعلم فيه الأحزاب السياسية فائدة الكذب وتتخذ رائداتها في الأعمال .

كن كاذباً يا رينيه فإن الكذب مقدس ، بدأنا به وبه نختم ، فلنكذب يا رينيه بوثوق واطمئنان إذا أردنا ان تبقى لنا هذه السيادة .

- إذا ، سأكون يا ملكتي الجميلة من الكاذبين .

- إن ملكة النافار ستعود إلى باريس ، كما قلت لك فيجب إشاعة مرضها أن تسبقها ، فاذا ذكر الآن ما يجب ان تشيعه وهو : أولاً انها مريضة وثانياً ان لها ولداً اكبر من ولدها هنري . ما بالي اراك مضطرباً ، ومن انباك اني لا أهتم لهذا الولد وأصيره ملك النافار بدلاً من هنري .

فقبل رينيه يد كاثرين وقال لها وهو لا يستطيع إخفاء ظواهر سروره وإعجابه : انك عظيمة في صدقك ، عظيمة في كذبك ، عظيمة في كل ما يوحيه ضميرك .

فابتسمت وقالت له : إذهب الآن وكن من الطائمين .

فخرج الفلكي من عندها وخرجت في أثره فذهبت إلى حيث كان الملك .



ولما دخلت إلى قاعته الكبرى أسرع الملك إلى استقبالها فقبل يدها وأجلسها بجانبه .

فقالت له الملكة وقد تلبست بلامح القلق : اني قادمة اليك يا بني كما أحييتك كل يوم لأطمئن على صحتك ، فكيف أنت .. اني أرى عليك ملامح العافية والمجدد على تعافيك . فاني لم أذق طعم الرقاد منذ أكد لي طبيبك الخاص ..

فقال لها الملك : ماذا قال لك الطبيب يا أماء ؟

- يقول هذا الطبيب الحاذق يا بني ، إن هذه النوبات تقضي عليك ، ولكنني لا أصدق شيئاً من هذه الأقوال ، فإنك بحمد الله على أحسن حال ،

والدائم بين الأحزاب يفضي إلى انقاص ذلك الارث الذي ورثته عن أبيك ،
وهو ودبعة عندك لخلفائك من بعدك .

- بلاريب ، فانه يسوءني ، بل يؤلني أن أرى رؤوس أولئك البواسل
تتساقط من أجل الخلاف على أمور تافهة .

- وانا يسرني أن أرى منك هذه العزائم .
- ومتى رأيتني على غير هذا يا أماء ، ألم أكن دائماً ميسالاً إلى السلم
والتوفيق بين المذهبين . ألم أذعر لمنظر الدماء وأنشر الأمر تلو الأمر في منع
الخصام . الست أنا الذي أريد التوقيع على معاهدة السلم في سانت جرمين ؟
فكيف تظهرين الآن سرورك لأميالي السلمية ، وأنا أول المجاهرين بها ، وطالما
خالفتك فيما كنت تربدينه من الحرب والمذابح .

- إنك تجهلني أتم الجهل يا شارل .

- ولا أحب إلي من ان اعرفك حق العرفان يا أماء .

- لا يسوءني ان يعرفني اولادي فقد جهلني أبوهم قبلهم ، ولكن أعلم يا
بني إنني إذا كنت اردت الحرب فلم اقصد بها غير الوصول إلى السلم .

- لقد عرفت مرادك فانك تريد إبادة الهوكينوت بغية الراحة ،
ولكني رأيت نتائج الحروب ، فاننا لم نضعف الهوكينوت في جهة إلا زادوا
قوة في جهة أخرى .

وقد كفى ما جرى يا أماء ، واحب ان تنفذ ارادتي ، فليكف اعوانك
عن التحرش بالهوكينوت وينقطع رهبانك مثل بانيكارولا وسواه عن تحريض
الشعب على العدوان .

ثم وقف مضطرباً حانقاً وقال سوف نرى من الحاكم في هذه البلاد فاني
سأرسل جميع اولئك الأعوان إلى الباستيل وكذلك رهبانك فأبدأ منهم
ببانيكارولا .

فضحكت الملكة ضحكا مفتصباً وقالت لو سمعت الناس يا شارل لقالوا

وقد أمرت بإقامة الصلوات السرية من أجلك في ثلاث كنائس

- اني لو كنت يا أماء في حاجة إلى الاطمئنان لاطمأنت لكلامك ،
ولكني مثلك لا أتق بقول هذا الطبيب .

وفوق ذلك ، فإني أشعر من نفسي انني في خير وعافية ، وان الذين
ينتظرون موتي لا بد لهم ان يصبروا .

- حقق الله ما تقول يا بني ، وبعد فهل تظن انه يوجد في فرنسا من يسره
موت الملك .

إنه حين مات ابوك كان يوماً مشهوداً في باريس ، وفي فرنسا ، فإن
جميع الناس كانوا يبكونه ، فلماذا تريد أن يسروا إذا قدر الله وفاتك بعد
عمر طويل .

فاصفر وجه الملك من الخوف والغضب ، وربما كان اصفراره من كليهما ،
ثم حدق بأمه وقال : كيف يتفق هذا يا أماء ، فإنك لم تحدثيني مرة الا
وذكرت في حديثك أمر موتي .

- لأن قلوب الأمهات ضعيفة يا بني ..

- ولكن .. أقول لك ، انني في أتم عافية فلا تباحثيني بشأن صحي
بعد الان ..

أما أولئك الذين يسرهم موتي ويستبشرون اذا أصبت بأقل عارض فهم
في كل مكان حتى في نفس هذا القصر .

- الملك تريد الإشارة إلى الهوكينوت ، يا بني ، فإن كان هذا فإنني أحب
ان أحادثك في شأنهم .

وبدت علائم الجزع على الملك فهز كتفيه وقال لمن حوله : ان أمي تريد
الاختلاء بي أيها السادة .

فانصرف الجميع وبقي مع أمه فقال لها : إنني مصغ اليك يا أماء .
- ألا ترى يا شارل إن حالة الملكة سيئة .. ألا ترى ان هذا النزاع

انك مغضب على امك .

فوقف شارل فجأة وقد احمر وجهه فقال : اسألك المذرة فقد اخرجني هؤلاء الناس حتى لقد بت مهدداً في نفس قصري .

- انك مخطيء يا بني وعندى انه لا يجب ان نقبض على احد ولا سيما ذلك الراهب ومن دعوتهم بأعوانى .

- بل اقبض عليهم ان استحسننت هذا ، بل اقبض على أعظم منهم ان راو لي بل اقبض على هنري نفسه ، فليحذروا فان للصبر حداً .

- عجبت لأمرك يا بني كيف تتكلم عن السلام وتريد ان تبدأ هذا السلم بالقبض على الناس حتى على اعضاء اسرتك .. كلا انى لا ادعك تحتاج الى القبض على احد فانى سأرشدك الى طريقة تضمن السلم العام .

- وهذه الطريقة ؟

- قد وجدتها .

- بشرط ان لا تكون فيها مذمجة او حرب جديدة ، او دفع مال .

فابتسمت كاترين وقللت له : اطمئن يا ابني ، فليس فيها شيء من ذلك ..

- اذا تكلمى فانى مصغ .

- لست يا ولدى ، كما تظننى من اولئك الأبطال الذين لا يلهجون الا بذكر الحروب ، فما انا غير ام حنونة لا يشغلها في هذا الوجود غير هناء اولادها .

وقد فكرت ملياً في طريقة الوصول الى هذه الراحة فوجدت ان الهوكينوت ، وهم سبب شقائنا لم يعودوا شيئاً مذكوراً الا انهم خفت وطأة خطرهم لولا هنري دي بيران و كولينى .

- اذا انت تريدن ..

فقاطعتها امه قائلة : تمهل يا ولدى ، فان الذى اريد قوله هو ان الهوكينوت

اذالم يكن لهم هذان الزعيان لا يستطيعان اثاره الحرب علينا .

- ولكنهم لا يشيرون الحرب على يا اماء .

- هو ذاك ، ولكنهم يشيرونها ، فلنفترض الآن ان هذين الزعيمين

قد خضعا .

- هذا محال فانها لا يخضعان .

فقلت كاترين بلمهجة المنتصر :

- انى وجدت طريقة تفصل طريقة خضوعهما وهى ان اجعلهما من خير

اصدقاء الملك ومحالفيه .

- انك ان وجدت هذا يا اماء اعترف انك من اذكى النساء .

- اذا فاسمع ، ماذا تقول بكولينى اذا عقدت له راية الإمارة على جيش

وارسلته الى هولندا لحماية اهل مذهبه من الدوق دي الب .

- اقول انه يقابل هذه النعمة بملء الشكر ، ولكننا نكون بهذا قد

اشهرنا الحرب على الاسبانيين .

- سنعقد مجلساً يا بني للنظر في هذا الشأن فانى أعرف طريقة تمكننا

من اجتناب محاربة اسبانيا فتبقى صديقتنا الوفية فاذا وجدت هذه الطريقة

اتوافق على ما اقترحتة عليك بشأن كولينى ؟

- أوافق بملء الرضى حتى ولو اضطررنا إلى محاربة الاسبان ، فإن الحرب

على الحدود خير من الحرب الداخلية .

- وإذا تم ذلك فقد قضى القضاء المبرم على حزب الهوكينوت لبعده زعيمه

- هو ذاك ، ولكن يبقى هنري دي بيران .

- إن هنري ألد أعدائك الآن ، وقد خطر لي أن أجعله من خير أصحابك

بل أجعله أخاً لك .

- ليس هنري من أعدائى يا اماء ، بل نحن دفعناه إلى هذا العداء ، ولكنى

أحب أن أعلم كيف تجعلينه من إخوانى .

- بتزويجه اختك مرغريت .

- أختي ؟

نعم اختك ، أتظنه يأبى هذا الزواج ، أم تحسب ان أمه على كبرياتها لا تجد نفسها أسعد النساء بهذه المصاهرة .

- ان الفكر حسن صالح ، ولكن هل ترضاه أختي .

- ان أختك ترضى بكل ما ترضاه ، فإن ذكاهها يضمن لنا اخلاصها .

فوقف الملك وقد سر لهذا الحاطر مروراً عظيماً وقال : ان هذا الزواج يضمن لنا السلم خير ضمان ، فإن هنري دي نافر إذا انتظم في سلك عائلتي ، وإذا شغل الأميرال كوليني بهولندا ، تبدد شمل الهو كينوت لا محالة ولا يبقى لهم حزب .

- انك أنعشتني يا أماه فإني لا أطيق سفك الدماء ، فاعقدي المجلس غداً

لننظر في هذه الشؤون الخطيرة .

ثم وضع يده على جبينه وقد أصفر وجهه وفاجأته النوبة العصبية لتأثير الفرح عليه ولكن أعراضها لم تطل .

فالتفت إلى أمه وقال لها : رأيت يا أماه ما يفعل بي التأثير .. ألا نكون

أسعد الناس إذا لم يكن حول عرشنا دسائس وحروب وتمتعنا بالسلم .

فوقفت كاترين وقالت له : اطمنن يا بني فسيكون ما تريد أن يكون ،

واعتمد على أمك فإنها ساهرة عليك ، والآن فإني معتمدة على موافقتك ، وسأبدأ المداولة بشأن هذا الزواج .

- نعم نعم يا أماه فذهبي في شأنك ، وأنا ذاهب إلى أختي فاقنعها بالرضى .

وعلى هذا افترق الاثنان ، بعد أن اتفقا على هذا الزواج السياسي

الذي أريد عقده لضمانة السلم ، فأفضى إلى أعظم مذبح دموية سجلها التاريخ .

واقعد بسطنا في هذا الفصل سياسة كاترين دي مدسيس مع كاتم أمرارها ،
رمع ولدها ونحن قادمون على بسط سياستها مع جواسيسها فنقول :
إنها حين تركت ولدها وقد بلغت منه ما أرادت ، عادت إلى غرفتها
فنادت خادمة ايطالية ، وأمرتها ان تدخل اليها اليس دي ليكس .
وبعد هنيهة دخلت اليس فاستقبلتها كاترين باسمه وقالت لها : متى عدت
يا ابنتي انك جئت أمس دون ريب .

- كلا يا سيدتي ، فقد عدت منذ أحد عشر يوماً .

- كيف هذا أتكونين في باريس منذ هذا العهد البعيد ، ثم لا أراك

غير اليوم .

- أسأل جلالتك العفو ، فقد كنت متعبة .

- نعم نعم ، فقد كنت محتاجة إلى الراحة ، وربما كنت محتاجة إلى

التفكير أيضاً ، فلندع البحث في هذه الأمور الآن ، فإني راضية عنك يا اليس
فقد فهمت مهمتك خير فهم ، وقتت بما انتدبتك له خير قيام ، وخدمت

مصلحتي وهي مصلحة الملك ، بل المملكة فوجيت مكافأتك .

- لقد غمرتني جلالتك باحسانها .

- إني لا أقول غير الحقيقة يا اليس ، فقد عرفت بفضلك خطة ملكة

النافار عدوتي الهائلة ، واحبطت مساعيها وبهذه المناسبة اثني عليك لحسن
اختيارك الرسل ولحسن انشائك ، فقد كانت رسائلك باتم الجلاء ..

نعم يا ابنتي انك خدمتنا أجل خدمة ، فاخبريني الآن يا اليس كيف

خرجت ملكة النافار من باريس ، فقد علمت إنها جاءت اليها وانت
كنت بمعيتهما ...

حدثيني بكل ذلك يا اليس ، فقد علمت أيضاً إنه حدث خصام عند الجسر

وبعز علي ان تصاب ملكة النافار بسوء فاخبريني بما اتفق

فروت لها اليس عند ذلك جميع ما اتفق مما عرفه القراء في حينه

فلما أتمت حديثها ضمت الملكة يديها وقالت : رباها ماذا أسمع .. القيمة مثل هذا الخطر الشديد ..؟ إني حين أفكر ان ملكة النافار كادت تقتل انتفض من الرعب ، فإن هذه الملكة عدوتي والحق يقال ، ولكني لا أريد لها الموت ، بل أريد التغلب عليها ، فأنا معها في موقف المدافع عن نفسه ليس إلا ، ودليل هذا إني لا أريد لها شراً ، بل أريد مسالمتها وسأعيدك اليها في مهمة خطيرة تتعلق بهذا السلم . ولذلك يجب أن تسافري اليوم فقد ارتحت دون ريب .

فأطرقت اليس برأسها واضطربت اضطراب العصفور الذي يرى مخالب البازي ستنشب فيه .
وكانت الملكة تراقبها من طرف خفي فقالت لها : لقد فاتني أن أسألك عن السبب الذي حمل ملكة النافار على القدوم إلى باريس ، فما هو ؟
- إنها جاءت لبيع مجوهراتها .

- مسكينة .. وبعد فهل باعها بمقدار كبير .. لا لا .. إني لا أحب أن أكون من أهل الفضول ، وفوق هذا فقد بقي لها ما تبيعه .. أما أنا فلم يبق لي غير القليل من الحجارة الكريمة .. وهي ليست لي أيضاً ، فقد خصصتها لأمثالك من المخلصين .. هاتي هذا الصندوق الصغير الموضوع على المستوقد يا اليس .

فامتثلت اليس وأحضرت لها الصندوق .
فأخذت كاترين الصندوق وفتحته أمام اليس ، فظهر ما فيه من جواهر تتألق فتدهش الأبصار .

غير أن اليس لم تكترث لهذه المجوهرات ، ورأت كاترين ما كان من عدم أكثراتها فقالت في نفسها : ترى ما هذا الانقلاب ؟ فعهدي بها تفتنها الجواهر ، ثم قالت لها : ماذا ترتأين بهذه المجوهرات يا اليس ؟
- أرى إنها جميلة يا سيدتي .

- دون ريب ، فإن لآلى هذين القرطين لا عيب فيها . ولكن ما هذه المباحث الآن التي أنستنا ما كنا نبحت فيه ، فلقد قلت لي ان ملكة النافار باعت مجوهراتها فمن الذي اشتراها ؟

- شيخ اسرائيلي يدعى اسحاق روبين .
- لقد قلت لي أيضاً ان الملكة سافرت ، فإلى أين ؟

- إلى سانت جرمين ، ثم سافرت منها إلى تيورت ، وكان في نيتها أن تذهب منها إلى روشيل ، فلا أعلم إذا كانت غيرت خطة سفرها .

- ولكن مالي أراك قلقة يا ابنتي تظهر عليك علائم التعب في حين انك استرحت عشرة أيام . ولا أنكر ما تلاقينه من المتاعب ، ولكني محتاجة اليك ولا ثقة لي إلا بك ، والأعداء محدقون بي من كل جانب .

وسترين إني لا اكنتم عنك أمراً ، فاعلمي ان الملك يريد الاتفاق السلمي مع الهوكينوت . أفهمت .. وعند هذا تصبح ملكة النافار صديقة لنا وتأتي إلى باريس .. بل إلى اللوفر . ولذلك رأيت أن أرسلك بمهمة إلى هذه الملكة وهي مهمة عظيمة تقولينها لها شفاهاً ، ثم يتلوها المخاطبات الرسمية .
فحاولت اليس ان تجيب الملكة ، ولكنها قاطعتها قائلة : اسكتي وأصغي إلي فان وقتي ثمين كما تعلمين

إنك تسافرين بعد ساعة حيث تجدين على باب منزلك مركبة تقطع بسك الأرض نهياً إلى أن تلحقني بملكة النافار .
والآن فاصغي إلي كل الاصغاء واطبعي كل ما أقوله في ذاكرتك ..

إني ساعهد اليك بمهمة مزدوجة . الأولى هي أن تعرضي على الملكة بلء اللطف والدقة ما سأخبرك عنه ، والثانية أن تنظري الحالة بعد المخابرة ، فإذا كانت صالحة تهدين الملكة هدية . وستكون الهدية منك إذ لا يجب في البدء أن يكون لي أقل دخل في هذه الشؤون .. اطمأني يا ابنتي ان الهدية غير مكلفة فستكون زوجاً من القفاز

ولك ان تخترعي ما تشائين وتقولي ما تريدن بشأن المهمة التي ساعده
اليك بقضائها ، وأما الهدية فاحذري أن تذكرى كلمة تدل على ان لي علاقة
بها ، بل تقولين انك اشتريتها من باريس ورأيت ان تهديها اياها .
فقاطعتها اليس قائلة اتوصل إلى جلالتك ان لا تزعجني نفسك بالمزيد فلا
فائدة منه .

فقالته الملكة في نفسها : يظهر انها فهمت الغرض من هدية القفاز فلنضعفها
بالمجوهرات .
ثم أخذت صندوق المجوهرات وفتحتها بسرعة ، فأخذت منه مشطاً للشعر
كان مرصعاً بستة حجارة من الياقوت النفيس وقالت لها : ماذا تقولين بهذا
المشط يا اليس فإنك إذا وضعته بين شعورك يصبح كالتاج ...

وهنا غيرت الحديث فجأة فقالت لها : إنك لم تذكرى لي شيئاً عن كيفية
دخولك إلى بلاد النافار واتصالك بالملكة فكيف كان ذلك ؟
إني فعلت ما اتفقنا عليه فان سائق المركبة أوقعها في المكان الذي عينته
فتحطمت ، وصبرت هناك إلى أن مر بي أحد رجال البلاط فسار بي إلى الملكة
وانك تعرفين البقية .

وحدده فلاضبيه

ماذا يدعى هذا الرجل ؟
- فارتعشت اليس وقالت : إني ما عرفت اسمه ، فقد سافر في اليوم نفسه
وانت ترين يا سيدتي إني لا أستطيع القيام بالمهمة التي انتدبتني اليها ، فكيف
يصح ان أذهب إلى ملكة النافار من قبلك ، وهي تعلم كما قلت لها إني هاربة
متك لأنك تضطهديني .

- تقولين انك لا تعرفين اسمه ؟
- اسم من ؟

- اسم الرجل الذي أوصلك إلى الملكة .. ولكنك قلت لي انه سافر في
اليوم نفسه فلا نبحث به . أما خوفك من أن تسيء ملكة النافار ظننها بك

فلا محل له ، وذلك لأنك اتيت إلى باريس وعلمت إنك متصلة بملكة النافار
فأحببت أن اجعلك رسولي اليها لميلتي إلى مسالمتها .
وسأزيدك ايضاحاً فلنبحث الآن في مسألة القفاز ، فإني أوصيك بأن لا
تلبسه وان لا تفتحي الصندوق المودع فيه
- ولكن ذلك محال يا سيدتي .

فأرأت الملكة من لهجتها أنها صادقة العزيمة فقالت لها : ماذا حدث ؟
اخبريني عن الحائل بينك وبين قضاء هذه المهمة فازيله .
- ان الحائل لا يزول ولا يستطيع البحث في هذه الأمور ، فإني ما
فكرت بها مرة حتى شعرت ان الخجل يقتلني فان ملكة النافار عرفت
- ماذا عرفت ؟

- عرفت ماذا كنت أصنع عندها .
فاضطربت الملكة وقالت : أواثقة أنت مما تقولين ؟
- نعم .

فهاجت الملكة هياجاً عظيماً ، وجعلت تسير في الغرفة نائرة مضطربة ،
ثم وقفت وقالت لها : اخبريني بكل ما حدث

- حين كنا على الجسر رمى إلي أحدهم ورقة تتضمن أوامرك ، فلم أرها
بل رأتها كاترين وأخذتها ، وكانت مراقبة بي فأزالت هذه الورقة كل ريب ،
فتركتني أعود معها إلى سانت جرمين وهناك طردتني .

وجعلت اليس تبكي وكاترين مطرقة تفكر ، ثم التفتت إلى اليس وقالت
لها : سكني روعك فإنك قد لقيت عناء شديداً ، ولكن هذا كان في سبيل
ملكته فهو يهون عليك .

ونعم ان كل الضرر عاد إلي في هذا الإهمال ، ولكني لا أؤنبك عليه وقد
وجدت لك عملاً خليقاً بذكائك وجمالك فلا نبحث بعد الآن في ملكة
النافار ، ولكن ثقني لا تزال بك شديدة ، وسأبرهن لك عن هذا وتكونين

دائماً في باريس

- ولكن ألم تقولي يا سيدتي أن ملكة النافار قادمة إلى باريس .

- هذا ما أرجوه فلا تذكره لي ، وأنت تعلمين كيف أعاقب من يخونني ، وإنما أقول لك هذا من قبيل الانذار ، فإن ثقتي بك شديدة وبعد ، فأني ضرر ترينه من قدوم ملكة النافار إلى هنا ؟

- إلى اللوفر يا سيدتي ؟

- نعم إلى اللوفر .

- ولكنها قد تراني فيه ، ألا ترين يا سيدتي أنها إذا لم ترني كان هذا خيراً لي ولك على الأخص ، فإذا أذنت لجلالتك تغيبت بضعة أشهر أو عاماً إلى أن يصدر أمرك لي بالرجوع .

- لقد أصبت فلا ينبغي أن تراك ملكة النافار وفوق هذا فإن المهمة التي سأعهد اليك بها لا تقتضي وجودك في اللوفر ، ولكنك لا تبرحين باريس وتتداول بالمكاتبات .

فابقي الآن في المنزل الذي تقيمين فيه ، وفي كل ليلة ترسلين إلي تقريرك .

- سأفعل يا سيدتي .

- والان فاصفي إلي فانك خدمتني خدماً جليلاً أوجبت علي مكافأتك عنها ، فاني استخدمك منذ عشرة أعوام ، كنت فيها خير العاملات لخير الملك ومجده : نعم إنك اشتغلت كثيراً يا ابنتي فحققت لك الراحة ، وستكون هذه المهمة التي سأعهد اليك بها آخر المهمات .

فظهرت علائم الفرح على محيا الفتاة وقالت : أحق يا سيدتي ما تقولين ؟

- دون ريب فإني بعد قضاء هذه المهمة أطلق لك الحرية .

ولا اقتصر على إطلاق حريتك يا اليس ، بل أغنيك وأعين راتباً ضخماً

تقبضينه من خزينة الملك .

وفوق ذلك فإن لي سبعة قصور في باريس أمنحك واحداً منها بأمان

وهو كباته ، فيكون مهواً لك عند زواجك لأنني أريد تزويجك يا اليس .
فجعلت اليس تقول في نفسها إنها مهمة وتنقضي ، فأصبح غنية وأعيش مع من أحب كما أشاء .

أما الملكة فإنها استأنفت حديثها فقالت : والان فاعلمي المهمة التي سأعهد اليك بها وانتبهي جيداً يا اليس فإن المهمة خطيرة . اني غفرت لك فشلك مع فرنسوا مونورانسي ، ولكني لا اغتفره لك في هذه المهمة مع هذا الرجل . نعم إنني أطلب اليك إغواء رجل ، وأريد ان يكون لك به ملء الثقة فيهبك قلبه وتخرقين حجاب ضميره . وتنظرين إلى خفايا نفسه كما تنظرين من خلال زجاج شفاف .

ان هذا الرجل في باريس وهو من ألد أعدائي ، بل هو خطر دائم يتهددني وسأخبرك كيف وأين تجدينه فإنه دائم الاختباء ، ولكنك ستتهدين اليه بارشادي ، فاعلمي ما شئت بشرط ان تظفري به .

- ماذا يدعى يا سيدتي هذا الرجل ؟

- يدعى الكونت دي ماريلياك .

فدرى هذا الاسم في اذني اليس دوي الرعد القاصف ، فإنه اسم حبيبها ديودات واصفر وجهها اصفراراً شديداً وبذات أشد ما يمكن بذله من التجلد كي تخفي ثائرها ، فلا تصيح ولا يغمى عليها ، ولا يظهر من ملاحظها ما يثير الريب في نفس الملكة .

غير ان الملكة ما خفي عليها هذا الاضطراب ، وربما كانت أدركت سر الفتاة ، فإنها مشت إلى اليس فاخذت يدها وضغطت عليها ضغطاً شديداً وهي تقول : أتعرفين هذا الرجل ؟

فضعفت اليس حتى همت أن تجثو أمام الملكة وتبوح لها بأمرها ، ولكنها أجهدت نفسها جهداً عنيفاً فتجلدت وقالت : لا . فقالت لها الملكة : وأنا أقول إنك تعرفينه .

وكانت ساعة هائلة بين المرأتين ، فان كاترين كانت تنظر إلى اليس نظر
النسر إلى الفريسة ، وكانت اليس تضطرب أمامها اضطراب الحمامة بين مخالب
ذاك النسر وهي لا تجسر أن تنظر إليها .

فقالت لها كاترين : نعم أنت تعرفينه وتحبينه .

فتمتمت اليس قائلة : إنني لا أعرفه .

ثم سقطت مغمياً عليها .

فأسرعت كاترين عند ذلك إلى خزانة فاخرجت منها زجاجة ففتحتها
ووضعتها على أنف اليس فاستفاقت في الحال وقالت لها كاترين : قفي .

فوقفت اليس وجلست كاترين في كرسيها ، وقد ضبطت نفسها بسرعة
غريبة وتلبست بملابس الدعة واللطف فقالت :

ماذا أصابك يا ابنتي ، ابلغ منك التعب إلى هذا الحد ، أم فقدت تلك
الهمة وتلك البسالة النادرة التي كنت أعهداها فيك .

اعترفي لي بكل دخائلك يا اليس فانت تعلمين إنني أحبك وأغفر لك
بعض زلاتك .

فوقفت اليس موقف الحائرة بين الخوف من عقاب كاترين إذا باحت لها
بأمرها ، والرجاء بأن تحملها الشفقة أو السياسة على اعفائها من تلك المهمة .

وعادت كاترين إلى اغوائها فقالت لها بلهجة المشفق الحنون : اعترفي لي
بكل شيء يا اليس ، فاني أرى التعب بادياً عليك ، وانما عهدت اليك بهذه
لمهمة وأنا أنوي نية صادقة أن تكون آخر أعمالك فتعيشين بعدها عيشة هنيئة
راضية مغمورة بنعم الملكة والملك .

على إنك إذا كنت لا تستطيعين قضاءها وأردت الراحة منذ الآن فلا أدخل
بشيء من وعودي وأمنحك كل ما وعدتك به من قصر ومسال ومهر وراتب
فإني أقدر غيرتك حق قدرها ولا أريد لك إلا الخير .

وكانت اليس تتمعن في كلام الملكة ولهجتها فلا تستشف منه غير الصدق ،

فخدعت بزخارف كلامها وقالت لها بلهجة المتوسل : التمس من جلالتك أن
تأذن لي .

- بماذا تريدن ان أأذن لك يا ابنتي ؟ تكلمي بجلاء .

فأجابتها بصوت يرتجف : إن تعبي فوق ما تتصورين يا سيدي ، وقد
وددت إرضاء جلالتك حين أمرتني باغواء ذلك الرجل ، لاسيما وقد كنت واثقة
إنها آخر أعماله ، ولكنك حين عينت الرجل ورأيت ان المهمة قد تقرر
شعرت بأن تعبي قد استفحل وكان ما رأيت من ضعفه .

- إذألم يكن الرجل الذي أترك هذا التأثير ؟

- ولكني لا أعرف هذا الرجل بل اني نسيت اسمه .

وقد قالت هذا القول باضطراب ظاهر يكفي الملكة للاستدلال به على
كذبتها لو كانت في حاجة إلى دليل .

ثم مضت في حديثها فقالت : كلا يا سيدي ، ليس اسم هذا الرجل الذي
الذي ، فقد قلت اني لا أعرفه ، ولكن التعب انك قواي وهد حيلي بحيث
بت في أشد حاجة إلى الراحة .

وقد غمرتني جلالة الملكة باحسانها ، فأنا غنية بالمال والأرض والجواهر ،
وقد نلت من مكارمها فوق ما أرجوه ، ولكنني بت أثر الراحة على كل غنى
وأرد لو كنت فقيرة معدمة على أن أكون مطلقة للقياد أسافر وأعود وأضحك
وأبكي كما أريد ولا سيما البكاء .

وهنا شقت الفتاة بالبكاء فتظاهرت كاترين بالشفقة وقالت : مسكينة هذه
الفتاة فقد أنهكتها تعباً وفاقته في حاجة إلى الراحة .

فركعت الجاسوسة أمامها وقالت : هو ذاك ابنتها الملكة العظيمة ، فلا
أحتاج إلا إلى الراحة .. إشفقي علي يا سيدي ، فقد خدمتك بملء الوفاء
والاخلاص .

- إنهي ، فإنه يسوءني أن أراك راكعة أمامي ، تتكلمين بلهجة

المتوسل ، أو لهجة ... المذنب ، انت تريدان الانقطاع عن العمل ،
اليس كذلك ؟

... إذا أذنت لي جلالة الملكة بذلك قلدتني نعمة لا أنساها مدى الحياة :

فابتسمت وقالت : إذا لا تريدان قضاء هذه المهمة وهي آخر مهمة كما

قلت لك يا اليس .

- يظهر ان جلالة الملكة لم تعلم حقيقة عذري .

- إنها آخر مهمة يا اليس .

- سيدتي اشفقي علي .

- لقد قلت لك يا اليس إنها آخر مهمة .. اصغي الي ، اني أعطيك هدية

لا تقدر بثمن وهي كائنة في أسفل هذا الصندوق ، وان هذه الآلى التي

رأيتها لا تذكر بازائها .

- سيدتي أتوسل اليك .

- دعيني أظهر لك هذه الجوهرة المكنونة التي لا تعادلها عندك جواهر

الأرض .

ثم أخذت الملكة الصندوق ففتحته وأخرجت كل ما فيه وأزاحت غطاء

مخلياً كان في أسفله وقالت لأليس : انظري الآن .

فنظرت اليس نظرة تدل على عدم الاكتراث ولكنها ما لبثت ان رأت

ما عرضته الملكة عليها حتى تقدمت خطوتين وقد امتقع لون وجهها وبسطت

يديها وقالت .. الرسالة .. رسالتي .

فأسرعت الملكة إلى أخذ تلك الرسالة وخبأتها في صدرها وقالت لها :

- نعم إنها الرسالة التي كتبتها يدك .. أتعلمين ما يكون عقاب الأم إذا

قتلت ولدها واعترفت بالجريمة ؟

- إن الكتاب زور فإن ولدي حي لم يميت .

- وكذلك إقرارك بالقتل فإنه موجود .. إن قاتلة ولدها يا اليس يحكم

عليها بالقتل .

- رحماك يا سيدتي واشفقي علي فإن الولد لا يزال في قيد الحياة

- ولكن امه مذنبه معترفة إنها قاتلة فهي ستدفع إلى يد الجلاد .

- رحماك .. رحماك !

- لا سبيل إلى الرحمة وأنت مخيرة بين أمرين ، فإما تمتثلين لما أريد ، أو

أقضي عليك القضاء المبرم بهذا الكتاب .

- سيدتي .. لا أستطيع .. أقسم بالله اني لا أستطيع الامتثال .

فقرعت الملكة مفضبة جرساً أمامها فأمرعت اليها الخادمة فقالت لها :

أين المسيو نانسي رئيس الحراس ؟

- انه عند جلالة الملك .

- قولي له ان يحضر الي .

فركعت اليس وجعلت تبكي وتقول : رحماك يا سيدتي ، والملكة منشغلة

عن توسلها وهي تسير في الغرفة وعلائم الغضب بادية بين عينيها .

إلى أن أقبل رئيس حراسها فوقفت الملكة وقالت له : اصغ الي يا

مسيو نانسي .

وفي الوقت نفسه وقفت اليس وقالت للملكة قبل ان يخرج الحكم من

شفتيها : سيدتي اني امتثل .

فأتمت كاترين حديثها مع نانسي كأنها لم تسمع ما قالته اليس وقالت :

أتعرف يا مسيو نانسي السيدة اليس دي ليكس ؟

- نعم يا سيدتي .

- إذا فاعلم انها قد تحتاج في هذه الأيام اليك وإلى رجالك فامتثل لأوامرها

وسر سمها إلى حيث تريد واقبض على كل رجل تسألك القبض عليه ، فاذهب

الآن ولا تنس هذه الأوامر .

فانحنى رئيس الحراس دون ان يظهر عليه شيء من علائم الدهشة لكثرة

قرنه على هذه الخدع .
فلما انصرف قالت لأليس : اعزمت عزمًا أكيداً على الامتثال ؟

فأجابتها تلك المنكودة بصوت خافت : نعم يا سيدتي .

- وستحتالين على الاتصال بالكونت دي ماريلياك ؟

- نعم ...

- إذا اعلمني الآن انك إذا خدعتني او خطرت لك خيانتني في بال لا أعاقبك بتسليم هذا الكتاب الى القاضي ، بل بتسليمه إلى سواه واضيف اليه تاريخ حياتك .

- الى من تسلمينه يا سيدتي ؟

- الى الكونت دي ماريلياك .

فصاحت اليبس صيحة ذعر ، وسقطت عند قدمي الملكة مغمياً عليها

لا تعمي .

وحده قاضيه متندي اليلاس

مقابلة

تقدم لنا القول في بدء الفصل السابق ان تلك الحوادث التي جرت فيه ، قد حدثت في صباح اليوم الذي خرج فيه بارداليان من سجن الباستيل .

وقد عرف القراء كيف ان بارداليان كان قد عول على أن لا يكسرت

للويزا وأمها .

وان لا يوصل ذلك الكتاب الى فرنسوا مونغورانسي ، وكيف انه خرج من فندقه على هذه النية ، فوجد نفسه قرب بيت مونغورانسي وشعر ان يبدأ خفية تدفعه الى ذلك القصر .

وقد ذهب الى بابه وطرقه مغضباً حانقاً ، وكان غضبه على نفسه وهو

لا يعلم .

وبعد هنيهة فتح له جندي من جنود المارشال وهو رجل عظيم الجسم هائل الخلق فسأل بارداليان عما يريد .

وكان بارداليان قد اشتد غضبه لتأخرهم في فتح الباب فبدأ الحديث مع الجندي بالحدة وأفضت الحدة إلى الخصام والضرب فكان الفوز لبارداليان وجرح خصمه في أنفه جرحاً أسال دمه .

وبعد هذا الخصام عقد الصلح بينهما وعرف بارداليان ان المارشال غير مقيم في القصر وانه قد يعود اليه غداً وقد يتأخر اسبوعاً .

فاستاء لهذا الاتفاق وطلب إلى الجندي أن يخبر الأميرال حين عودته انه جاءه في أمر خطير خاص به وحده وانه سيعود اليه .

ثم تركه وانصرف الى جهة نهر السين فأقام هناك فوق صخر يتأمل في حياته ويسترسل في فلسفة الحياة شأن العشاق . الى ان استقر على هذه الحقيقة ، وهي انه كان كاذباً في كل ما ظنه من عدم مبالاته بلويزا وانه يحبها حباً أكيداً لا سبيل الى الرجعة فيه ولكنه حب من غير رجاء .

ثم جعل يقول في نفسه : نعم لا رجاء لي في حبها ، ولا صبر لي في هواها فأنا شقي في الحالين .

ولا ريب عندي اني إذا أنقذتها بحيلتي أو بحسامي قال المكافأة سواي ، فان من كانت من اسرة مونغورانسي لا تحب فقيراً خاملاً مثلي .

ومع هذا فاني لا أطيق التخلي عن انقاذها فلا بد لي من البحث عنها ،
وعند ذلك اقول لها .. كلا . لا اقول لها شيئاً .. فلأجدها اولاً ثم
نرى ما يكون ؟

وقد استنتج من كل هذا ، انه فقد لويزا في الحالتين ، فهو اما ان ينقذها
ولا يطعم في زواجها ، واما ان ينقذها فلا يراها ، ولكنه رأى انه لا بد له
من انقاذها ، اذ لا يطيب له عيش وهي في الأسر فعول على البحث عنها دون
أن يطعم بمكافأة على الاطلاق ، مكتفياً بأن تكون سعيدة وان كان هو
شقيماً في هواها .

ولما أقر على هذا الفكر قام من مكانه ، وكان الظلام قد هجم وسار عائداً
إلى الفندق الذي يقيم فيه ، فكان يسير الهويناء وهو مطرق مفكر حتى وصل
إلى شارع سانت دينيس فشمع ان رجلاً يركض وراءه .

ولكنه لم يتدان الى الالتفات وظل سائراً غير مكترث إلى ان شعر
بصدمة عنيفة

فان هذا الرجل الراكض قد ارتطم به وصدمة صدمة شديدة سقط بعدها
على الأرض بعيداً عن بارداليان .

وكان بارداليان قد سقط من الصدمة ايضاً ، فنهض وجرد حسامه وهم
بقتل الذي صدمه ، ولكنه جمد في مكانه مندهشاً مأخوذاً ، لأنه سمع صوت
هذا الرجل يشتم شتماً خاصاً ، وقد نهض من سقطته بعد تلك الشتائم واستمر
في الركض .

أما بارداليان فقد كانت دهشته من هذا الصوت عظيمة لأنه ظن انه
صوت أبيه ، لاسيما وقد كان الشتم خاصاً به .

فلم يكذب يثوب من دهشته حتى جعل يركض في أثر الرجل ، ولكن بعد
فوات الأوان ، فان الرجل كان قد سبقه بمراحل وتوارى عنه في شارع سانت
دينيس .

وعاد بارداليان الى الفندق فسأل إذا كان قد قدم اليه أحد منذ حين
وجيز ، فأجابوه سلباً ، فعلم انه كان مخطئاً إذ لو كان الرجل أباه لتقدمه
الى الفندق .

وبعد ان تعشى خرج من الفندق وذهب الى قصر الأميرال كوليني ففرع
الباب ثلاث مرات متوالية كما اوصاه ديودات .

ففتح الرجاج (وهو الكوة الصغيرة في وسط الباب الكبير) ، واطل
منه رجل فقال له : من أنت ؟

فذكر له بارداليان كلمة المرور التي لقنه إياها ديودات .

ففتح الباب عند ذلك وقال له حارسه : من تريد ؟

- أريد أن أرى صديقي ديودات .

- أسألك الممذرة يا سيدي فهل تتفضل علي بذكر اسمك ؟

- اني أدعى الشفالييه دي بارداليان .

فهم الرجل اليه وترحب به ثم قال له : أهلاً بك من قادم فاني شديد
الشوق الى التعرف بك .

- من أنت يا سيدي ؟

- انك لا تعرفني ، ولكنك تعرفني بالاسم فيما اظن ، فاني أدعى
تاليني .

وحده قاضييه منتدى ليليس

الهوكينوت

كان تاليني هذا صهر الأميرال كوليني وهو في الثلاثين من عمره جميل الطلعة شديد البنية حلو الحديث ، وقد كان فوق ذلك من الأبطال المحررين

فلما دخل بارداليان أقفل الباب الكبير ودفع المفتاح الى حارسه فقال له : اننا لا ننتظر بعد الآن غير رجل واحد لا يمكن ان تنخدع به لأنك تعرفه .

ثم صعد مع بارداليان سلماً من الحجر وأدخله الى غرفة وهو يقول : اني توليت الليلة الحراسة بنفسي لأننا عاقدون اجتماعاً وقد حضر الأميرال ودي كوندية وجمالة ملك النافار .

فلم يستغرب بارداليان ما أبدوه من الثقة به ، ولكنه كان يقول في نفسه : ترى أحضر مؤامرة الهوكينوت بعد ان حضرت مؤامرة دي كيز .

ولما أدخله تاليني الى الغرفة عانقه وضمه الى صدره بتودد عظيم وهو يقول مرحباً بالبطل الذي انقذ ملكتنا العظيمة . انك يا سيدي الشفالييه قد صنعت خير ما يصنعه انسان لاسيما وانت على غير مذهبنا ، فبات كل منا مديناً لك بما صنعت يود ان يراك فيشكرك .

فقال له بارداليان : الحق يا سيدي اني حين انقذت ملكتكم لم اكن اعلم انها من الملكات .

واني أسألك المعذرة ، لقد أتيت لشأن خطير عندي ، ملتمساً فيه مساعدة صديقي ديودات ، فقد تفضل بوعدي بالمساعدة حين احتاج اليه .

- بل كلنا نبذل أنفسنا في سبيل مساعدتك ، وأما الكونت دي ماريلياك ...

- الكونت دي ماريلياك ؟

- نعم ، فهذا اسم صديقك ديودات الحقيقي ، وهو منذ عرفك لا يحلف إلا باسمك .

- أهو هنا الليلة ؟

- نعم وسأخبره بقدمك .

وعندها نادى تاليني خادماً وأصدر اليه أمراً .

فامتثل الخادم ، ولاحظ بارداليان انه كان مسلحاً مثل تاليني ، كأنما هؤلاء الهوكينوت كانوا محاصرين في قلعة ، او أنهم قادمون على حرب .

وبعد هنيهة أقبل ديودات فسر سروراً عظيماً حين رأى بارداليان وقال له : أهلاً بالصديق الحبيب فانك ما أتيتني إلا وأنت في حاجة إلي فقل أيها الصديق اني مستعد لسفك دمي في سبيلك .

فتأثر بارداليان لمروءة صديقه وقال : الحق اني لا أعلم كيف أشكرك أيها الصديق .

- أتشكرني أيها الحبيب وأنا أحق بشكرك بل نحن جميعنا مدينون لك بافقاد ملكتنا .

وعندها تركهما تاليني مختليين وانصرف .

فاستأنف ديودات الحديث فقال : بل انا المدين لك خاصة أيها الصديق فقد جئت إلى باريس قانطاً كئيباً فأقمت ساعة معك أزاحت عني الكآبة وفرجت

عن نفسي المموم .

“ يسرني ان أرى ثغرك يبسم وعينيك تضحكان على نقيض ما رأيتك اول مرة ، فهل حدث ما دعى الى هذا التفريغ ؟

- بل حدث لي ما أدعوه سعادة ونعيماً ، وهو ليس من الأمرار التي أحب كتابها عن إخواني لأن ثقتي بهم عظيمة ولكنهم لا يدركون كنهه فأحببت ان أبوح لك به دون سواك .

فابتسم بارداليان وقال : أتظن إني انا أفهمه .

- لا أظن بل أثق فاعلم إذا اني من العاشقين .

فتنهذ بارداليان ولم يجب .

وأتم ديودات حديثه فقال : بليت بالحب منذ عام ، فملكني يجملي كما سيملكك يوماً من الأيام ، ولا بد للقلوب النقية كقلبك ان تنفذ اليها أشعة الفرام .

أما أنا فقد بلغ الحب مني مبلغاً لا يبلغه من قلب إنسان ، فما تمثلت لي الحياة إلا بن أحببت ، فاذا اضطررت إلى الرجوع عنها رجعت من غير عقل ، وإذا علمت يوماً إنها خدعتني ..

- ماذا تعمل ؟

- أموت ... ولهذا قلت لك إني تفاءلت خيراً بعشرتك وارجو ان تفتح لي صحتك أبواب السعادة لأنني حين جئت إلى باريس كنت معتقداً اني مفارقها فراقاً طويلاً وربما كان فراق الأبد .

وكنت قد تلقيت أوامر تقضي علي بالذهاب الى سانت جرمن حيث كانت ملكة النافار ، فمهدت إلي بمهمات كثيرة ، أخصها ان أذهب اليك لأشكرك بالنيابة عنها .

فلما كنت قادماً اليك لقيت من أحب في فندق قرب باريس ، وهي حكاية طويلة سأقصها عليك في غير هذا المقام ، فاعلم الآن اني اتفقت وإياها

على اللقاء مرتين في الأسبوع ، إلى أن تتيسر لي العودة إلى بيران والزواج بها . فهي الآن خطيبتي وهي وحيدة في هذا الوجود وسأبقى أخواها إلى أن أغدو زوجها .

- وانت فاعلم ايها الصديق إني عاشق مثلك ايضاً .

- ما هذا الهناء اننا سنعقد إذا زواجنا في يوم واحد .

- إني أحب كما تحب ايها الصديق أي ان غرامي يشبه غرامك بشدته ، ولكن الفرق بيني وبينك انك ترى خطيبتك مرتين في الأسبوع ، وأنا لم أكلها كلمة الى الآن .

وأنت واثق من انها تحبك ، وأنا أخشى ان تكون تكرهني . وأنت تعرف ان تقيم حبيبتك ، وأما التي أحبها فقد اختطفت ولا أعرف أين هي .

وهذا الذي يشغلني الآن ، فاني أريد البحث عنها ، ولو كنت واثقاً من أنها تجازيني بالكراه ، ولأجل ذلك ، أتيتك ملتمساً مساعدتك .

- إذا اعتمد علي أيها الصديق لأننا سنبحث في كل أنحاء باريس . فهل لك أن تذكر لي ما تعرفه من حوادث هذا الاختفاء .

فروى له بارداليان جميع ما اتفق له ، من بدء تولعه بلويزا إلى يوم خروجه من السجن ، وكيف ان لويزا استغاثت به في ساعة القبض عليه ، وكيف عهدت اليه أمها بإيصال الكتاب الى صاحبه ، إلى غير ذلك مما عرفه القراء ، ولم يكتم عنه غير اسم مونغورانسي على ان يذكره له حين يبدأ معه بالبحث .

وقد ختم حكايته بقوله : أرى انه يجب أن نبدأ تفتيشنا بضواحي سجن التامبل ، فان الذي أشكك بأنه اختطفها ، مقيم في تلك الجهات .

- ليكن ما تريد فمتى تحب ان تبدأ .
- غداً .

- وسأكون منذ الغد طوعاً لك في كل ما تريد . والآن تعال معي لأعرفك
بأولئك الذين يتوقون إلى معرفتك .
- من هم ؟

- ملك النافار والبرنس دي كونديه والأميرال ... تعال أيها الصديق
لأنك لا تجد بينهم غير المعجب بك ، لا سيما بعد أن أخبرهم بحادثة فرارك
من الباستيل .

فامتثل بارداليان وسار مع صديقه إلى القاعة الكبرى ووجد خمسة رجال
مجتمعين حول مائدة ما عرف منهم غير قالييني والأميرال كوليني .

فأخذ ديودات بارداليان بيده ودنا من المائدة فقال : يا صاحب الجلالة ويا
سمو البرنس ويا سيدي الأميرال أتشرف بأن أقدم لكم الشفالييه دي بارداليان
منقذ ملكة النافار .

فنظر الجميع إليه نظرة إعجاب ومد الأميرال يده إلى بارداليان وقال له :
أرجوك أيها الشفالييه ان تصافح هذه اليد التي تمد اليك ، فقد كنت قوياً
كشمشوم وشجاعاً كداوود .

ثم مد له الملك يده قائلاً : وأنا أيضاً ، أود أن أصافح تلك اليد التي
أذقت أمني .

فركع بارداليان أمام الملك ، حسب العادة في ذلك العهد ، وقبل
يد هنري ملك النافار ، ذلك الذي صار ملكاً لفرنسا ، باسم هنري
الرابع .

ثم صافحه بعد ذلك البرنس هنري دي كونديه ، وقال له : لقد
روت لنا جلالة الملكة عن بسالتك ، ما دلنا انك من أبطال ذلك العهد
القديم . وقد كان الأبطال ، في ذلك العهد ، يتعانقون حين يلتقون

فلنقتد بهم .

فأجابه بارداليان : إني أقبل هذا اللقب لاتصاله إلي من لويس دي
بوربون ، ابن ذاك البطل الذي مات في المعركة ، فكان فخر المعارك ،
وحلية التاريخ .

فسر البرنس بهذا الشناء على أبيه وقال له : أنت ذكي الفؤاد أيها الشفالييه
كما أنت قوي الساعد .

ثم تقدم القائد أندلوت فقال له : إذا كانت صداقة مثلي تفيدك أيها الباسل
فأنا من الأصدقاء .

فأجابه بارداليان : أنت منخدع يا سيدي بعرض الصداقة وانت تريد أن
تعرض علي مثال بسالتك لأنهم مناهجك .

فقال له الملك : إني شديد الإعجاب بك أيها الشفالييه ، وإذا كنت
ترى قائدنا أندلوت مثلاً يتبع ، فقد اتبعنا هذا المثل ، وتلقينا دروسنا
من هذا البطل .

فاحمر وجه القائد الشيخ سروراً وقال : مولاي ...

فأجابه الملك قائلاً : إني أعرف ما أقول وإذا كنت لم تعين مارشالاً بعد
فما ذاك ذنبي ولكن ستبلغ ما تستحقه فتعين أمير الجيوش كما يعين ابن عمي دي
كونديه القائد العام والأميرال رئيس الوزارة وقالييني قائد الفرسان ودي ماريلياك
رئيس رجال البلاط .

نعم . اني أريد ان يجازي كل مخلص لي بما يستحق من حسن الجزاء ولا
أريد ان أرى حولي غير شفاء باسمه وعيون ضاحكة .

فصبراً أيها الأبطال ، ولا يعقب المطر غير الصحو ، ودعوني أكبر ،
وسوف ترون .

فضحك الجميع كأنهم يريدون بهذا الضحك إرضاء الملك
وسر الملك لضحكهم وقال : هذا الذي أتمنى أن أراه بين الذين

يحيطون بي .

ثم التفت الى بارداليان وقال له : ماذا تقول بمملكة يضحك جميع أبنائها هذا الضحك .

فأجابه بارداليان : إن هذه المملكة يا مولاي يكون ملكها من النوابغ .

فأثنى الملك عليه لجوابه وقال له : ان ملكاً يريد أن يجعل رعيته سعداء لا يقتضي ان يكون نابغة ويكفيه ان يريد ذلك .

ثم نظر الى بارداليان نظرة رضى ، كأنه يبحث في أن يضمه الى حاشيته .

وعندها فتح الباب ودخل خادم مدجج بالسلاح فسار إلى الأميرال كوليني وكلمه همساً .

ورقف الأميرال وقال بلهجة شفت عن سروره مخاطباً الملك :

- مولاي ان المارشال دي مونمورانسي أجاب دعوتي وهو الآن في قاعة الانتظار .

فبرقت عيننا الملك ببارق من الرجاء ، ولكن هذا البارق ما لبث أن انطفأ ، وعادت اليه سكينته العادية وقال : اني سعيد برؤية هذا العزيز فرنسوا فليدخل . وأنت يا ابن عمي إبق معي لأنني احب ان تحضر هذه المقابلة .

فنهض الجميع عندها بغية الخروج من القاعة .

وانتبه ديودات إلى صديقه بارداليان فقال له : بماذا تفتكر أيها الصديق ؟ فارتعش بارداليان كمن صحا من حلم مزعج لأن اسم فرنسوا مونمورانسي قد كهر به فاعتذر لصديقه ثم انحنى أمام الملك .

ومد له يده مرة ثانية وقال له : لقد أخبرني الكونت دي ماريلياك أنك تؤثر الاستقلال ولكني أرجو مع ذلك أن لا يكون هذا اللقاء آخر لقاء وأرد لو كنت منا .

فأجابه بارداليان قائلاً : أسأل مولاي المعذرة ، فلا أجد ميلاً الى الحروب الدينية ، لأن أبي أهمل تعليمي علوم الدين ، فصرت كأني من غير دين .

على أنني أسفك دمي في خدمة مولاي الخاصة ، إذا كان سفك دمي يفيد مولاي الملك .

- حسناً . سنعود الى هذه الأبحاث في فرصة أخرى .

وعندها خرج بارداليان وديودات وجميع من في القاعة ، فقال ديودات لبارداليان : ماذا أصابك أيها الصديق ، وما هذا الاصفرار الذي اعتراك ؟

- أهو المارشال دي مونمورانسي الذي جاء لمقابلة الملك ؟ - هو نفسه .

- إنه فرنسوا دي مونمورانسي اليس كذلك ؟

فذهل ديودات لتكرار سؤاله ، وقال له : انه هو بعينه ، فلماذا هذا السؤال ؟

- إذا فاعلم أيها الصديق أن هذا المارشال هو والد الفتاة التي أحبها ، ويجب أن أعطيه رسالة إمرأته التي أخبرتك بها ، وهي معي الآن تكاد تلهب صدري . فإذا لم أعطه إياها كنت خائناً سافلاً ونزعت من لويزا ما تطمع به من الحماية ، وإذا أعطيته إياها كرهني وفقدت لويزا الى الأبد .

وحده قاضيه متندي ليلاس

بصيفة أخرى فانه كان دائم الذكرى لها لا يفتر لحظة عن التفكير بها ولكنه لا يذكرها ولا يفكر بها إلا ليلعتها .

وقد خطر له مراراً أن يبحث عنها ويراسها ، ولكنه كان يغالب هذه الرغبة حتى يغلبها ، فاذا خشي أن تغلبه شغل نفسه بالحرب او بالمهمات السياسية بغية النسيان ، ولكنه لم ينسى ، فان خيال حنة كان ممثلاً له في كل سبيل .

ولم يخطر أخوه هنري في باله إلا نادراً ، وليس لأنه غفر له زلته بل لأنه حاول أن ينسأه فنسيه خلافاً لحنة ، أنه لم يستطيع نسيانها .

فهو لم يظمع بشيء من ملاذ الحياة وانما تزوج ديانا دي فرانس اجابة لرغائب ابيه وفراراً من ظلمه فقد كان من العتاة .

وفوق ذلك فقد كان يرجو أن يميل إلى زوجته الجديدة وان يتصل من الميل إلى الحب فيخلص من عناء ذلك الحب القديم ولكنه وجد أن هذا الحب لا ينقذه منه غير الموت فلم تكن ديانا زوجته إلا بالأمم .

وقد خطر له يوماً ان يعرف تفاصيل تلك الجريمة التي كدرت صفو حياته فبرح باريس إلى حصن ابيه وهو يقول في نفسه اني لا أعرف من تفاصيل الجريمة سوى ان أخي اتهم امرأتي وان امرأتي لم تدفع التهمة فلا بد لي من التقيق للوقوف على كل هذه التفاصيل .

وسار مع حراسه حتى وصل إلى قمة أطل منها على حصن مونمورانسي ، فوجف قلبه واضطربت اعضاؤه وخشي أن يرى الحراس اضطرابه فامرهم أن يعودوا إلى باريس كي يبقى وحده في ذلك المكان .

وقد هاجت تلك المناظر تذكاراته القديمة فكان يرى حنة ممثلة في كل ما يقع نظره عليه في تلك الربوع التي أحب فيها الحب الأول .

ثم رأى البستان الكبير وهو بستان والد حنة الذي عقد فيه ذلك الغرام تحت اشجاره الغضة فلم يطق اجتيازه للبلوغ إلى الحصن ووقف مطرقاً حزيناً

فرنسوا دي مونمورانسي

ان هذا الرجل الذي جاء لمقابلة ملك النافار ، كان يظهر أنه في الأربعين من عمره ، وهو فرنسوا دي مونمورانسي ، زوج حنة ، ووالد لويزا .

وكان يستغرب الناظر اليه أن يرى فيه مخائل الشباب من نضارة وجهه وخفة حركاته ، ثم يرى دلائل الهرم في شعر رأسه ، وهو يتوهج شيباً كشعر الشيوخ .

غير أن الحزن كان بادياً عليه ، يدل على احتقاره الحياة ، أو بأسه من هوائها ، فقد تمثل له أن الحياة قد توقفت في ذلك اليوم الهائل الذي رجع فيه من الأسر ، وهو يحسب نفسه أسعد الناس بلقاء زوجته ، فأصيب بتلك النكبة الهائلة ، التي جعلت حياته ان هذا اليوم ، حملاً ثقيلاً عليه .

وقد كان مثله مثل ذلك المسافر يعود بعد سفر طويل فيجد بيته قد احترق وشمل عائلته قد تبدد .

وكان فرنسوا مونمورانسي من أهل الوفاء والاخلاص ولكنه لا يحب قلبه غير مرة واحدة في العمر .

وقد كان وهب هذا القلب لامرأته حنة ولا يزال قلبه لها ولكن الهبة كانت

والدمع يسيل من عينيه ، ثم أقفل عائداً الى باريس .

وكان ذلك آخر عمده بتلك الربوع فلم تعد تخطر زيارتها في باله .
انما كان يحاول زيارة الحصن والتحقيق في الجريمة لأن قلبه كان يحدته ببراءة زوجته ولولا سكوتها الصريح حين كان يتهمها أخوه بالخيانة امامها لما صدق شيئاً ولكن سكوتها كان اعترافاً بيناً . وكيف يمكن أن تخطر له حيلة أخيه وهو لا يعلم أن امرأته ولدت بنتاً في غيابه .

وكأنما الأقدار كانت تساعد على تأييد براءة حنة فإنه في سنة ١٥٦٧ حدثت معركة بين الهوكينوت والكاثوليك في سانت دانيس ، كان النصر فيها للهوكينوت .

وكان امير الجيوش والد فرنسوا يحارب في طليعة فرسانه فاصيب بجرح قاتل في ذلك اليوم .

وبعد المعركة حملوا الجريح إلى قصر مسيم وهو قصر ولده هنري .

وكان هنري غائباً عن باريس في ذلك اليوم ، فلما اتصل الخبر بفرنسوا اسرع ليرى اياه ولم يكن رآه منذ ثلاثة اعوام .
وانما ذهب بعد ما وثق ان اخاه مسافر ، فوجد اياه مشرفاً على الموت والكاهن يصلي والحسم راكعون يبكون .

فلما رأى الشيخ ولده البكر ظهرت عليه علائم السرور فامر الخدم بالخروج وفرغ الكاهن من صلاته وانصرف وبقي فرنسوا امام ابيه ونفسه يحسج في صدره فلا يخرج كلامه إلا متقطعاً .

فنظر الشيخ نظرة حنو إلى ولده وقال له أن المرء متى اشرف على الموت يرى الأمور على غير ما كان يراها في حال العافية ، فاجبني الآن بجلاء ، هل أنت سعيد ؟

قال اطمئن يا ابي فاني سعيد بقدر ما أذن لي أن أسعد في هذه الحياة .
- وأخوك ألا تسأله .

فارتعش فرنسوا وأجاب بصوت أجش : كلا !

- ربما كان ذنبه يا بني أخف مما تظن .

فهز فرنسوا رأسه دون أن يجيب .

فقال له أبوه : والمرأة الصبية ماذا جرى لها ؟

- من تعني بها يا أبي .

- إبنة .. السيد دي بيانس .. اواه يا فرنسوا إني أموت ..

- إطمئن يا أبي علي ، لقد نسيت الماضي ..

- فرنسوا ... أقول لك ... إسمع ... يجب أن ترى هذه المرأة و ..

وهنا تلجلج لسان الشيخ ، فلم يستطع إتمام جملته وبدأ دور النزاع فجعل يتمتم بكلمات غير مفهومة وأسلم الروح .

وعلى هذا فقد بقي سر حنة مدفوناً بصدر الشيخ ، ولم يعلم فرنسوا السبب في إلحاحه كي يرى حنة .



بعد إنتهاء تلك المعركة وبعد دفن أمير الجيوش عرضت الملكة كاترين على فرنسوا قيادة حملة على الهوكينوت فأبى وقال : انه لا يعتبر الهوكينوت أعداء يجب قتالهم .

فارتابت كاترين في أمره وعهدت إلى اليس دي ليكس إغواءه واصطيادته بجبائل غرامها بغية الوقوف على أسرارها .

وقد عرف القراء كيف ان اليس حبطت باستغواء هذا القلب ، وفوق ذلك فإن فرنسوا لم يكن يكتفم أسراراً ، وإنما أراد اعتزال مقاتلة الهوكينوت فإنه لم يكن يندفع فيها إلا بأوامر أبيه .

وقد كان تألف حزب من الذين أنفوا إراقة الدماء باسم الدين وجنحوا إلى السلاح ، فدعي حزب السيامة ، فعين فرنسوا رئيساً له ولم يقبل هذه

لا يوجد رجل شريف يخونكم بفضيحة هذا السر .
فابتسم هنري إبتسام المشكك وقال : اني لا أرى رأيك في هذا ، أهـ
المرشال .

بل أقول لك ، انت الوحيد الذي وثقت به ودعوته الي وأنا واثق بأن
أنام الليلة مطمئناً .

فانحنى المرشال دون أن يجيب .
ومضى هنري في حديثه فقال : ولي برهان آخر على حسن ثقتي بك وهو
اني سأخبرك بحقيقة ما ربي من القدوم إلى باريس .

فنظر الأميرال والبرنس دي كونديه نظرة انذهال إلى الملك .
ولكنه تظاهر انه لم ير شيئاً ، فأمم حديثه وقال :

- أعلم يا حضرة المرشال اني قدمت إلى باريس بغية اختطاف شارل
التاسع ملك فرنسا ، فماذا تقول بهذا الرأي ؟

فاصفر وجه الأميرال وقطب البرنس حاجبيه ولم يظهر فرنسوا شيئاً من
علائم الانذهال ، بل أجاب بملء السكينة قائلاً .

- أتريد جلالتم يا مولاي أن تسألني عن إمكان حدوث الاختطاف أم
عن نتائجه في حالتي الفوز والفسل ؟

- سنتكلم عن هذا .. وأما الآن ، فأحب أن أعرف رأيك بشأن
هذا المشروع نفسه ، الذي لم يعد بد منه ، فهل انت معنا أم علينا ، أم
تلزم الحياد ؟

- إن كل هذا يتعلق بما عساك ان تصنعه بملك فرنسا ، فإني لا أمدحه
ولا أذمه ، ولكنه ملكي ويجب علي ان أساعده في كل حال ، وأي شريف لا
يعين ملكه في ساعة الخطر .. فإذا كنتم تريدون نزع العرش من الأسرة
الملكة والاستئثار به أكون عليكم ، وإذا أردتم باختطاف الملك ان تجعلوه
رهينة لتنالوا حرية مذهبكم الزم الحياد ، وفي الحالتين لا أساعدكم على هذا

الرئاسة إلا لخدمة السلم المجرده .
ولأجل هذا ، زاره يوماً الكونت دي ماريلياك ، أي ديودات ،
بدعوة من ملكة النافار ، تسأله فيها مقابلة ولدها هنري فوعده فرنسوا
بتلبية الدعوة .

وكان ملك النافار قد جاء سراً إلى باريس مع البرنس دي كونديه ،
وكوليني وعين يوماً لمقابلة فرنسوا .

وفي الساعة المعينة جاء فرنسوا كما رأيناه ، وقد عرف القراء ما كان من
تأثير ذكر اسمه أمام بارداليان .

ولندع الآن بارداليان مع ديودات يباحثه بشأن فرنسوا ، ونتبع فرنسوا
إلى قاعة ملك النافار .

ولما دخل استقبله الملك باسمًا وقال له : السلام على المدافع الشهير عن
تيرنوان .

فأثرت هذه الجملة تأثيراً عظيماً في فرنسوا ، ولا ندري أكان ذلك لأنه
كان يفتخر حقيقة بحسن صبره في هذا الحصار ، أم لأنه كان يحسب نفسه
في ذلك العهد أسعد إنسان بغرامه .

فانحنى أمام الملك الفتى وقال له : مولاي إنك دعوتني للمباحثة في حالة
الأحزاب الدينية العمومية ، وأنا أنتظر أن توضحوا لي نياتكم فأجيب جلالتم
بملء الحرية والجلء .

وكان الملك كثير الحيلة والدهاء فلم يجد سبيلاً إلى الحيلة بعدما سمع من
جواب المرشال الجلي فقد كان يتوقع منه الابهام والالتباس .

ودعاه إلى الجلوس وصمت هنيهة ثم قال له : إني لا أذكر لك شيئاً من ثقتي
بك واحترامي إياك فإن وجودك هنا خير دليل على هذه الثقة لا سيما وأنه

لا يوجد في باريس من يعلم بقدومي إليها سواك .
- إنك تشرقني يا مولاي بهذه الثقة ، ولكنني أتجاسر بالقول لجلالتكم انه

الاختطاف ..
- يسرني أيها المارشال ان أسمع هذا التصريح بهذا الجلاء ، وأنا مجيبك

بمثله فاسمع ..
إننا نريد اختطاف الملك شارل لأننا واثقون من أن أمه الملكة تتأهب
لحروب جديدة ، ولا قبل لنا بهذه الحروب ، فقد نفذ ما لدينا من المال ،
وقل من عندنا من الرجال فلا نلقي بعد هذه الحروب الجائرة غير الخسران
والوبال ..

والذي أسمى اليه لا يلومني فيه عارف بنظام الحروب ، فلوزحف شارل
الي بطليعة جيشه ألا يحق لي أخذه أسيراً ؟

- هذا لا ريب فيه ، ولو كنت من اتباع جلالتمك بدلاً من أن أكون من
أتباع ملك فرنسا ، لكنت من أشد المتشيعين لهذا المشروع .

- لقد بقي إذاً أن تعلم ماذا نضع بملك فرنسا بعد القبض عليه .
- هو ذاك يا سيدي .

- أعلم أيها المارشال اني ابن انطوان دي بوربون ، حفيد روبرت سادس
أبناء لويس التاسع الملقب بالقدسي لويس ، فأنا أول أمير من السلالة الملكية
الفرنسية ، ولذلك فقد حق لي أن أتدخل في شؤون هذه المملكة ، وإذا
خطر لي يوماً ، أن تاج تلك المملكة قد يوضع على رأسي ، فلا أكون من
الطامعين ..

إن أسرة فالواتملك الآن بفضل الله ، وأنا أنتظر فضل الله لأعلم اذا
كان يحق لأسرة بوربون أن تملك بدورها وتتولى هذا العرش ، وهو من
أعظم العروش .
- مولاي اني لا أبحث في عدالة ما تقولونه بل أعيد ما قلته وهو أن
شارل التاسع ملكي ولا أكون ضده .

- لقد قلت لك جلياً اني أنتظر فضل الله ، ولا أسمى إلى مزاحمة ابن

عمي في عرشه فليملك هذا القريب العزيز بقدر ما يستطيع أن يملك من تكون
أمه كاترين دي مدسيس .

ولكني إذا كنت لا أريد بشارل شراً فلماذا يريد الأذية لي ... وما
هذا الاضطهاد الذي يضطهدون به الهوكينوت ، بعد أن عقدنا الصلح في
سانت جرمين .

وإذا كنت غير قادر على مقاومتهم بالقوة أينكر علي أن أقاومهم بالحيلة؟
اني أريد أن أتحدث مع ابن عمي شارل بملء السكينة ، كما أتحدث معك
الآن ، ألا ترى بعد هذا أننا مصيبون بعزمنا على اختطاف الملك ..

ومما لا ريب فيه إننا لا نسيء اليه أقل إساءة بل إننا ندع له الخيار في
قبول شروطنا أو رفضها .

وعلى الجملة فإني أريد أن أحادثه في خلوة دون أن يكون لأهل بلاطه
تأثير عليه ، فإذا كان هذا كل قصدي أستطيع الاعتماد عليك ؟

- بماذا ؟ أبالقبض على الملك ؟ اني أكلمك يا مولاي بجلاء كما كلمتني ، فاني
وحدني وأنتم كثيرون ، ومع هذا فاني أكلمك بملء الحرية إذ ليس لدي ما
أخشاه غير الموت .

فتقدم الأميرال خطوة منه وقال له : أيها المارشال إنك في منزلي وأنت
ضيضي .. قل ما تشاء فلا تسقط شعرة من رأسك عندي .

- اني أقول هذا القول ، وهو اني سأنسى ما تشرفت بسماحه من جلالتمك
واني سأبذل كل ما أستطيعه في حماية ملكي والدفاع عنه دون أن أنبهه إلى
ما عرفته منكم .

- وأنا احسد ابن عمي شارل لوجود امثالك بين اتباعه ، وأود لو كان كل
أعدائي مثلك .

- إن مولاي منخدع في الحالين فاني لست من أصدقاء الملك شارل ، بل
من خدام فرنسا ، وأما قولكم اني من أعداء جلالتمك فشهد الله اني أود ما

تودونه من معاملة الهوكينوت بالعدل والانصاف .

- اشكرك يا حضرة المارشال ، وعلى هذا لا يمكن ان اعتمد عليك وعلى اصحابك .

- كلا يا مولاي ، ولكنني اذا دعيت يوماً لحضور جلسة تعقد بينكم وبين ملك فرنسا ، انسى كيف اتفقت هذه المقابلة واعينكم في كل مطالبكم ، وأجاهر أمام ملكي اني أنا الكاثوليكي أخجل مما يفعله الكاثوليكيون مع الهوكينوت .

فاتقدت عيناه وقال : أتعمل هذا ؟

- بل أتعهد به .

- وأنا واثق بوفائك أيها المارشال وأرجو أن تعقد هذه الجلسة قريباً وان يدعوك شارل لحضورها . اذهب أيها الدوق فقد سرني انك لست من أعدائي .

- وأنا أؤكد اني من أصدق المخلصين لجلالتكم في كل شأن ما خلا بعض المشروعات .

ثم انحنى المارشال أمام الملك وانصرف يشيعه الأميرال .

وبينا هو يسير في الرواق يتقدمه خادمان من غير نور دنا منه رجلان ، فقال له احدهما اتأذن لي يا سيدي المارشال أن أقدم لكم أحد اصدقائي .

فعرف فرنسوا ان الذي يحدثه الكونت دي ماريلياك وقال له : ان اصدقاءك اصدقائي يا كونت .

- اذا أقدم لكم الشفالييه دي بارداليان فانه يرغب مقابلتكم في مهمة خطيرة .

فقال المارشال لبارداليان اني اكون غداً في قصري كل النهار واكون

سعيداً باستقبالك فيه

فأجابه بارداليان بصوت يضطرب التمس من سيدي المارشال ان يأذن لي بمقابلته الآن .

فأجفل فرنسوا لاضطراب صوته والحاحه بطلب المقابلة .

ودهش الأميرال ايضاً لهذا الاحاح ولكنه كان واثقاً من ان بارداليان لا يريد بالمارشال شراً .

وتداخل في الأمر وقال للمارشال : ان الشفالييه دي بارداليان يا سيدي ايسل واصدق رجل عرفته .

فقال فرنسوا لبارداليان : إن هذا الثناء وحده من فم الأميرال كاف لأن تكون من اصحابي ، فتعال أيها الصديق ما زال الأمر خطيراً لا يمكن إرجاءه إلى الغد .

فارتعش بارداليان لكلمة (صديق) فودع ديودات واسرع بالخروج مع فرنسوا ..

وسار الاثنان إلى قصر مونمورانسي ، وقد عجب فرنسوا كيف ان بارداليان لم يفه بكلمة وهما على الطريق .

حتى اذا وصلا إلى القصر ادخله فرنسوا إلى غرفة وذهب إلى غرفة ملابسه ليغير ملابسه الرسمية .

وهذه الغرفة التي كان فيها بارداليان هي نفس الغرفة التي وقعت فيها حنة على صك الطلاق .

ولكن فرنسوا لم يعلم شيئاً مما جرى فان أباه كتم عنه هذه الحادثة الفظيعة كل الكتمان فظل يعتقد ان امرأته مجرمة .

ولبت بارداليان وحده في الغرفة يمسح العرق المنصب من جبينه فقد حانت الساعة التي ينبغي فيها التصريح ، وهو التصريح الذي كان يرغب فيه بقدر ما يخشاه .

فان فرنسوا مونمورانسي سيعلم ان امرأته شريفة طاهرة ، وسيعلم ان له فتاة ، وسيعلم ان امرأته فدته بنفسها ، وانها ظلمت ظلماً لم يظلمه انسان وهو سيعلم كل هذا بفضل بارداليان ، كما سيعلم ان كل هذه النكبة كانت من بارداليان .

وقد ذعر حين تمثل له هذا الخاطر فجعل ينظر الى ما حواليه نظراً تأهلاً فاستقر نظره على صورة معلقة بالجدار .

وقد دهش حين رأى الصورة ودنا منها وهو يقول : لويزا لويزا . ثم وقف باهتاً بعد أن تمنع بالصورة وجعل يقول في نفسه : كيف ان المارشال لا يعلم ان له بنتاً ، وهو يضع رسم بنته في منزله ؟

وعاد الى التمعن بالصورة وهو معجب لهذا الاتفاق ، فعلم انها صورة الأم ، وانها كانت تشبه في حداتها بنتها لويزا هذا الشبه العجيب . وعندها ، عاد فرنسوا ورأى بارداليان واقفاً أمام الصورة يتأملها بامعان ، فمرت غمامة كثيفة على تصورهِ ، ودنا من بارداليان فوضع يده على كتفه .

فانتبه بارداليان كمن يصحو من رقاده وقال له : أسألك المَعذرة يا سيدي .

- انك تنظر الى صورة هذه المرأة .

- هو ذاك يا سيدي .

- وهي جميلة اليس كذلك ؟

- بلا ريب ، فهي من أجمل النساء .

- وانت تحسب نفسك سعيداً اذا التقيت بمثلها ؟

- انك يا مولاي كأنك تقرأ أفكارِي ، نعم اني أحسب نفسي سعيداً اذا

لقيت مثل هذه المرأة فأجعلها معبودي .

- يلوح لي أيها الفتى انك طاهر القاب شريف المواطف ، وقد كفتني

شهادة الأميرال كوليني فيك ، ولكنني أرى قلبي ميالاً اليك حتى اني احببت ان أروي لك قصة صاحبة هذه الصورة التي أثر بك جمالها ، وان اكن لم أرو حكايته لأحد ، فاني لا اعرفك ، ولكن لو كان لي ولد لما وددت الا ان يكون نظيرك .

فاجلس يجاني تجاه هذه الصورة التي راعك جمالها .

فامتثل بارداليان وهو يقول في نفسه : ان لهجته تدل على ما لقيه من أصناف العذاب .

وبدأ فرنسوا الحديث فقال : ان هذه الصورة رسم امرأة أحد أصحابي ، أو إنها كانت امرأته .

وقد كانت فقيرة ، وكان أبوها عدو أسرة صديقي .

فراها صديقي وأحبها وتزوجها ، ولكنه لم يكن يستطيع زواجها إلا باغضاب أبيه ، فلم يعبأ بذلك وتزوج .

وقد اتفق لنكد طالعه انه اضطر في يوم زواجه أن يسافر إلى الحرب ، فلما عاد من تلك المعارك ، أتعرف ماذا علم ؟ فسكت بارداليان ولم يجب .

- علم ان هذه المرأة التي كان يعبدها ، وعادى أهلها من أجلها كانت خليعة متهتكة خائنة .. أيها الفتى أحذر من النساء .

فاختلج بارداليان وذكر وصية أبيه التي أوصاه بها قبل سفره .

وعاد فرنسوا إلى الحديث فقال :

ان رجاء صديقي كان مفقوداً بهذه المرأة ، وقد وهبها قلبه وحياته فاستعاض عن الرجاء باليأس وعن الحب بالكراهة .

وماذا كان ذنبه في كل ذلك ؟ ان كل ذنبه انه لقي تلك الفتاة في مساء يوم من أيام الربيع ، فأحبها وهو يحسبها من ملائكة الله ، فكانت كما وصفتها لك

فوقف بارداليان عند ذلك وقال له بلهجة خطيرة : ان صديقك
مخطيء يا مولاي .

فنظر فرنسوا إلى بارداليان نظرة المنذهل ولم يفهم ما يقول .
فقال له بارداليان بل أنت المنخدع يا سيدي .

فحسب فرنسوا لأول وهلة ان بارداليان يحتج على كلامه احتجاجاً عاماً ،
شأن بعض الرجال في دفاعهم عن النساء وقال له : دع الدفاع الآن يا حضرة
الشفالييه ولنبحث في الشأن الذي قدمت إلي من أجله .

- ليكن ما تريد يا سيدي ، فاعلم اني مقيم في فندق دفينير في شارع
سانت دينيس .

ويوجد تجاه هذا الفندق منزل يقيم فيه كثير من الفقراء ، وبينهم امرأتان
أتيتك للمباحثة في شأنهما .

- امرأتان ؟

- نعم ، وهما أم وابنتها .

- وماذا تدعيان ؟

- لا أعلم يا سيدي . واني لا أحب أن أذكر لك اسمها الآن قبل أن أروي
لك حكاية هاتين التعيستين المظلومتين .

- اني مصغ اليك فقل ؟

- ان هاتين المرأتين على فقرهما وجمالهما يحترمهما الناس كل الاحترام ، ولا
سيما الأم .

وهما تقيان في هذا المنزل الحقير منذ أربعة عشر عاماً ، وكل ما يقال
عنها أنهما تنهكان جسميهما بالعمل ، وان الأم قد ربت البنت تربية
الأميرات .

وهو كذلك يا سيدي المارشال فان هذه الفتاة تعرف جميع الفنون ، فضلاً
عن ان لها جمالاً باهراً ، وأدباً ظاهراً ، يأخذان بمجامع القلوب .

- إنك تذكر من فضائلها أمها الشفالييه ما حبيبها إلي ، فقل ماذا يجب
أن أصنع لهما .

- صبراً يا سيدي فقد فاتني أن أقول لك ان هذه الأم التي لا يعرف اسمها
أحد ، تلقب بذات النقاب الأسود ، فإنها ما خلعت ملابس الحداد منذ عرفها
أهل الشارع ، مما يدل على إنها نكبت نكبة شديدة .

واني أود أن أذكر لك تفاصيل أمرها ، فإن السبب في نكبتها كان
واحداً من أهلي .

- نعم يا سيدي ، وهو أبي .

- كيف أبوك ؟

- ستعلم كل شيء يا سيدي حين أخبرك بتفاصيل هذه النكبة التي أصابت
تلك السيدة النبيلة ، فاعلم قبل كل علم إنها كانت متزوجة ، وان زوجها غاب
غياباً طويلاً ، فهي كما ترى تشبه قصتها قصة امرأة صديقك .
- أتم الحديث أمها الشفالييه .

- ان السيدة بعد سفر زوجها بستة أشهر ولدت مولوداً . ثم عاد الزوج ..
وفي ذلك الحين ارتكب أبي الجريمة .
- الجريمة ؟

فسالت دمعتان على وجنتي باوداليان وقال : نعم يا مولاي الجريمة . ولو
أعاد أحد هذه الكلمة التي أقولها لقتلته قبل أن يتمها .

- ان أبي اختطف المولودة الجديدة ، وكانت أمها تعبدها عبادة ،
فوضعوها في شر موقف بين أمرين وهما : أما أن توافق على اتهامها أمام زوجها
بالخيانة أو تقتل طفلتها .

فاصفر وجه فرنسوا وقال بصوت أجش : ما اسم هذه المرأة ؟

- لا أقدر أن أقوله يا سيدي .

- فوقف فرنسوا وقد كاد يحن فقال له : كيف عرفت هذا ؟

... اسمع نهاية الحديث يا سيدي ، وهي ان الأم والبنت اختطفتا ،
فتمكنتا من أن ترسلا لي كتاباً فيه كتاب باسم رجل عظيم كلفني أن
أوصله اليه .

ثم رجع بارداليان فأخرج الكتاب من صدره ودفعه اليه قائلاً : هذا هو
الكتاب يا سيدي .

فلم ينتبه فرنسوا لما عامله بارداليان من معاملة الملوك ، ولم ينظر إلى وجهه
المضطرب ، بل كان كل اهتمامه بهذا الكتاب .

ولكنه لم يأخذه ، فجعل ينظر اليه شاخصاً باهتاً ويقول في نفسه :
ماذا أرى ؟ إني في يقظة لاني حلم .. وهذا الفتى قد روى لي حكاية امرأتي
حنة دي بيانس . وهو لم يلفظ اسمها ، ولكنني أسمعه يدوي في قلبه دوي
الرعد القاصف .

رباه ماذا أسمع ، ألا تزال حنة في قيد الحياة ... أمي تشتغل كالعاملات
البيسطات لتربي بنتها ... بنتها ... ألهابنت ... إنها بنتي دون ريب ..
وان حنة شريفة طاهرة .. نعم كل ذلك أكيد ، وإنها رضيت أن تقبل
التهمة لانقاذ بنتها .. رباه ، أذلك ممكن .. وهذا الكتاب . انه لا ريب
بخط حنة .

ورأى بارداليان ما كان من جموده فقال له : اقرأ يا سيدي ، ومق قرأت
هذا الكتاب سلمي أجيبك ، فاذا لم أشاهد الجريمة فأنا ابن مرتكبتها .
وقد قال لي أبي أموراً كثيرة لم أفهم شيئاً منها في البدء ، ولكنها بقيت
منطبعة في ذاكرتي . اقرأ يا سيدي .

فأخذ فرنسوا عند ذلك الكتاب بيد ترتجف وقال في نفسه :

لقد عدت أحسب نفسي حالماً ، وسأستفيق من هذا الحلم ، فأرى الحقيقة
الهائلة .. كن رجلاً يا فرنسوا ، فانك تحملت أشد دواهي اليأس ، ألا تتحمل
هذا الفرع الكاذب ؟

نعم انه فرح كاذب ، فان كل ما أراه حلم ، وهذا الفتى شبح وهذه
الرسالة خيال ..

كلا إني لا أصدق شيئاً مما أسمع وأرى ، ولكن لأقرأ هذه الرسالة .
وعند ذلك فض الرسالة فعرف لفوره خط حنة ، فحاول ان يضع ذاك
الخط على شفتيه ، ولكنه أجهد نفسه جهداً عنيفاً كي لا يظهر هذا
الضعف أمام بارداليان وجعل يقرأ الكتاب .

فلما أتم تلاوته نظر إلى صورة حنة المعلقة على الجدار ، فركع أمامها وقال
بصوت خنقته العبرات :

رحمك أيتها الحبيبة واصفحي عني !

ثم سقط مغمياً عليه لا حراك به .

فأمرع بارداليان اليه ، ورأى من الحكمة ان لا ينادي الخدم لاعانتته في
هذا الموقف ، فجعل يتولى بنفسه ايقاظه وينضح وجهه بالماء حتى استفاق .
وقد صعا فرنسوا وعيناه تتقدان ببارق غريب ممزوج بين الفرح والحزن
والرجاء والأسف ، وغير ذلك من العواطف المتناقضة .

وأراد بارداليان ان يتكلم فقال له : اسكت أهما الصديق فسنجول في
الحديث بعد حين وانتظرنى هنا ، اتعدني ان تفعل ؟
- نعم يا سيدي .

فخرج فرنسوا من الغرفة ونزل إلى الاصطبل فامتطى جواداً وسار به .
وكانت الساعة الأولى بعد انتصاف الليل ، فاجتاز فرنسوا باريس حتى
وصل إلى بابها الخارجي فأمر الحارس ان يفتح له بأمر الملك .
فعرفه رئيسهم وفتح له الباب ، فخرج فرنسوا يسابق الرياح يجواده وهو
يصيح في ذلك السكون إنها حية . إنها بريئة .. امرأتي .. ابنتي .

وما زال على سيره حتى وصل إلى مونمورانسي ، واقترب من مرجنسي
فسكن تأثره بعض السكون ، وذهب توأ إلى منزل تلك المرضعة الذي اجتمع

فيه بحنة وبأخيه هنري يوم حدوث تلك الجريمة الهائلة وهو يقول في نفسه :
ترى ألا تزال هذه المرضع في قيد الحياة ؟
ووصل إلى المنزل فطرق بابه بيد ترتجف .
فناداه صوت من الداخل قائلاً : من الطارق ؟
فأجاب فرنسوا قائلاً : افتحوا بالله فاني فرنسوا مونجوراني .

فأسرعت تلك المعجوز مرضعة حنة ، فأيقظت زوجها وقالت له : قم
فهذا هو .

فانتبه زوجها مذعوراً وقال من هو ؟
قالت سيد مونجوراني ومارجنسي ، قم وافتح له الباب فان قدومه دليل
على عرفانه كل شيء .

ففتح زوجها الباب وأسرعت المعجوز إلى فرنسوا فقالت له : ادخل
يا سيدي إني أنتظرلك ، وما كنت أخشى إلا ان اموت قبل ان تعود .
وكان زوجها قد اثار مصباحاً ، فدخل فرنسوا وجلس على كرسي وامامه
تلك المعجوز واقفة .

وكأنما قد أدركت السبب في قدومه فمنعها السرور عن التقييد باحترام
النبلاء وبدأت قبله الحديث وقالت :
- إنك قادم لتعلم كل شيء اليس كذلك ؟
- هو ذاك .

- إذا لقد عرفت الحقيقة فتعال معي يا ابني .
فلم ينفر فرنسوا من ان تدعوه مثل هذه الحقيرة بابنها ومشى معها يتبع
خطواتها البطيئة وزوجها يتقدمها بالمصباح .

ففتحت باب غرفة صغيرة ودخلت منه مع فرنسوا وهناك كرسي ومرير
وعلى الجدار بعض رسوم منها تمثال العذراء .
وقد دنت المعجوز من السرير وقالت لفرنسوا : إلى هنا جاءت حنة في

اليوم التالي لسفرك .

وفي هذا السرير أقامت أربعة أشهر وهي بين الموت والحياة ، لأنهم قالوا
لها انك هجرتها وتخلت عنها ، وفي هذه الغرفة كانت تبكي وتتوسل
وتذكر اسمك في أحزانها .

فركع فرنسوا أمام ذلك السرير وبكى .
وسكنت المعجوز إحتراماً لبكاء فرنسوا .
فلما نهض استأنفت حديثها فقالت :

- وهنا عادت إليها الحياة تبعاً فاتشحت منذ ذلك العهد بالسواد

فتمتم فرنسوا قائلاً : « ذات النقاب الأسود »

فقالت المعجوز : وهنا يا سيدي وفي هذا السرير ولدت إبتك لويزا ،
فأنقذتها إبتها من الموت ياساً ، لأنها رغبت في الحياة من أجل إبتها ،
وكانت كلما نمت البنت تعافت الأم .

ولم تبسم تلك الأم المنكودة إلا يوم ظهرت أول إبتسامته على شفتي
إبتها لويزا .

أتريد أن أقول لك البقية يا سيدي ؟

- نعم .. نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفينه .

- إذا تعال معي ..

ثم خرجت به المعجوز إلى خارج المنزل ، وذهبت به إلى قمة عالية تكثفها
الأدغال الكثيفة ..

وكان القمر يتوهج في كبد السماء ، فصعدت إلى القمة يصحبها فرنسوا
وقالت له :

- أنظر يا سيدي ، ألا ترى من هذه القمة نافذة غرفة منزلي .. إنه لو
وقف رجل فوق هذه القمة في النهار وأشار إليه آخر من تلك النافذة ألا
يرى إشارته ؟

وصاح فرنسوا قائلاً : أكان أخي هنري في تلك النافذة .
فالتفتت المعجوز إلى زوجها وقالت له : قل ماذا رأيت ؟

فانحنى زوجها أمام فرنسوا وقال :

- إني لا أزال أذكر هذه الأمور كأنها حدثت بالأمس ، فقد كنت أستغل
في صباح ذلك اليوم بالحقل السكائن وراء هذه القمة التي نحن عليها .

ولما تعالي النهار ، دنوت من هذه القمة كي أستظل بظلها من الشمس

وأستريح ..

ففغوت ، ثم لما صحوت رأيت رجلاً مختبئاً بين الأدغال وهو يحمل في
ردائه ما لم أعلمه .

وكان مرتدياً بملابس ضباط حصنكم فاخترت لخوفي منه ، فإن الضباط

لا يرحموننا .

وأقمت نحو نصف ساعة أراقبه وهو لا يراني ، ثم رأيتته خرج من الأدغال

وسار مسرعاً لا يلوي على شيء .

فرأيت عند ذلك انه كان يحمل في وشاحه طفلاً ، ولم يخطر لي في بال ان

هذا الطفل بنت سيدتي حنة .

ولما عدت في المساء إلى المنزل ، علمت انك عدت من السفر وان سيدتي

قد سافرت .

هذا كل ما رأيتته يا سيدي رويته لك والله شاهدي على صدق ما أقول ..

ثم تنحى فدنت إمرأته من فرنسوا وقالت له : إني لم أعلم ، يا سيدي ،

ما حدث بينكم وبين أخيك هنري ، في تلك الساعة التي التقيتما فيها

في منزلي ، ولكنني علمت بعضه ، مما كنت أسمعته متقطعاً من فم تلك

الأم القانطة .

وبعد حين أقبل رجل ورد الطفلة إلى أمها وكادت تجن من فرحها .

ثم حملت طفلها وركضت بها بغية لقائك وإخبارك بالحقيقة بعد أن أمنت

على طفلتها وقد منعنا عن مرافقتها فلم نعلم شيئاً مما جرى لها .
هذا ما أعلمه يا سيدي ، ولكنني علمت يقيناً شقاء هذه المرأة المنكودة التي
أتمها زوجها بالخيانة وهي أعف النساء وأشرف الزوجات .

وقد كنت ، يا سيدي ، منذ سنوات مضت ، أي حين كنت لي قوة
على السير ، أذهب مرة في مثل يوم سفرها ، من كل عام ، إلى باريس
وأطوف في تلك العاصمة المتسعة باحثة عنها ، فلا أجدها ، وأعود قانطة
من لقاءها .

أما الآن ، فلم أعد أستطيع البكاء ، لقد نضب الدمع من عيني ،
ولكنني أبارك قبل موتي ، من يقول لي أنها في قيد الحياة وأنها سعيدة ،
وان آية العدالة قد محت آية الظلم ، العلك يا سيدي قادم كي تقول هذا
القول لمرضة حنة .

فركع فرنسوا أمام هذه المعجوز وقال لها بصوت مختنق : باركينني إذا
لأن حنة في قيد الحياة وستكون أسعد إمرأة في الوجود .

فباركته المعجوز وعاد الثلاثة صامتين إلى المنزل .

وعند ذلك دخل فرنسوا إلى الغرفة التي ولدت فيها حنة ابنتها ، فاختملي
فيها وأقام ساعة دون نور ، وكانت المعجوز وزوجها ، يسمعان من الخارج
صوت بكائه ، وكان يكلم نفسه بنبرات تختلف بين الوعيد والحنو .

وبعد ذلك ، خرج من المنزل وسار إلى الحصن ، ولما رآه الحراس دهشوا
لقدومه الفجائي ، وحاولوا أن يقرعوا الأجراس إشارة إلى قدومه ، فمنعهم
عن ذلك وأمرهم أن يأتوه بورقة من تلك الأوراق التي تكتب عليها الأوامر
الرسمية ، فكتب عليها أمراً يقضي بأن يكون المنزل الذي تقيم فيه
المرضة المعجوز وكل ما يحيط به من الحقول ملكاً لها ولورثاتها من بعدها ،
وأضاف إلى ذلك ٣٠ الف فرنك نقداً ، فأرسلت تلك الهبة في الصباح
إلى المعجوز .

ثم نادى وكيل الحصن وأمره أن يصلح القصر ويجعله صالحاً للسكنى فإنه
سيقيم قريباً فيه مع أميرتين .
وفي الليلة نفسها سافر عائداً إلى باريس وهو مضطرب لهذه الحوادث التي
قلبت نظام حياته .

وكان عندما يخطر له ان إمرأته بريئة وانه متزوج بسواها يطرد هذا
الفكر بعنف ويقول : إنها الآن في خطر ويجب إنقاذها منه ، بل يجب أن
تلقى من السعادة أضعاف من لقيت من الشقاء .

وكان حائراً في أمره ، لا يعلم كيف ينيلها هذه السعادة ، وكيف
يستطيع الافتراق عن ديانا دي فرانس ، وكانت إذا ازدحمت في مخيلته
هذه الأفكار ، بذل جهداً عنيفاً لتشتيتها وهو يقول : يجب في البدء أن
أجدها ثم نرى ما يكون .

وما زالت هذه الأفكار تتنازع حتى وصل إلى قصره في باريس حيث كان
ينتظره بارداليان .



أما بارداليان فقد قضى تلك الليلة وهو في أشد حالات الاضطراب ،
وكان أخص ما يشغله افتكاره بأبيه وما عسى أن يكون حرم المارشال عليه .
وكان عزاءه في ذلك ان أباه هو الذي رد الطفلة إلى أمها وهو الذي
أعطاهما تلك الماسة التي أخذها جزاء الخيانة فردها التماساً للغفران .

على أن كل ذلك يعد عذراً بسيطاً بالنظر إلى الجريمة الهائلة ، فان أباه لو
لم يختطف الطفلة لما حدث شيء من تلك النكبات على الإطلاق .

وأى نكبة أعظم من هذه النكبة فان المارشال طلق إمرأته التي قضت
إمرأته ستة عشر عاماً تعاني أعظم الشقاء وكل ذلك بذبذبة أبيه .
ولم يث بارداليان على هذه الحالة إلى أن بزغ الفجر ، ثم أشرقت الشمس

فأقبل فرنسوا ، وكان أول ما بدأ به الاعتذار إلى بارداليان ، وقال له :
أسألك عفواً يا شفالبييه لمغادرتي إياك هذا الزمن الطويل ، ولكني كنت على
أشد حالات الاضطراب بحيث لم أكن أعني وأعلم ماذا أصنع .

أما الآن وقد عادت إلي السكينة يمكننا أن نتحدث .

وقال له بتلك البساطة التي امتاز بها على أقرانه في معرض التعبير : اني
طالما سمعت الناس يتحدثون عن نبل طباعك ، كما اني سمعتهم يضربون الأمثال
بكبرياء أسرة مونورانسي وفخامة هذا البيت ، ولكن هذه الفخامة والنبل
والكبرياء لم تظهر أمامي بمظهرها الحقيقي ، إلا حين رأيتك تبكي أمام
هذه الصورة .

فأجاب المارشال : صدقت أيها الشفالبييه ، اني بكيت وشعرت أن البكاء
في مثل موقعي عذب أمام الأصدقاء .. دعني القبك بلقب صديق ، لأنك أنت
السبب في عودة النعم إلى قلبي

- العلك نسيت يا سيدي المارشال اني ابن بارداليان .

- كلا ، لم أنس ، واني لا أقتصر فقط على صداقتك وحبك ، بل اني
معجب بك لما ضحيت به ، لأنك دون شك تحب أباك .

- نعم أحب أبي حباً ليس بعده حب فاني ما عرفت غير أبي ، وهو
الذي رباني منذ دببت ، إلى أن شببت ، ثم هو الذي دربني على هذا القتال
وهو الذي كان يحميني بحسامه معرضاً نفسه للأخطار ، بل انه كان يؤذي
نفسه كي يزود عني الأذى ، فقد طالما رأيت يغطيني بوشاحه في الليالي الباردة
وينام دون غطاء .

وعلى الجملة ، فقد كان أبي وأمي وصديقي ، ولم أعرف سواه ، فمن
أحب غيره .

فتأثر المارشال من كلامه وقال له :

- لم يبق شك لدي بأن قلبك من أظهر القلوب ، لأنك على عرفانك ما

في هذا الكتاب من تهمة أبيك ، وعلى فرط حبك له لم تتأخر عن تسليمي هذا الكتاب .

- إني لم أقل لك كل شيء بعد يا سيدي المارشال ، فإني إذا كنت أحضرت لك كتاب زوجتك المظلومة بغية كشف ظلامتها على عرفاني ان أبي متهم فيه ، ذلك لأني مستعد للدفاع عن أبي دفاعاً شديداً ، لا يخطر في بال ، أي اني أكون عدواً لدوداً لكل من يحسر أن يقول ان أبي ارتكب جريمة .

وقد قال هذا القول بلمحة خطيرة فاحمرت عيناه ، ورقص شارباه وظهر اضطرابه ، فانه سيعلم بلحظة ما يكون من جواب المارشال والد حبيبته لويزا ، فاما أن يكون من أعدائه أو من أصدقائه .

وبعد أن سكت لحظة عاد إلى حديثه فقال :

- التمس من سيدي المارشال أن يعاملني هنيئة معاملة الأكفاء للأكفاء ، ولذلك أقول قبل الأخذ في الحديث ، ورجائي أن تجيبي بمثل ما اتكلم به من الحرية والجلال ، إنك إذا اعتبرت أبي عدواً لك كنت أنا من أعدائك ، وإذا حاولت الانتقام منه عما اساء به اليك دافعت عنه والسيف متصلت بيدي دفاع المستميت .

وقد كان فرنسوا مصغياً اليه يتمعن بما يبدو على وجهه من مخائل النبيل والبسالة ويمعجب به منتهى الاعجاب .

ولما أتم حديثه مد المارشال اليه يده وقال دون تردد .

- اني لا اعرف غير بارداليان واحد ، وهو ذلك الذي أنقذني من وهدة اليأس بعد ان تخبطت اعواماً في ظلماتها واذا اتيح لي ان ارى يوماً اباك ، فأول ما أقول له اني اهنته بأن يكون له ولد مثلك .

فشد بارداليان على يد فرنسوا وقال له وعلائم الامتنان بادية بين عينيه :

اشكرك يا سيدي فاني استطيع ان اقول لك الآن ان ابي حاول اصلاح ما بدر منه من الخطأ .

- كيف كان ذلك ؟

- لقد اخبرني بما اتفق له في زمن لم يكن يخطر له فيه اني سأتشرف بمقابلة المارشال دي مونورانسي .

فما علمته منه يا سيدي ان أبي قد اختطف الطفلة ، ولكنه هو الذي أرجعها إلى أمها خلافاً للأوامر التي صدرت اليه .

- نعم ، نعم لقد عرفت كيف حدثت هذه الفاجعة فليس فيها غير مجرم واحد يسمى باسم عائلتي وآسفاه .

ثم شد على يد بارداليان وقال له : من يحسر أن يظن أن مثل هذه النكبة الهائلة ، يصيب الأخ فيها أخاه ، وكيف يخطر في بالي أن يخلق أخي هذه النكبات عن إمرأتي بعد أن أوصيته بها قبل سفري ، وأقسم لي ثلاثاً على الوفاء .

ولكن لنعد الآن هذه الأبحاث ولنبحث في وسيلة لانقاذ إمرأتي . فهل لك أن تخبرني بتفصيل ما علمته عنها ؟

فحكى له بارداليان كيف إنهم قبضوا عليه ، وكيف انه بعد خروجه من الباستيل وجد كتاب إمرأته مفتوحاً ، إلى آخر ما يعرفه القراء .

وقد بقي أمر غامض في حكايته ، وهو كيف ان حنة قد اختارته دون سواه لإيصال الرسالة إلى زوجها ، فلم يفه بشيء عن ذلك .

وأما عن اختطافها ومكان وجودهما ، فلم يقل شيئاً لأنه لم يكن عالماً بشيء .

ولما أتم حكايته قال له : ليس لدي غير اثنين اتهمهما بهذا الاختطاف ، لقد قلت لك اني رأيت الدوق دانجو يرود حول المنزل مع أعوانه فقد يكون هو المختطف

فهز المارشال رأسه وقال : إني أعرف الدوق دانجو فهو يكره الاغتصاب
حذر الفضيحة .

- إذاً ليأذن لي سيدي ، أن أذكر اسم الرجل الآخر الذي اتهمه
وهو أخوك .

وعندي انه قد يكون رأها اتفاقاً فأقدم على هذه الجريمة ، وانه يجب علينا
أن نبدأ البحث في نواحي قصره .

وهذا الذي كنت أقوله ليلة أمس لصديقي الكونت دي ماريلياك ، وقد
زرته مستنجداً لمساعدتي في هذا البحث .

- أظن انك مصيب في ما تقول وسأذهب بنفسي إلى أخي ، ولكنك
لو لم تجدني في باريس ، أكنت تتولى أنت إنقاذها ، وماذا يدفمك إلى
هذه المرؤة ؟

-- يدفمني اليها الواجب يا سيدي وإصلاح شيء مما أفسده أبي .

- إنك في الحقيقة نبيل النفس فلا تؤاخذني لهذه الأسئلة .

- أشكرك يا سيدي لهذا الثناء والتمس منك العفو لاعتراضي على ما
ارتأيته من زيارة أخيك فإنها زيارة خطيرة فيما أراه .

فظهر كل حقد فرنسوا هلى أخيه بين عينيهِ وقال له . دعني اجتمع به
وسوف ترى في أي جانب يكون الخطر .

- اني لا أخاف عليك يا سيدي من هذه الزيارة بل عليهما .

فارتعش فرنسوا وقال : ماذا . عليهما ؟

- إنها إذاً كانتا حقيقة عنده كما نتوهم ، ثم رآك قادماً اليه لخصامه فقد
يدفعه حب الانتقام إلى ما محمد عقباه ، وقد يصدر أمراً تجهله بشأنها فلا
يكون منه غير الشر .

- لقد أصبت يا بني فاني كلما سمعت قولاً من أقوالك زدت إعجاباً بك
ولا أرى اجتماعي بك الا من دلائل حسن التوفيق .

- أشكرك ، يا مولاي ، وأرجوك أن تصبر يوماً وليلة ، على أن أتولى
أمر البحث عنها بنفسي وابدأ منذ الآن بالبحث في قصر أخيك ، فإذا
كانت فيه ، عملنا على إخراجها بالحيلة ، فإذا أردت الانتقام بعد ذلك
فاستعمل القوة .

- بورك فيك يا بني فان هذا الرأي رأي العاقلين .

- إذاً تأذن لي بالبحث بنفسي .

- إلى غد فقط .

- بل إلى أن يتيسر لي الدخول إلى قصر أخيك حيث أعرف حقيقة الأمر
ومع ذلك فاني أرجو أن أفوز في هذه الليلة .

- أصنع ما أنت صانع فإذا نجحت أكون مديناً لك بالحياة .

فنهض عند ذلك بارداليان مستأذناً بالانصراف فشيعة المارشال إلى الباب
الخارجي .

وهناك عانقه شاكراً وقد مال اليه كل الميل ، وسار بارداليان إلى الفندق
المقيم فيه ، فغير ملابسه وهو يقول : لقد مهدت السبيل للسعادة فلنقرع بابها
في قصر هنري .

وحده قاضيه

متندي

ليلاس

بارداليان الاكبر

قبل شهرين من هذه الحوادث التي رويناها للقراء ، كان رجلان يسيران في ليلة باردة وقد وقفا عند فندق بونديكيه قرب أنجر . وكان أحد هذين الرجلين بلبس الضباط والآخر بلبس الأتباع . أما هذا الضابط فقد كان الدوق دامفيل ، أي هنري دي مونمورانسي وكان عائداً من بوردو إلى باريس ، فمرج في طريقه على هذا الفندق . ولم يكن يصحب معه حراسه كما كان يفعل الأسياد في ذلك العهد ، ولعله كان يريد بذلك أن لا ينبه اليه الأنظار . ثم انه لم يعرج على هذا الفندق لجمال موقعه وطيب طعامه ، بل لأنه كان قد ضرب موعداً فيه للقاء .

وقد كان تابعه ، يخرج من حين إلى حين ، ويراقب الطريق من جهة أنجر . ولما كانت الساعة الثامنة أراد صاحب الفندق إقفال باب الفندق فقال له هنري لا تفعل فاني انتظر زيارة زائر . ودام انتظاره إلى الساعة التاسعة ، واقبل فارس من جهة أنجر وترجل عند باب الفندق .

وكان تابع هنري واقفاً في انتظاره عند الباب فأدخله إلى مولاه وتبودلت

بينهما إشارتان سريتان .

ثم بدأ هنري الحديث فقال له : أنت قادم من قصر أنجر ؟

- نعم يا مولاي .

- أجئت لتحدثني من قبل الدوق ؟

- أي دوق يعنيه سيدي .

- ولكنه ... الدوق الذي ، اضطر في هذه الأيام .. إلى زيارة

القصر .

- تفضل يا مولاي بالايضاح .

وقال له هنري بصوت منخفض : الدوق دي كيز

- هو ذاك يا سيدي ، وأرجو معذرتي فيما قلته ، لأن الرقباء علينا

كثيرون .

- حسناً فقل الآن أين هو الدوق ، الا يزال في أنجر ؟

- كلا ، لقد برحها منذ ثلاثة أيام وسافر إلى باريس ، واما الدوق دي

أنجر فقد سافر أمس .

- هل علمت إذا كانا قد اجتمعنا أو حدث بينهما اتفاق ؟

- لا أظن ، يا سيدي ، فان الدوق دي أنجر كثير الاهتمام بأعوانه

وحظاياه .

- إذا ، لا بد ان تكون قادماً إلي بأمر من الدوق دي كيز .

- هو ذاك يا سيدي فاسمع ..

ثم دنا الرجل من هنري وقال بصوت منخفض ما يأتي :

في ٣٠ مارس القادم .. الساعة التاسعة ونصف مساء ... في فندق

دفتيير . شارع سانت دنييس في باريس .. أتتذكر ذلك ، يا سيدي

المارشال .

- نعم سأتذكر .

- وستسأل هناك عن المسيو رنيسار الشاعر ، وتضع برقعاً على وجهك ،
وريشة حمراء على قبعتك .

- في ٣٠ مارس مساءً في شارع سانت دينيس . في فندق دفينير أهذا
كل ما أتيت لأجله .

- نعم يا سيدي فأذن لي بالانصراف كي لا ينتبه أحد لغيابي .

- إذهب ايها الصديق بأمن الله .

- أرجوك يا مولاي قبل ان اذهب ان تذكرني بالخير لدى مولاي الدوق
دي كيز ، واني اتمت المهمة التي عهدت إلي .

- سيكون ذلك ، فماذا تدعى ؟

- مورفرن .

ثم انحنى أمامه وانصرف ، وبعد هنيهة سمع هنري وقع حوافر جواده ،
فقال في نفسه : اني اعجب لهنري دي كيز كيف يستخدم مثل هؤلاء الناس
فان هذا الرسول الذي ارسله الي في خدمة الدوق انجر وهو قد خانه اليوم فلا
بد ان يخون دي كيز غداً .

أما الاجتماع في الفندق فسأذهب اليه في الموعد المعين ولكني سأأخذ كل
ما ينبغي اتخاذه من الاحتياط .

وقد عرف القراء في بدء هذه الرواية كيف ان هنري وفي بوعده في
حضور تلك الحفلة التي خطب فيها الشعراء وذبحوا فيها تيساً ، وعرف
بارداليان كل ما جرى من تلك المؤامرة .

ولما سافر مورفرن صعد خادم هنري اليه وقال له : أتريد يا سيدي ان
نواصل السفر ؟

- كلا ، فاني أحب المبيت الليلة في هذا الفندق فاحضر لي عشائي .

وذهب الخادم مسرعاً لتلبية الأوامر ، وبقي هنري وحده في الغرفة فسمع
حديث مشاجرة تحت نوافذ غرفته بين صاحب الفندق وأحد المسافرين وسمع

صوت صاحب الفندق يقول للمسافر : لقد قلت لك اني لا أريد ان تربطه
هنا الست أنا صاحب الفندق .

واجابه المسافر قائلاً : وانا اقسم ببيلاطس انه لن يكون إلا في هذا
المكان .

وارتعش هنري لسماع الصوت .

وعاد صاحب الفندق إلى الاعتراض فقال : ان هذا الاصطبل خاص
بجواد الأسياد .

- وانا اقول لك إن جوادي شريف الأصل فلا أضعه بين البقر .

- يظهر يا حضرة المتشرد انك تريد ان اطرده .

- وانت يا حضرة صاحب الفندق يظهر انك تحب ان تجلد بالسياط .

ولم يعد يسمع هنري بعد ذلك غير صوت الاستغاثة والتوجع ، فان
المسافر كان يضرب صاحب الفندق ضرباً موحماً دعا صاحب الفندق إلى
الاستغاثة .

فأسرع هنري إلى مكان الحادثة فوجد المسافر يضرب صاحب الفندق
دون إشفاق ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث ، وقد ارتفع صوته حين
رأى رجلاً قادماً اليه .

اما المسافر فانه حين رأى هنري ، ورأى انه بملابس الضباط قال له : اني
ارى على جنبك حساماً يدل على انك من الأشراف يا سيدي وانا منهم ، فاذا
احببت ان تكون الحكم بيني وبين هذا الرجل اخبرتك بأسباب الخلاف .
فهز هنري رأسه إشارة إلى الموافقة .

وحاول المسافر ان يتبين وجه هنري فلم يستطع لشدة الظلام فقال له :
إن الخلاف بسيط يا سيدي ، وهو ان هذا الرجل يريد إكراهي على ان
اخرج جوادي من الاصطبل واضعه في زريبة البقر .

فقال صاحب الفندق : إن الاصطبل يا سيدي لا يتسع إلا لثلاثة جياد

وهي موجودة فيه فأين اضع جواده الرابع .

وقال المسافر لا تصدقه يا سيدي ، لأن الاصطبل يتسع لأكثر من ثلاثة جياذ ، وان جوادي من خيرها ، تريد ان تراه ؟ . إنك ستراه يا سيدي ، وترى إذا كان يليق به ان يببت مع البقر .

فأمر هنري صاحب الفندق ان يأتي بمصباح .

ولما جاء به نظر هنري نظرة احتقار إلى ذلك الجواد الذي اثنى عليه صاحبه هذا الثناء ، ثم نظر نظرة سريعة الى صاحبه وقال : هو . هو بعينه وقد عرفته من صوته .

اما المسافر فانه دتا من جواده الهزيل وجعل يصف محاسنه ويقول : ارأيت يا سيدي اكرم منه فرساً ... امثل هذا الجواد الكريم يببت في الزرائب .

وقال له هنري : لقد اصبت يا مسيو بارداليان فان جوادك خير الجياذ . وذهل بارداليان حين سمع هنري يناديه باسمه وعرفه للفور وكاد يلفظ اسمه غير ان هنري اوقفه بنظرة وقال له :

- ان صاحب الفندق مخطىء ، ولكنه سيصلح خطأه ويضع لجوادك خير العلف ، وأما انت يا سيدي فهل لك ان تتعشى معي ، فأغدو لك من الشاكرين .

وذهل صاحب الفندق مما رآه ولم يسهه إلا الامتثال ، لقد عرف ان هنري من كبار الأغنياء ، وللغنى حرمة كيفما كان .

واما هنري فانه تأبط ذراع بارداليان الأكبر دون كلفة وصعد به الى غرفته ، وجعل بارداليان يفكر في نفسه ، وقد وضع يده على قبضة حسامه من قبيل الحذر .

ولما دخلا إلى الغرفة اقبل هنري بابها فقال له بارداليان : يسرني يا سيدي ان اراك بعد هذا الفراق الطويل ، ولكن يسؤني ان اراك تكاد تبلغ

مبلغ الكهول وانت لا تزال في عنفوان الشباب .

انني فارقتك ، يا سيدي ، منذ ستة عشر عاماً ، وكنت في ذلك العهد زين الشباب ، فمن اين جاءك هذا الشيب وانت لم تبلغ الحلقة الرابعة من العمر .

اليس عجيباً ان يكون عمري ضعف عمرك ، ويبقى شعر رأسي كحافية الغراب .

انني فارقتك يا سيدي وانا في الأربعين من عمري ، فمضي هذا العهد الطويل وانا باق على ما تعهدني ، اليس كذلك .. نعم اني اتجامر وارجو ان اعيش مائة عام ، ويقيني انني اذا بلغتها بقيت كما انا . ماذا تقول يا سيدي انك لا تقول شيئاً ... اسمح لي ان اطعم جوادي وانصرف ، لأنني مضطر الى الرحيل في هذه الليلة .

فأجابه هنري مبتسماً : كلا فانك تتعشى معي .

- اسألك المَعذرة ، يا سيدي ، فانهم ينتظرونني ، ولا بد لي من الذهاب .

- كيف تقول انهم ينتظرونك ، وانت كنت تخاصم صاحب الفندق بشأن ابواء جوادك الليلة في الاصطبل ، فابق معي للعشاء او احسب انك خفت .

فضحك بارداليان وقال : امثلي يخاف الناس ، يا سيدي الدوق وانا تخافني الأبالسة .

وكأتما كبرت عليه تهمة الخوف ، فوقف وخلع ردايه وقبعته ومنطقته فألقاها فوق السرير وجلس على المائدة بلازاء هنري وهو لا يزال متقلداً حسامه .

وكان هنري يراقبه ، فلما رآه خلع ملابسه ، نزع سيفه والقاء على السرير فلم يجد بارداليان بدأ من الاقتداء به وفعل فعلة .

وجلس الاثنان حول المائدة يا كلان وهنري ساكت مفكر وبارداليان يفكر في سبب تفكيره .

الى ان فرغا من العشاء فبدأ هنري الحديث فقال :

- وانه يسرني ايضاً ان اراك يا بارداليان وان تكون قوي العضل خفيف الحركات لم يقدم منك غير ثيابك فانها هي نفس التي كنت تلبسها منذ ستة عشر عاماً كما ارى وما اشبه هذا الطيلسان الذي تلبسه بطيلسان ابن حرب والفرق بينهما ان ذلك كان مرقعاً مرفوعاً وطيلسانك لا تزال الثقوب فيه كالنوافذ في البيوت ، لا جرم فهي ثقوب السيوف والحرايب ولعلك استبقيت هذا الطيلسان لتفتخر بثقوبه ، وفي كل حال فقد سرني ان اراك .

فأجابه بارداليان قائلاً بلمحة المتهم : لقد خلقت يا سيدي ميالاً الى الفقر وهي لذة لا اجد الحياة هنيئة الا بها على اني لو أردت ان البس كل يوم ثوباً جديداً لما عدت سيداً مثلك يهيني ما اريد .

- بل تنال ما تريد بجد حسامك واقدامك وصبرك على الخطوب ، فاني لا انسى بسالتك لطول عهد اتصالك بي ، ولكنني لم اعلم شيئاً مما حدث لك بعد ذلك الفراق ، فماذا حدث لك بعده ؟

- عدت الى ما نشأت عليه قبل ان يعينني ابوك الشهير في خدمتك .

- وماذا كنت تصنع بعدما بارحت القصر .

- كنت اعيش ..

- واين كنت تقيم .

- حيث تطيب لي الاقامة فأفترش الأرض ، والتحف السماء ، على اني اقمتم نحو عامين في باريس .

- ولماذا برحتها ؟

فظهرت علائم الخبث في عيني بارداليان واجابه : اني اذكر اقامتي فيها بالخير ، فقد كنت في تلك العاصمة من اسعد الناس .

ولكنني كنت أطوف في الشوارع في ليلة من ليالي أكتوبر ، فلقيت رجلاً كنت أعرفه منذ عهد بعيد وأحب اجتنابه لأنه إذا رأيني كره ان يبقيني معديماً فقيراً وأنا أحب عيشة الفقر كما ذكرت لك فاضطرت ان أبرح تلك العاصمة مكرهاً إذ كنت مقيماً فيها مع ولدي .

فقال له هنري إني كنت في ذلك العهد في باريس ، وأذكر انه حدث لي حادثة فيها ، وهي ان اللصوص باغتوني ليلة وكادوا يتغلبون علي لكثرة عددهم ، فأنقذني منهم رجلاً لا أعرفه ، فأهديته جواداً كريماً يدعى كالور .

والآن ، ألم تلاحظ يا بارداليان ، إني لم أرك منذ ستة عشر عاماً ، وإني مقيم معك منذ ساعتين في غرفة واحدة ، ولم أسالك بعد عن خيانتك .

فقال بارداليان في نفسه : لمتأهب لقد دنت ساعة الحساب .

ثم قال له هنري : أية خيانة تعني يا مولاي ، العلك تريد بها خيانتني باطلاق سراخ ذلك الرجل الذي اصطاد ايلاً في أراضيك فأذقته العذاب ألواناً وقيدته بالأصفاد .

نعم لقد ذكرت يا سيدي وأنا أعترف بهذه الخيانة فما دفعني اليها غير إشفائي على هذا الرجل المنكود .

- ليس هذا الذي أعنيه لأنني أجهل هذه الحوادث .

- إذا كان مولاي يجهل مثل هذه الحوادث ، فلا أعيد إنقاذي ذلك المنكود خيانة ... ولكن أية خيانة يعنيه مولاي ... لقد ذكرت ... نعم ، فان مولاي كان قد اتفق ليلة مع أحد البارونات على اختطاف امرأة حسناء ، كانت قد تزوجت في اليوم نفسه ، واتفقوا على ان يقتربوا عليها بعد اختطافها ، فمن أصابته القرعة كانت تلك المنكودة حصته .

فلما ذهب مولاي مع البارونات في تلك الليلة ، وجدوا الطير قد فر من القفص .

نعم يا مولاي ، إني أعترف بجريمتي فأنا الذي أنذرت الزوج في النهار فهرب بزوجه لأنني لم أطق احتمال هذا الظلم .

فأجابه هنري دون ان يخجل لهذا التقريع : إني نسيت الطير ، ونسيت القفص .

- إذا ... أية خيانة تعنيها ، يا سيدي ، لأنني قد أفرطت في الطعام ، فأضعفت التخممة ذاكرتي ، وما تعودت ان أذكر منسياً إلا إذا كان سيفي يجاني .

ثم أمرع إلى السرير فأخذ سيفه وعاد به إلى مجلسه ، وهو يتنهد تنهد الارتياح .

فابتسم هنري ابتسام المتهم ، وقال له : لقد نعم بالك الآن ، ولا بد أن تذكر .

فأجابه بارداليان ببرود : وهو ذاك ، فقد ذكرت خيانة تشبه الخيانات التي ذكرتها .

مثال ذلك حادثة مرجسي التي فارقت مولاي بعد حدوثها ، العله الحادثة التي يعنيها ؟

- نعم ، فأنت ما تركتني إلا لخوفك من ان تعاقب بالشنق .

- إنما الشنق والقتل والموت واحد ، ففي كافتها فراق الروح والخلص من أدناس الناس .

أما هذه الحادثة فإني أعترف وأقر بأنني خنت فيها مولاي ، لأنني في ذلك اليوم نفسه أرجعت الطفلة إلى أمها ، وذلك لأنني سمعت الأم المنكودة تبكي بكاء اليماء يقطع القلوب ، ولم يتمثل لي الشقاء الانساني إلا بما كنت أسمعه منها .

وقد قلت يومئذ في نفسي انك لو رأيت ما رأيت من بأس تلك الأم لصدر لي أمرك ، دون ريب ، بإرجاع طفلتها اليها ، فتوليت صنع هذه المروءة عنك .

ثم قلت في نفسي إني أخطأت إلى هذه الأم باختطاف طفلتها فلأصلح بعض خطائي بردها .

وأما فراري فقد أحسنت به إلى نفسي لأنني لو بقيت لسجنتني في أظلم السجون هذا اذا لم تشنقني كما قلت .

ودعني يا مولاي أتم اعترافي ، فاني منذ ستة عشر عاماً إلى اليوم لم تمر بي ساعة ، دون أن بقرعني فيها ضميري لتلك الجريمة التي ارتكبتها بأمرك .

وليسست الخيانة بردي الطفلة الى أمها بل بارتكابي الجريمة التي خنت فيها كل شعور إنساني .

وأنت يا سيدي ، ألم تكن بعد تلك الفعلة من النادمين ؟

فوجم هنري هنيهة ثم قال له بعد سكوت قصير : أرى يا بارداليان انك حسن الذاكرة ، ولكنني أعود الى ما قلته لك ، وهو انك خنتني ، ولا أبالي بمعرفة الأسباب التي دعتك الى الخيانة ، بل أكتفي بأن الخيانة قد حصلت ، فاعلم الآن إني لا أوئبك عليها ، لأنني أحب أن أنساها .

ثم وقف وقال : نعم إني أحب ان أنسى ، كما إني أحب أن أنسى ما فعلته الآن ، حين أخذت سيفك كأنك تحسب إني أبارزك بالسيف .

فوقف بارداليان ايضاً وقد كبر عليه هذا القول فقال لا يجب لمثلك يا سيدي ان يأنف من قتال مثلي .

ونعم لست من أولئك البارونات الذين يخطفون النساء .

ولست من اولئك الدوقات الذين يستعينون برجالهم على قتل الضعيف وسفك
دماء الأبرياء .

وليس لي قصور أظهر فيها كبريائي ، ولا سجون أحبس فيها من قضى عليهم
نكد الطالع أن يكونوا من أتباعي . .

نعم لست يا سيدي من اولئك الذين يدعونهم بالآسياد ، ولكن يخلق بعض
الأحيان بكبار الآسياد امثالك ان يصغوا لكلام امثالي .
ولذا أكلمك دون غضب ودون خوف لعلمي ان لا فرق بيننا بالرجولية
وان حسامي يعادل حسامك .

فهز هنري كتفيه وقال له : اجلس يا بارداليان كي نتحدث .

وقد سمع هنري كل مغامز بارداليان ، ولكنه ربما جل نفسه عن أن
تمسه هذه المطاعن لصدورها من رجل كان من أتباعه او انه اعجب بشجاعة
بارداليان ورآها موافقة لمشروعه الذي ينويه فقال له :

- ارى يا بارداليان انك لا تزال اشد من نصل حسامك ، فاذا اردت
فابق حسامك في غمده فستجرده في غير هذا المقام ، اذ سيعرض لك كثير
من الظروف .

هل اني اعتبرك من الأشراف ، واحترم حسامك ، فاصنع الي الآن
إذا شئت ، فإني مقترح عليك اقتراحاً لك ان ترضاه او تأباه ، فاذا
ابيته افترق كلانا عن صاحبه ، واذا رضيته فلا يكون لك بعده غير الشرف
والكسب .

فقال بارداليان في نفسه : لقد تغير الناس ، واستحالت الأخلاق .
فلو قلت قديماً بعض هذا القول لما اجابني إلا بالسيف ... ولكن لا بد ان
يكون له بي مآرب بدليل ما يبديه من الملاينة ، فلنر ما يريد .

ثم قال له : لقد اعجبتهني ، يا سيدي ، حرية مقالك . فتفضل واقترح
ما تشاء

فقال له هنري : أتعلم يا بارداليان ، ان كثيرين من أهل الشباب والفتوة
يحسدونك ويتمنون ان يكون لهم ما لك من الصفات ، فقد كنت حين عرفتك
مخيفاً اما اليوم فقد اصبحت هائلاً كما ارى .

- اني افعل ما يمكن فعله يا مولاي .

- ولكن ألم يؤثر عليك العمر ؟

- لقد قلت انت يا سيدي اني لا ازال كما كنت في الشباب .

- وهذه القوة النادرة التي كنت اعجب بها إعجاب كل الناس .

- لا تزال بحمد الله ، بل زادت بعد ان برحت قصركم ، وهجرت

عيش الرخاء

- إذا ، اصنع إلي ولا تدع كلمة من كلماتي تفوتك ، فإني محدثك

بأمر خطير .

وظهرت على هنري علائم التردد ثم زالت تلك العلائم فقال له ؟ ماذا

تقول يا بارداليان بملك فرنسا ؟

- ملك فرنسا .. وماذا تريد ان يقول رجل معدم جواب أفراق

مثلي عن ملك فرنسا سوى انه ملك فرنسا ، أي ذاك الملك الذي هو أضعف

من الله وأعظم من الانسان .

ذلك الشمس المشرقة التي لا يحسر مثلي أن ينظر اليها فيذهب توقد شعاعها

بنور عينيه .

- قل ما تفتكر به يجلاء ، يا بارداليان ، فلست من الذين يبهر عيونهم

الشعاع .

- أوثر يا مولاي ان تكون الباديء بالتصريح .

- ليكن ما تريد فاعلم اني لا أعد شارل التاسع ملكاً

فارتعش بارداليان ورأى كأنما هوة قد فتحت أمامه فقال :

- إني لا أعرف جلالة الملك ، ولكنني أسمع الناس يقولون عنه انه
ضعيف الارادة ، شرير الطبع ، وانه مصاب بمرض يهيج أعصابه فيجبرده
من الرحمة ...

هذا ما أسمع الناس يقولونه عنه . . . أما أنا فإني لا أعرف شيئاً من
أمره ، إلا ان ملكاً تكون له هذه الصفات لا يزرع في قلوب رعيته عاطفة
الاخلاص .

- إذا كانت هذه مبادئك .. فقد سهل اتفاقنا . لأنك حر باسل
ذكي الفؤاد ، ويخلق بمن كانت له هذه الصفات أن يستخدمها في
عمل عظيم .

ولا أنكر ان المشروع مخوف بالخطر ، ولكن من كان مثلك ، لا يعبأ
بالمخاطر .

فماذا تقول ، إذا ارتقى العرش ، بدلاً من هذا الملك الخامل
الضعيف ، ملك ملؤه الحزم والنشاط ، والمروءة والاقسام ... ملك
يحمل هذه البلاد من أرقى الممالك ، ويجعل من يستحق من رجالها من
أشهر الرجال .

- أرى مولاي يطلب إلي المؤامرة على الملك

- هو ذاك يا بارداليان ، وأنت ترى مبلغ ثقتي بك ، وما كان ذاك إلا
لأن أمثالك نادرون .

- لا أنكر ما تقول يا سيدي ، غير ان تشريفك إياي بهذه الثقة قد يؤدي
بي إلى المشنقة .

- هل خفت ؟

- بما أخاف اذا كنت لا أخافك .

- إذا ، ما يمنعك عن موافقتي ، وفوقها فأنت لا تلج هذه المؤامرة
مباشرة .

- أرجو سيدي ان يكلمني بإيضاح لأنني لم أفهم كل ما يريد .

- إذا فاسمع ، اني اندفعت في هذه المؤامرة ، بحيث بات يستحيل
علي الرجوع .

وهي مؤامرة شديدة الخطر ، وقد يتفق لي ان أحتاج إلى بعض الرجال
المخلصين

فإذا كان حظ هذه المؤامرة الفشل ، وكنت وحيداً ، كنت ضعيف
الدفاع .

وأما ، اذا كان لدي من أعتد عليه في المهمات ، ضاعف هذا
الاعتماد بأسني .

ولذا كنت في أشد حاجة الى بطل مجرب مثلك ، شديد الذكاء ، كثير
الحيلة طلق اللسان ، لأنني قد أضطر ان أجعلك سفيراً في بعض المهام فتنبؤ
عني في قول ما أريد .

- لقد فهمت يا سيدي ، فأنت تريد ان تجعلني اليد العاملة ، وتكون انت
الرأس المرشد .

- نعم هذا هو مرادي فهل توافق عليه ؟

- أرضاه ببلء الارتياح بشرط ان تكون لي منه فائدة .

- ماذا تريد أن تكون فائدتك ؟ ... سل ما تشاء ، ولا تخف
أن تسأل .

- اني لا أطلب شيئاً لنفسي ما خلا نفقاتي

- إذا سأجعل لك راتباً قدره خمسمائة ريال تقبضه في كل شهر الى انتهاء
المهمة . أيكفي هذا الراتب ؟

- بل هو كثير ولكنه راتب لا مكافأة .

- اذا كنت لا تريد شيئاً لأجلك مما ترجوه من الفائدة ، فلمن تريد
ان يكون ؟

- لولدي .

- هل لك ولد ؟

- ألم أقل لك يا سيدي .

- نعم لقد ذكرت .. فقل ماذا تريد لولدك ؟

- مائة الف فرنك اذا حببت المؤامرة يعطاها بشكل هبة

- واذا نجحت ؟

- أي اذا استوى على عرش فرنسا الملك الذي تختاره ؟

- نعم .

- اذا كان ذلك فلا اطلب لولدي مالاً ، بل اطلب له منصباً رفيعاً في

الجيش يناسب بسالته وإقدامه .

-- أما المائة الف فرنك فإني أتعهد بها منذ الآن ، وأما المنصب فإني أتعهد

ان أكتبه ضمن شروطتي التي سأقترحها حين أرضى الرضى التام بخدمة

الملك الجديد .

- وأنا أكتفي بكلامك ، متى تبدأ هذه الحملة ، او بعبارة أخرى متى

تريد ان اكون في باريس ؟

فتمعن هنري هنيهة ثم قال : بعد شهرين ، إذ لا ينتظر حدوث أمور

ذات شأن قبل هذا التاريخ ، ولذا يجب ان تكون في قصرى في أوائل

شهر أفريل .

- سأوافيك وربما جئت قبل هذا الموعد .

- كلا لا يجب ان تحضر قبله إذ لا أحب ان يراك احد في باريس الا بعد

هذا التاريخ . وعندما تصل الى باريس اذهب توأ الى القصر ولا تدع احداً يراك

من الذين يعرفونك .

- سأحضر ليلاً في اليوم الثامن من افريل .

- وأنا أنتظرك في ذلك اليوم ، فماذا عولت أن تفعل في خلال

هذه المدة ؟

علي ان أسير الهوينساء الى باريس ، وأرود ضواحيها ، الى أن

يحين الميعاد

- هل انت محتاج الى النقود ؟

ولم ينتظر هنري جواب بارداليان ، بل نادى تابعه وكلمه همساً .

وذهب الرجل وعاد بكيس صغير محشو بالدنانير ، ووضع على المائدة

وانصرف .

فقال بارداليان في نفسه : ما اطيب الفاكهة بعد الطعام لأنني لم اذق طعامها

منذ عهد بعيد .

ثم تناول الكيس ووضع في جيبه .

وبعد ساعة كان جميع من في الفندق نياماً ما خلا هنري وبارداليان فكان

هنري ساهراً في سريره يناجي نفسه ويقول :

لقد ظفرت برجل يساوى ثقله ذهباً عند الدوق دى كيز .

وكان بارداليان يراقب النجوم باسماء وهو يقول :

اني مخاطر بحياتي ولكني ضمننت مستقبل ولدى .

وحده قاضيه متتدى ليلاس

الاسيرتان

في اوائل شهر افريل ، اى في ذلك اليوم الذى ابدل فيه بارداليان الأكبر ملابسهم القديمة البالية بملابس جديدة ، ودعا من ابواب باريس ، وهو اليوم الذى كان بارداليان الأصغر يسعى فيه الى الاجتماع بفرنسوا مونجورانسي ، نذهب بأذهان القراء الى قصر مسمي ابي قصر هنري مونجورانسي الذى سجنتم فيه حنة وابنتها لويزا منذ عشرة ايام .

وكان هنري في ذلك اليوم عابس الوجه مقطب الجبين يسير جيئة وذهاباً في غرفة متسعة ، وقد تاه في مهامه التفكير . فانه حين وجد حنة استحالته حياته وعادت اليه ايام صباه ، وهاجت في قلبه الشره براكين ذلك الغرام القديم .

وقد عرف القراء من الفصل السابق ان غرام هنري كان قد تناقص وكاد يتلاشى بدليل انه لم يقل كلمة سخط لبارداليان الأكبر لانه كان قد نسي حنة لتقادم العهد بغرامه او حسب انه نسيها . ولكنه حين وجدها واسرها شعر ان غرامه القديم قد تجدد .

وربما لم يكن هذا الحب يماثل الحب السابق ، فقد كان للكبرياء والعناد دخل فيه . وقد كان ، فيما مضى ، يستسهل الجريمة إرضاء لعواطفه في هذا الحب ،

أما الآن فقد بات يستسهل الشدة والعنف ، وكل ضروب النذالة في هذا السبيل .

وكان يفكر وهو يمشي انه حين كان يراقبها ايام صباه من خلال الادغال التي كان يتوارى فيها يشعر ان قلبه يكاد يخرج من صدره ويرى انه لا يحسر على الدنو منها . وكان يرضى ان لا تكون له على ان لا تكون لسواه .

وحين جرحه اخوه في الغابة وحمله الحطابون الى الحصن لم يكن يشغله ويخيفه غير إمكان اجتماع حنة بزوجها وانفاقهما فيكون كل ما كاده قد ذهب ادراج الرياح . ولكنه لم يحدث شيء مما خافه ، ولما علم ان ابيه قضى بطلاقها من اخيه كان سروره لا يوصف وقنع بهذا الانتقام .

هذا ما كان يفكر به وهو يسير في غرفته ذهاباً وإياباً بخطوات مضطربة ، ثم وقف فجأة وقال في نفسه : اني فرحت لطلاقها ، ورضيت ان لا تكون لي بعد افتراقها عنه ووجدت في ذلك سروراً وارتياحاً ، فمن اين جاء هذا الارتياح ...

انه نتج ، دون ريب ، من بغضي لأخي . فإني كنت اكرهه اكثر مما كنت احبها ... ولذا لما تعاقبت الأيام محت ذلك الحب ، واكنهم لم تقو على محو ذلك الكره الدفين ..

نعم اني اكره اخي كرهاً عظيماً ، وانني لم انتظم في سلك هذه المؤامرة التي قد لا اخرج منها حياً الا لأتغلب على اخي واسحقه سحقاً لأن كرهني اياه لا يقف عند حد . اذا قد احى ذلك الغرام ، وقد عرفت السبب في زواله وهو حلول بغض اخي محله .

ولكن ما بالي اضطربت حين رأيتهما ... وكيف اتقدت جذوة ذلك الغرام
وانا احسبها قد انطفأت ...

بل كيف أراني أحبها اليوم فوق ما كنت أحبها أمس ... وأخي أين
هو الآن .. إنه بعيد عن باريس دون ريب ، فما يمنعني عن ان أبلغه انهما في
قبضة يدي .

وفيا هو ينجي نفسه بهذا القول ، وقد بلغت نفسه أبعد غايات الانتقام
طرق الباب .

فظهرت عليه علائم الجزع وفتحه ، فدخل منه ذلك الرجل الذي كان
مع هنري في الفندق الذي اجتمع فيه ببارداليان الأكبر فقال : لدي خبر
هام يا مولاي .

- ما هو ؟

- هو ان أخاكم في باريس ، وقد رأيته وقفوت أثره حتى دخل
إلى قصره .

فاصفر وجه هنري وقال :

- أواثق مما تقول ؟

- لقد رأيته يا سيدي كما أراك .

- حسناً دعني وحدي .

فانصرف الرجل وجلس هنري على كرسي يضطرب ، وهو منذ هنيهة
كان يحدث نفسه بإبلاغ أخيه ان امرأته وابنته في أمره .

ثم جعل الآن يفكر في طريقة اجتنابه والفرار منه ، ويقول في
نفسه : فرنسوا في باريس ... إذا لا بد لنا من أن نلتقي ... واني أشعر بيد
خفية تدفع كلاً منا إلى الآخر ...

وعبثاً كنت أحاول اجتنابه ، وأذهب إلى الشرق ، حين يكون
في الغرب ...

نعم ، قد كان ما خفت ان يكون وسنلتقي بعد أسبوع بل ربما التقينا
اليوم ، فماذا يقول لي وماذا أقول له ؟
ثم قام يمشي في أرض تلك الغرفة وهو يحاول ان يسكن الخوف الذي استولى
عليه لما علمه من قدوم أخيه .

وقد مر وهو يمشي بمائدة فضرب عليها بيده وهو يقول : إني لو كنت
وحدي لما خشيت لقاءه . . .

بل كنت أذهب إليه فأقول له : أنت أتيت لتبحث عني وقد أتيت اليك
فقل ما تريد .

ولكني لست وحدي ... وهي معي واني أحبها ... ولا أحب أن
يحدثها ، وان يلتقيا ، لأنها قد تكون لا تزال تحبّه ، فماذا أصنع ...
وأين أخبئها ؟

وبقي على هذه الحالة ساعة ، إلى ان ظهرت عليه علائم السكينة ،
فابتسم وقال :

- نعم إنها ستكون هناك بأمن ، فإني أعرف طريقة تضمن لي وفاء تلك
المرأة التي سأقيمها عندها ...

وعند ذلك ذهب الى تلك الغرفة ، التي كانت مسجونة فيها
حنة وابنتها .

فلما وصل إلى بابها وقف هنيهة يصغي ، فلم يسمع حساً ففتح الباب
بمفتاح كان معه .

ثم دخل ووقف وقد ظهر عليه الاصفرار .

وكانت حنة وابنتها جالستين . فلما سمعتا صرير المفتاح في القفل ،
تعانقتا كأنهما تحميان نفسيهما بهذا العناق ، وجعلتا تنظران إلى هنري
نظرات الرعب .

أما هنري فانه أقفل الباب وتقدم منهما فقال لحنة :

— أعرفتني يا سيدتي

فاحمر وجه حنة وقالت له : كيف تجسر ان تظهر لي أمام هذه الفتاة ، بل كيف تجسر ان تكلمني أمامها .

— أرى الآن انك قد عرفتني ، فأهني نفسي لوثوقي من اني لم تظهر علي علائم الكبر ، كما قال لي أخيراً رجل لا بد ان تذكره ، فإنه يدعى بارداليان .

فقطت لويزا وجهها بيديها حين سمعت اسم بارداليان .

وقالت له حنة : إنك جردتنا من آخر نعيم بقي لنا ، وليس ذلك يذكر في جانب آثامك ... نعم إننا أسيرتك ولكنني عازمة عزمياً أكيداً على ان لا أدعك تتأدى في هذه الجرائم

فانتفض هنري وضم يديه وحاول ان يقدم على عمل وحشي غير انه ملك نفسه ، وكظم غيظه فقال :

— أنت لا تزالين على ما كنت أعهد به بك ، لأنني ما قابلتك مرة إلا قرأت سور الكره والحقد بين عينيك . ثم رأيتك اليوم بعد كرور الأعوام ، فرأيت هذا الحقد وهذا الرعب لا يزالان فيك على سابق العهد بهما .

فاعلمني يا سيدتي إنني أحب محادثتك الآن في بعض الشؤون ، وأود ان أكون معك في خلوة ورجائي ان تدعنا ابنتك وحدنا .

فطوقت لويزا عنق أمها بيديها وقالت لها :

— أماء اني لا أبتعد عنك .

فقالت لها حنة : إطمئني يا ابنتي فلا نفرق ، ولا تخشي هذا الرجل ،

لأن أمك تحميك .

فاضطرب هنري اضطراباً شديداً ، وخطر له في البدء ، أن يمنح إلى العنف . ولكنه رأى ، من عيني حنة ، انها واقفة مع ابنتها وقوف اللبوة مع أشبالها فخاف ومع ذلك فإنه كان يريد ان يكلمها .

وقد هاجت عواطف غرامه السابق ، حتى لم يعد يعلم في أي موقف يقف بازائها .

وسكتت هنيئة ، ثم قال لها ، بلهجة جمعت بين الالتماس والوعيد معاً : مما تخافين يا سيدتي ، فاني لو شئت التفريق بينك وبين ابنتك لفعلت ، ولكنني لم يخطر لي هذا التفريق في بال .

قولي عنى ما تريدن ، وظني بي ما تشائين ، فإن ذلك لا يمنعني عن ان اكلمك بملء الحرية والجلال .

نعم اني نهجت معك مناهج العنف الشديد ، وربما عدت ايضاً إلى هذا العنف إذا احتجت اليه .

اني وفي لنفسي ولست من اولئك الذين يخدعون النساء ، فيتزوجون بهن خدعة ونفاقاً ، ثم يطلقونهن طلاقاً غير مشروع .

إنني أرى من عينيك احتجاجاً عنيفاً ، ولكن هذا الاحتجاج لا يمنع كون ما قد كان . إن فرنسوا قد هجر الزعانف الأسافل ، وأما أنا فقد بقيت على الوفاء .

فصاحت حنة صيحة كره وأنفة ، فان هنري عرف كيف يكرهها على أن تجيبه . ونسيت ابنتها وتمثل لها زوجها فرنسوا فقالت لهزلي :

— أيها الشقي ، أنت السافل وأنت الذي فرقت بيننا بآثامك ، وأما فرنسوا فإنه لا يزال يبكيك كما أبكيه .

ثم شهقت بالبكاء فعانقتها لويزا وقالت لها :

— أماء اني لا أزال لك .

فضمت حنة ابنتها إلى صدرها وقالت لها :

— نعم ، يا ابنتي ... فأنت كل ما بقي لي في هذا الوجود ، وأنت كزني الوحيد .

فجعل هنري ينظر إلى الأم والبنت نظرات ساهية ، وقد أدرك خطأه

بعدم التفريق بينهما ، وعلم ان الكلام معها لا يفيد ، وانه لم يبق له غير سياسة العنف ، فقال لها بلهجة الاعتدال :

- لا بأس ، فستعرفين في مستقبل الأيام أنك مخطئة بالحكم علي ، بل ستعرفين اني أنقذتك مع ابنتك من أشد الأخطار ، فلا تنظرين إلي بهذا الرعب .

والآن يجب ان تعلمي انه لا يمكن ان تقيما في هذا القصر ، لأن الخطر الذي كان يندركا في شارع سانت دينيس يندركا هنا أيضاً فاستعدا للذهاب بعد ساعة في مركبة تحملكما إلى محل امين .

ثم تركهما وانصرف وهو يقول : سأختار بعدها فرصة مناسبة

ولبثت الفتاة وأما بعد ذهابه حائرتين واجمتين ، وقد رعبت حنة رهبا شديداً ، وقالت في نفسها : لم يبق لنا حيلة فقد وقعنا بين براثن هذا الوحش ، فان الرجل لا يزال كما عرفته منذ غرور الصبي .

ثم قالت لابنتها ، واليأس ظاهر بين عينيها : ما عساه يصنع بنا هذا الرجل ؟

فقالت لها لويزا : تشجعي يا أماء ، وليرسلنا إلى حيث يشاء بشرط ان لا نفرق .

وقد مضى ذلك النهار ، ومضى الليل دون ان يقدم اليهما أحد خلافاً لما قاله لهما هنري من انها ستنتقلان بعد ساعة .

« تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني »

وحده
فأصديه